الجَرَّة المَشْروخة

جُهُودُ التَّجدِيدِ

مُحَمَّد فَتح الله كُولَن

سلسلة الجرة المشروخة (١٢)

جهود التجديد

Copyright©2017 Dar al-Nile

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بأية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع

2017/7826

الترقيم الدولي

ISBN: 978-977-801-041-1

رقم النشر

1060

دار النيل للطباعة والنشر

Tel & Fax:002 02 25379391

Mobile: 002 01023201002

E-mail: info@daralnile.com

www.daralnile.com

الجَرَّة المَشْروخة

جُهودُ التَّجدِيدِ

تأليف

محمد فتح الله كولن

ترجمة

د. عبد الله محمد عنتر

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس

المقدمة ١٣

التديّن والحساسيّة الدينيّة ٢٣

ليتني أُشعِل جذوةَ محبة الله في قلوب العباد! ٢٤

الاهتمام بإحياء الآخرين ٢٥

علينا أوّلًا أن نهدِم صرحَ أنانيّتنا ٢٦

أصحاب الغايات السامية والقلوبُ السخية ٢٩

سِتار الأسباب والعناية الإلهية ٣٠

أسواق تُباع وتُشترى فيها الورود ٣٣

مكافحة المكتسبات اللاشعورية القذرة ٣٥

الفيروسات الفتّاكة والطب الوقائي ٣٦

الثقوب المسدودةُ ضدّ الأعداء الأخفياء ٣٧

صديق السوء والحيّة الرَّقطاء ٣٨

الاستياء وعلاجه ٤٣

الاستياء الحقيقي والمجازي ٤٤

حقّ الوالدين، والاستياء المجازي ٤٥

العمل الذي يُكسب ثواب العبادة ٤٧

أثرُ الاستياء في الحياة الاجتماعية ٤٨

"يَدُ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ" ٥٠

"لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا" ٥١

هيئات الصلح ٥٢

الارتحال إلى الآخرة بقلبٍ سليم ٥٥

الغلول كبيرة من الكبائر ٥٩

بطلُ العفّة الذي لا مثيلَ له ٥٩

تغليفُ النفقات غير المشروعة بغلاف مشروع ٦١

المحاسبة الدائمة لتجنّب الوقوع في الغلول ٦٢

مصارحة المجتمع ٦٥
لصوصُ النجاح.. ٦٨
المفهوم الراقي لساعات العمل ٧١
منهج ورثة النبوّة في تنظيم الحياة ٧٢
ما يعِدُ به تنظيم أوقات العمل ٧٥
قراءة الأوامر التكوينية قراءة صحيحة وتنظيم الوقت.. ٧٧
تقسيمُ العمل ومراعاةُ الوقت.. ٧٨
الأضحية وسيلةٌ للتقرّب مِن الله ومِن الناس.. ٨١
الأضحية وخلق الإيثار ٨١
أن يصير الكرمُ من طبيعة الإنسان الفطرية ٨٤
مفاجآت تأتي مع الأضحية.. ٨٧
القيم المقدسة والأعين الساهرة ٨٩
الخطر الكامن في الداخل والكشف المبكر عن هويته ٨٩
العيون النائمة والمجتمع المُسيَّس.. ٩١
لا يتأتّى النظام من الفوضى والاضطراب.. ٩٢
مهام المسجد.. ٩٧
المشاكل التي يُفصَل فيها في كنفِ المسجد.. ٩٨
الوفود الأجنبية التي كان يستقبلها المسجد النبوي ١٠٠
الفلسفة المعمارية الصالحة للجميع رجالًا ونساءً ١٠١
آداب الذهاب إلى المسجد والمكث فيه ١٠٣
الشيطان: ألدّ أعداء خدّام الدعوة ١٠٧
لجامُ الشيطان والمشردون الضائعون ١٠٩
الشيطان والأسرة ١١١
الشخصيات التاريخية التي تعرضت للهجوم ١١٣
الشغفُ بالعلم والدراسة ١١٥
نشوة النصر ١١٦
تأمّل كتاب الطبيعة.. ١١٨

السبل الآمنة للوصول إلى الحقيقة ١١٩
نقل المعرفة والقضية الأساسية ١٢١
الشعورُ بالرتابة والتنويعُ في الأسلوب **١٢٣**
تنوع الأسلوب يولِّد نشوة أخرى ١٢٣
الوعي الكامل بالوقت الذي نعيش فيه ١٢٥
محاسبة النفس والانبعاث من جديد ١٢٧
أكثر الناس خطأً ١٢٩
غاية الحياة **١٣١**
حسنُ الظنِّ بالله ١٣١
حتى وإن ظللنا وحدنا ١٣٣
أستاء لأنهم لا يقدرونني قدري ١٣٥
العمل بمنطق "لا بد من الرجوع إليّ" ١٣٥
أبطال القلب والروح **١٣٧**
النظر بحسن الظنّ إلى الآخرين ١٣٨
للصوفية مناهج شتى ١٣٩
لا أمان مطلقًا لأحد ١٤٠
كُنْ بين الناس فردًا من الناس وإن كنتَ في القمة ١٤١
اشتهاء العبادة ١٤٣
سلطان القلوب **١٤٧**
تجلّي اسم الله الباطن ١٤٧
حبيب القلوب ١٤٩
المرشد الأكمل في كلّ مجالات الحياة **١٥٣**
مشاهدة الوجود من أفق الحكمة ١٥٥
سلامةُ خطّ السير **١٥٧**
الرضا هو الهدف الأوحد ١٥٧
مشكلة الحقد والحسد التي بدأت مع الشيطان ١٥٨

أعظم الأمانات ١٦٠

مسؤوليةٌ تصل إلى حدّ الفرض ١٦١

فقه السيرة وصلح الحديبية ١٦٥

الزمن: مفسرٌ كبيرٌ ١٦٥

شمس الحِلْم تُذيب جليدَ الكُرْه ١٦٧

القلوب التي انفتحتْ بفضلِ هذا المناخ السلمي ١٧٠

خبايا الأرض والمسؤوليات التي تقع على عاتقنا ١٧٣

المعادنُ والأرزاقُ المجهولة حتى الآن ١٧٤

الأرض كالأم تحتضن الإنسان بشفقتها ١٧٥

إننا محتاجون إلى عشّاق الحقيقة ١٧٧

الذِّكر هو الإكسير الذي يُجلي صدأ الغفلة ١٨١

تقاسمُ الانفعالات والمشاعر الغافية ١٨٢

التذكير والجلسات الإيمانية ١٨٤

أنواع الغفلة التي تحول دون خدمة الحقّ ١٨٧

حب المغامرة ١٨٩

من الغفلة ربطُ النتيجة بالأسباب ١٩٠

وقاحة من لا يعرف حده ١٩٢

المحافظة على المستوى إزاء التغيرات الاجتماعية ١٩٧

الحفاظ على المستوى ١٩٩

جهود لإطالة عمر الدولة ٢٠٢

الظَّرافة ودماثة الخُلُق في المعاملات الإنسانية ٢٠٧

جوهر المسألة: احترام الإنسان ٢٠٩

الشروع في العمل ولو بفئةٍ قليلة من الناس ٢١١

طلب العناية ٢١٥

العمل من منطلق الأنانية ٢١٦

المهم أن نمحو ذاتيتنا ٢١٨

الحسد وسوء الظن ٢٢١

الشرارة والحريق.. ٢٢٢
الحرص على تتبّع الجلسات الإيمانية........................ ٢٢٣
الاستفادة من النصيحة والجلسات الإيمانية........................ ٢٢٧
الحديث حسب الحاجة ٢٢٩
الفناء في النصيحة والجلسة الإيمانية ٢٣٠
الأحكام المسبقة عوائق تحول دون الاستفادة........................ ٢٣١
الغاية الأسمى والشعور بالشغف ٢٣٥
"لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ" ٢٣٦
كلّما عرفه الإنسان أحبه، وكلما أحبه طلب المزيد من المعرفة........................ ٢٣٦
الشغف أستاذ العلم.. ٢٣٨
الدعاء معونة عظمى من المؤمن لأخيه........................ ٢٤٣
عبودية ثرية صافية ٢٤٣
طلب سيد السادات ﷺ الدعاء من صحابته رضي الله عنهم........................ ٢٤٥
أَسْرَعُ الدُّعَاءِ إِجَابَةً.. ٢٤٦
الدعاء والوفاء ٢٤٨
الدعاء المقرون بالشعور والوعي ٢٤٩
الضعف البشري وسيلةٌ لرقيّ الإنسان ٢٥٣
أيها الإنسان "تأمّلْ في نفسك" ٢٥٤
الإنسانُ إنسانٌ بإرادته.. ٢٥٥
هجمات من اليمين والشمال.. ٢٥٥
حصنوا أنفسكم بالدعاء ٢٥٧
دعاءُ المضطرين وأبواب الرحمة المفتوحة........................ ٢٥٩
الأسباب النافدة والعنايات الهائلة ٢٦٠
المضطرون هم ورثة الأرض.. ٢٦٢
الهمّ هو أكثر الأدعية قبولًا ٢٦٣
روح الخدمة والتفاني ومعايير مستوى المعيشة ٢٦٥
يجب أن توسَّد الأمانةُ إلى أهلها.. ٢٦٧

توفّر الإمكانيات والاقتصاد الحقيقي ٢٦٩
لا حدّ للحياة البوهيمية ٢٧١
المحاسبة الدائمة ٢٧٣
الكمال والتواضع ٢٧٧
روح الإرشاد بجناحي المعرفة والتواضـع ٢٧٨
أكمل الناس هو أكثرهم تواضعًا ٢٨٠
الأرواح المتفانية التي تجمع بين المنطق والحماسة ٢٨٣
أعظم إحسانٍ يمكن أن نهديه للأجيال القادمة ٢٨٤
تبلُّد المشاعر يعني موتَ القلب ٢٨٥
يجب أن يدعِّم المنطقُ والحماسُ بعضُهما بعضًا ٢٨٦
المداومة على ذكر الحق تعالى وإحياء الليل له ٢٨٨
لا سبيل إلى عبور البحار بسفينةٍ خرقاء ٢٩٠
هل حفظنا الأمانة؟ ٢٩٥
الإيمان هو أعظم أمانة ٢٩٦
من يحمل أمانة الإسلام؟ ٢٩٧
خصلة من النفاق تُضيّع الأمانة ٢٩٩
الرغبة في إبراز الذات ٣٠١
هل أداء الصلاة أم إقامة الصلاة؟ ٣٠٢
حبس جزاء الأعمال على دائرتنا الضيقة ٣٠٣
أعظمُ العيب ألا يرى الإنسانُ عيبَ نفسه ٣٠٥
الاستفادة العظمى من مصادرنا الذاتية ٣٠٧
لا سبيلَ إلى توجيه الماء الراكد إلى أي مكان ٣٠٨
لا بدّ من التعرّف على المحكمات أوّلًا ٣٠٩
الحامل الثلاثي ٣١١
جلال الدين الرومي: رجل العشق والحماس المتّزن ٣١٥
الرومي والانبعاث في "سوغوت" ٣١٦
جذبٌ وانجذابٌ محورُهما العلمُ والمعرفة ٣١٧

سماحة كبيرة مقيدة بالأركان الأساسية ٣١٩
الدروس المستفادة من غزوة حنين **٣٢٣**
حُنين: الامتحان الصعب ٣٢٤
اختلال التوازن بسبب نشوة النصر ٣٢٦
الانتحار والعمليات الانتحارية **٣٢٩**
خيانة الأمانة ٣٣٠
العمليات الانتحارية: الجناية المضاعفة ٣٣٣
حبّ الأمة بين النظرية والتطبيق **٣٣٧**
منظومة القيم التي عالجها الدين ٣٣٨
العنصرية والنفاق ٣٣٨
أن يخالط حبّ الأمة اللحمَ والعظمَ ٣٤١
سمات النية التامة **٣٤٥**
درجات النية وفقًا لأفق المعرفة ٣٤٦
ارتباط النية الخالصة بالعمل ٣٤٧
الثواب المترتب على النية ٣٤٨
النية التامة التي تُكمل العمل ٣٤٩
الحفاظ على النية الخالصة منذ البداية ٣٥٠
النيّة هي أبلغُ دعوة تستجلب العناية الإلهية ٣٥٢
النوايا التي تتجاوز الإمكانيات ٣٥٢
الغيرة والحسد **٣٥٥**
قتلُ الأخِ بسبب الغيرة والحسد ٣٥٦
حتى وإن وضعتم لهم سلَّمًا يرتقون به إلى الجنة ٣٥٧
استساغة الحسد ٣٥٩
المصادر **٣٦١**

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأعطران الأزكيان على إمام الأنبياء وقائد المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن استنّ بسنّته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعدُ:

فإنّ للتجديدِ مناهج مختلفة، وطرائق متعدّدة، يتبارى فيها السالكون، ويتسابق في ميادينها المصلِحون، يحملُ كلُّ مجدّدٍ سالكٍ في هذا الطريقِ همومًا معيّنة، ومفاهيم خاصّة، تُساهم في رسمِ ملامحِ التجديد الذي يتبنّاه، وفي توضيحِ الصورة التي يريدها أن تظهرَ.

وإذا أردنا أن نطرقَ أبواب الهمومِ والمفاهيم التي يحملُها الأستاذ فتح الله كولن في عالمه الروحي المتشكّل من عصارة الحضارة الإسلامية بعصورها وأطوارها المختلفة؛ فإننا بذلك نتحمّل على عواتقنا حملًا ثقيلًا، ومهمّة حساسة، وذلك لِما لِمفاهيمِ وهمومِ هذا العَلَمِ من الحساسيّة والدقّة والرقيّ.

لا نستطيعُ في هذه العجالة أن نستعرض فكره ومفاهيمه، ولكننا سنلفتُ الانتباه إلى بعضِ النقاط الدقيقة والمهمّة في جهودِ التجديد من وجهة نظره.

يُحلّق الأستاذُ عاليًا في كتابه الجديد "**جهود التجديد**"، فيستحثُّ الهمّة ويستنهضُ عزيمة الأمة، ويسكبُ عصارة الحضارة الإسلاميّة في أكوابِ مواعظه العذبة التي جاءت على هيئة أسئلةٍ وأجوبة، يشمّ القارئُ من خلالها رائحة احتراق كبدِ صاحبها في مسيرة التجديد والإحياء، ويستشعرُ أنّاته الحزينة بين السطور، ويجدُ دمعاته تنساب بين معاني التجديدِ وجهوده.

إنّ الأستاذ إذ يتناول الاهتمام بمسألة إحياءِ الآخرين، والشغف بمحاولةِ انتشالهم من رقدتهم؛ يُفرّق بين "التديّن" و"الحساسيّة الدينية"، فينظر إلى الحساسية الدينيّة نظرة أوسع وأعمق، ويرى أن أوّل حدود الحساسيّة الدينية تبدأ عند آخر حدود التديّن..

فيرى التدين على أنه محضُ التطبيق على الصعيد الشخصيّ، والحساسيّةَ الدينية على أنها إبلاغ الجماليّات ومحاولة إيصالها إلى الآخرين بأبهى حلّة.. فيستحث السالكين والمجتهدين إلى هذا المستوى من الجهدِ في مسيرة التجديد.. حتى إنه يطلب منهم ألا ينفكّوا عن هذا الأفق أو يستنكفوا عن هذا المنهج قيد أنملة، فيقول في خاتمة الفِكرة:

> "وأصحابُ هذا الأفق مهمومون أكثر من غيرهم، لا ينفكُّ ذهنُهم عن التفكير في هذه الغايات السامية كلما قاموا أو قعدوا، يُجهِدون عقولهم بالتفكير في هذا الأمر، ويمنعون عقولهم من الاستراحة، يطرحون أفكارًا جديدة، ويُسجِّلون كلَّ ما جال بأذهانهم في مكانٍ ما، فإن لم يجدوا فرصة احتفظوا بها في خلايا عقولهم حتى يقيّموها فيما بعد.

إن همّ الدعوة يتملك هذه الأرواح المهمومة لدرجة أن السهوَ قد يعتري صلاتهم أحيانًا، ومن الممكن أن نعزو سهو المقربين إلى هذه الحالة السامية وإن لم يكن لها مصطلحٌ خاص في عِلم المصطلحات".

ونجده يعزو سهو النبيّ في الصلاة إلى الانشغال بمثل هذا الأفق، وأن الصلاة جاءت في المرتبة الثانية بعد الشغف بمسألةِ إحياءِ الآخرين، فسها صلوات الله عليه عن الثانية انشغالًا بالأولى.

ثم بالانتقال إلى مقاله "الغلول كبيرة من الكبائر" نراه بعد كلّ هذه الهمّة العالية والنظرة الآفاقية الرفيعة يمنع نسبةَ النجاحات والفتوحاتِ إلى مؤسِّسِ الفكرةِ أو صاحبها الأوّل، بل يرى أيَّ نجاحٍ على أنه حقُّ الجميع وجهد الفريق، ويصفُ نسبة النجاحِ إلى الشخص أو الرمزِ بالسرقة، ويسمِّي فاعلي ذلك بـ"لصوص النجاح".. ويشبّه الأمرَ بالغنائم الماديّة، فكما أن الغنائم المادّية ليست للقائد فحسب، بل تُقسّم بين أفراد الجيش بالتساوي؛ فكذلك الغنائم المعنويّة، لأنّ الشرف والغنيمة المعنويّة التي ترتّبت على هذا النجاح هي ملكٌ للفريق كلّه..

وهكذا يمضي في إحياء الهمّة وإنعاشِ العزيمة ضمن أفق المحو والتواضعِ قائلًا في خاتمة المقال:

"وليس من الصحيح أن ينسب الإنسانُ لنفسه النجاحات التي أُحرزت نتيجة مساعي وجهود الملايين من الناس، ولا أن يعتبر توجّه الناس إليه حقًّا له، وهذا الوضع يُعدّ غلولًا وذنبًا عظيمًا وخيانةً للأمانة".

ثـم نـرى الأسـتاذ يعـرّج فـي معـرض حديثـه عن "سـاعات العمل التطوّعيّة لدى أرباب الخدمة" إلى منهجِ ورثة النبوّة في تنظيمِ الحياة، فيعرضُ منهجَين ويقارن بينهما ويُؤَصِّل لأحدهما كمنهجٍ يجب اتّباعه لا سيما في ظروفِ عصرِنا؛ أما الأوّل فهو منهجُ الاعتزال والانقطاع عن الغير والانغلاق على النفسِ بالعبادة الفرديّة في الخلوة، والتجرّد عـن كل الإمكانيـات المادّيـة والدنيويّـة لصالـح الدعـوة، وأمـا الثاني فالفاعليـة والمشـاركة والمعاشـرة والتبليـغ، والموازنـة بيـن الديـن والدنيـا، -فيحتـرمُ الأول ويُثني عليه أدبًا كما هو شـأنه دائمًا- ويتبنّى الثاني ويحثُّ عليه، فيقول:

"وقـد يوجـد دائمًـا أنـاسٌ نـذروا حياتهـم كلَّها في سـبيل الحـق والحقيقـة، وأغلقـوا أعينهـم عمـا سـوى خدمـة الدين، وتجـرّدوا تمامًـا عـن الدنيـا.. وإن هذا الاتّجاه لا بـأسَ فيه ما دامَ أربابه لا يُكرِهون الآخرين عليه ولا يُكلّفون غيرهم به.

وإنَّ مـن أربـابِ هذا المنهج المتصوفـةَ الخلوتيّين الذين اعتزلـوا الدنيـا، وعاشـوا حياتهـم فـي عزلـةٍ وانـزواء، فأغلقوا أبوابهم على أنفسـهم حتى لا ينشـغلوا بشـيء ولو طرفة عين عن العبادة لربهم ﷻ، ولكن علينا ألا ننسى أن هذا ليس سبيلَ ورثـة النبـوة.. إننـا نقـدّر هـؤلاء النـاس، ونتوّج بهم رؤوسـنا، ولكن سيد الأنام ﷺ لمّا كان يبلـغ رسالته لأتباعه كان يُخبرهم بـأن مـن يُخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ ممن لا يخالط النـاس ولا يصبـر علـى أذاهـم، وعلـى ذلك فتقـع على كلِّ فردٍ مسـؤوليّات ومهام عليه أن يقوم بها ويؤدّيها بإتقان في سـبيل رفعة أمّته، ولا سيما أن رفعة الإنسان منوطةٌ من جهةٍ ما برفعة

أمّته والأجيال القادمة، ولذا يجب على الإنسان أن يُطوّر من خططه الكبرى العامة التي يراعي فيها المجتمع ككل، وأن يبذل جهده لتحقيق هذه الخطط، ولكن إلى جانب هذا عليه أن يقوم بتنظيم أعماله، حتى لا يعتري دينَه وديانتَه وقلبه وروحه أيُّ خلل أو قصور، وألا يتخلف عن السعي بقدر الإمكان عن سبيل الله".

ويقول أيضًا:

"إن السبيل الأساس الذي يجب اتباعه والكمالَ الحقيقي بالنسبة للمؤمنين المكلفين بمعايشة الدين وتبليغه -ولا سيّما وارثي دعوى النبوة- هو أن تكون مع الحقِّ بين الخلق. أجل، إن معية الحقِّ بين الخلق سلوكٌ نبوي؛ ووظيفة المؤمن الأساسية هي أن يجعل المكان الذي يعيش فيه يحاكي هذه القاعدة بقدر الإمكان".

ثم نراه يصرخُ صرخةَ إخاءٍ نادرة في زمن العداوة، فيدعو إلى تشكيل مناخ سلميّ على مستوى الإنسانيّة، عبرَ إقامة جسور الحوار بين الثقافات والحضارات، وتهيئة مناخ مناسب للتبادل المفيد بين الحضارات، موضّحًا أن هذا هو مقتضى اللحظة قائلًا في الختام:

"علينا أن نُقيم جسورَ سلامٍ بين مختلف الثقافات، وإلى جانب نقلِ بعض الأشياء للآخرين نَستلهِم منهم أيضًا بعضَ الأشياء، وبذلك نبرهن على أن مختلف المجتمعات والثقافات ليست غريبةً عن بعضها أو منافية لها".

ثمّ يسمو بأدبٍ رفيعٍ يعتبره جوهرًا للمسألة، ألا وهو "احترام الإنسان" حتى لو كان هذا الإنسان متجاوزًا حدوده، ويعتبر ذلك

فرصةً لعرضٍ وإظهار الأدب المحمّدي الفريد في احترام الآخر كائنًا من كان.. فيقول:

"علينا أن نبدي الاحترام اللائق بماهية الإنسان؛ لأن الإنسان مخلوقٌ كريمٌ لا بدّ من احترامه وتقديره، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (سورة التِّينِ: ٤/٩٥)، وهنا يبين ربنا ﷻ أن الإنسان مخلوق كريم محظي بقيمةٍ فوق القيم، وهو في طبيعته يعبّر عن مثل هذه القيمة.. ولا يخفى عليكم أن رَسُولَ اللهِ ﷺ لما مُرَّ عَلَيهِ بِجِنَازَةٍ قَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: "**أَلَيْسَتْ نَفْسًا**"[١]، ومن ثم فعليكم ألا تتخلوا عن احترامكم لهذا الإنسان الذي خلقه الله مكرَّمًا وإن أساء معاملته معكم، حتى وإن استخفّ البعضُ بقيمكم وأساء الأدب مع الله ورسوله فعليكم أن تحافظوا على أسلوبكم معهم محافظتكم على شرفكم وعرضكم، ويجب ألا تنسوا أنكم مسلمون مزوَّدون بالأدب المحمدي والخلق القرآني؛ بمعنى أن أخلاقكم هي أخلاق القرآن، فكيف لكم أن تتصرفوا مثل الآخرين؟! قد يُفلت لسان الآخرين، وبعضهم يدنّس المكان الذي يمرّ به، ولكنكم لستم مثلهم، إنكم مضطرون إلى أن تعبروا عما تتميزون به وتختلفون فيه عنهم حتى في أسوإ الظروف".

ثم نراه يُبيّن إكسير النجاحِ وسبيلَ التأثير الإيجابي في القلوب، موضّحًا أن ذلك مرهون بمدى التحلّي بمبادئِ الأنبياءِ وقِيَمِهم، ومدى الاستعداد للتضحية في سبيل ذلك، فيقول:

(١) متفق عليه.

"على الإنسان أن يربط نيته وسعيه وجهده وخططه ومشاريعه بغايةٍ سامية، وأن يقتفي أثر هذه الغاية على الدوام، وأن يكون على استعدادٍ لأن يضحّي في سبيلها بكل ما يملك إن لزم الأمر، ولكم أن تصفوا هذا الجهد الذي تضطلعون به في هذا السبيل بالجهد النبوي؛ لأن سبيل التأثير الإيجابي في القلوب هو التحلي بالأوصاف العالية للمرشدين الحقيقيين من الأنبياء العظام عليهم السلام، فما يحمله هؤلاء الأنبياء الذين هم نجومُ سماءِ الإنسانية من صفات مثل العصمة والصدق والأمانة والفطنة إنما هي أبعادٌ مختلفة لحياتهم، ولقد اختصهم الله تعالى مع كل هذه الصفات بالأتمية والأكملية؛ لأنه لا يمكن لدينٍ أتمّ وأكمل أن يقوم إلا على يد أناسٍ يحملون هذه الصفات، وبما أن الله تعالى أقام هذا الدين -إن جاز التعبير- على أيدي رسله بمقتضى قوله ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٣) فعلى سالكي طريق هؤلاء الرسل أن ينشدوا الأتمية والأكملية في الإيمان والإسلام والإخلاص والعشق والشوق".

ثم يتابع الفكرة في مقالٍ آخر، فيعلو بالسالكين في هذا الطريق قممًا فريدة، ويسلك بهم إلى مسالك مجيدة، بحثًا عن هذا الإكسيرِ وما يتطلّبه من شمائل حميدة، فيستحثُّ همّتهم في مقاله "المحاسبة الدائمة" إلى مراقبة النفس ومحاسبتها ومحاكمتها حتى على أبسط التصرّفات، ويسعى إلى تخليص النفس والهوى من التشوّف للأجر حتى وإن كان طبيعيًّا معتادًا، ويطلب من أجيالِ التجديد القادمة

ألّا تبني مساعيها على الأجر والأجرة، بل يريدهم أن يدوروا مع الاستغناء حيث دار، فيقول:

"على الإنسان أن يحاسب نفسه قائلًا: "يا ترى! هل أنا أستحقّ بالفعل ما أتقاضاه من راتب؟".. بل علينا أن نحاسب أنفسنا عن مدى أحقّيتنا لهذا الشيء حتى وإن كنا نصلي في مكان مفتوح للعامة، ونأكل من طعام هذه المؤسسة، ونشرب من شرابها.. والحق أننا إن كنا أوقفنا أنفسنا للخدمة حقًّا فيجب أن نتضوّر ونتلوّى بهذه الأفكار في عالمنا الداخلي، ونتعجّب من حالنا.

فحتى غنيمة الحرب التي شُرعتْ لتعريف الناس بعظمة وجلال اسم الله تعالى ترتكز في مشروعيتها وإباحتها على أسسٍ معينة، فمثلًا قال النبي ﷺ في إحدى غزواته: "**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**"[٢]، ولكن لما أمر بإعطاء أحد الصحابة نصيبًا من الغنيمة قال له ذلك الصحابي الجليل الذي لا نعرف اسمه: "مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ"[٣].. وهكذا يجب أن تدور الخدمة على هذه الفكرة، وأن يعيش رجالها في استغناءٍ عن الناس دائمًا، حتى يحظوا بالقبول لدى الناس أيضًا، وتكون أفعالهم وتصرفاتهم ذات صدى في قلوبهم، فـ"**إِذَا رُؤُوا، ذُكِرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**"[٤]، فلا حاجة لهم إلى قول المزيد؛ لأن أفعالهم بمثابة اللسان

(٢) **صيح البخاري**، الخمس، ١٣؛ **صحيح مسلم**، الجهاد، ٤١.

(٣) **سنن النسائي**، الجنائز، ٦١.

(٤) **سنن ابن ماجه**، الزهد، ٤.

الفصيح والخطيب البليغ، أما هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يبلغوا هذا المستوى فإن صياحهم وصراخهم لا يجدي كثيرًا مع الناس، وإن شغلوا بالهم مؤقتًا فلن يستطيعوا أن يقرّبوهم حتمًا من السير في طريق **الله** ﷻ.

ربما يرى البعضُ صعوبةً بالغةً في الحياة على هذا المستوى، ولكننا طالِبُو الصعاب، وعلينا ألا ننسى قول ربنا ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى**﴾ (سورة الضُّحَى: ٤/٩٣)، فهذا الخطاب ينطبق علينا أيضًا. كما وبّخ القرآن الكريم الذين يرون خلاف ذلك بقوله: ﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ**﴾ (سورة القِيامَةِ: ٢١/٧٥)".

إننا نؤكّد على أننا لا نستطيعُ في هذه المقدّمة المختصرة سردَ نقاط التجديد لدى الأستاذ كولن، وما سردناه لا يتجاوز الغيض من الفيض، أو القطرة من البحر، علها تكون فاتحةَ خيرٍ وبطاقةَ تعريف..

وإننا إذ نحاول اختصارَ وعرضَ بعض مبادئ التجديد لدى الأستاذ كولن؛ فإننا نتقدّم إليه بأبلغِ معاني الشكر المحفوفة بباقات التقدير، ونطلب منه مزيدًا من الإرشاد والتوجيه، وندعو **الله** له بمديد العمر ووفرة الصحّة..

مارس/آذار (٢٠١٧م)

دار النيل للنشر والتوزيع

ملاحظة:

يُعتبَرُ الكتاب الذي بين أيديكم هو الثاني عشر من سلسلة "الجرّة المشروخة"، وهو عبارة عن مجموعة مقالات نُشرت بالتركية تحت عنوان "جهود التجديد".

وقد نُشرت هذه المقالات على الموقع الإلكتروني *www. herkul.org* في الفترة من (٢٠١١/٧/٤م) وحتى (٢٠١٢/٧/١٦م).

التديّن والحساسيّة الدينيّة

سؤال: ما المعنى الذي يُفيده مصطلحَا التديّن والحساسية الدينية؟

الجواب: للتديّنِ مراتب شتى ودرجاتٌ متفاوتة؛ تبدأ على الجانب النظري من احترام المبادئ الدينية والانصياع لأوامر الدين إلى حمايته والذود عنه، وعلى الجانب العملي من معايشة الدين إلى جعله روحًا للحياة، فمثلًا يؤمنُ البعضُ بما يجب الإيمان به على حسب مستواهم المحدود من المعرفة بأمور الدين، فيؤدُّون عبادتهم وطاعتهم حسب ذلك المستوى، ومن الناس من يتناول الدين بِشِقّيه النظريّ والعملي بشكلٍ أكبر وأوسع؛ فيأتي بما أمرَ به الدين، ويتجنّب ما نَهى عنه، وفوق ذلك يحاول ألا يقترب من المشتبهات خشية الوقوع في الحرام، بل يعمل على أن تكون التقوى هي مدار حياته، أما الذين يعايشون الدين بوعي وإدراك أكبر؛ فهم يؤدون عباداتهم ضمن أطر المراقبة، ويعملون على أن يكون الإحسان هو نبراسُ حياتهم، ومن ثم فلِلتدين مراتب شتى واسعة متفاوتة كما بين الثرى والثريا، ومن المهمّ ههنا أن نقول: إن التديّن حتى وإن كان في مرتبته الأولى فهو ذو أهمّيّة حياتيّة لا يُستهانُ بها أبدًا.

أما الحساسية الدينية فتعني أن يراعِي الإنسانُ بدايةً المعاييرَ الدينية في حياته الشخصية ولا يحيد عنها قيدَ أنملة، وأن يُظهِر دقّته الشديدة

وحساسيّته البالغة في سبيل أن يُطبَّق الدين بين أفراد الدائرة القريبة منه والبعيدة عنه ومَن يتحلّقون حوله ويترقّبون أوامره؛ وبتعبير آخر تعني الحساسية الدينية أن يواصل الإنسان حياته في رغبة واشتياق إلى المحبوب الذي ترنّم به الشاعر يحيى طَاشْلِيجَالِي(٥) بقوله:

ألا ليت حِبّي يُحبُّه الخلق أجمع

وليت قصته مدار حديثنا فهي الأمتع

ليتني أُشعِل جذوةَ محبة الله في قلوب العباد!

أما الشعور الذي يجب على المؤمن ذي الحساسيّة الدينيّة أن يشعرَ به إزاء غيره فهو: ليتني أُحدّث هؤلاء الإخوة وأوقد في قلوبهم جذوة حبّ الله، ليتني أُثير فيهم الرغبة في معيته ﷻ، ليتهم يرتقون في مدارج الدعاء إلى أن يصلوا في دعائهم إلى مرحلة من القرب يقولون فيها: "اللّٰهُمَّ عَفْوَكَ وَعَافِيَتَكَ وَرِضَاكَ وَتَوَجُّهَكَ وَنَفَحَاتِكَ وَأُنْسَكَ وَقُرْبَكَ وَمَحَبَّتَكَ وَمَعِيَّتَكَ وَحِفْظَكَ وَحِرْزَكَ وَكِلَاءَتَكَ وَنُصْرَتَكَ وَوِقَايَتَكَ وَحِمَايَتَكَ وَعِنَايَتَكَ".

وعلى ذلك فالمؤمن الذي يتمتّع بهذه الحساسية يسعى جاهدًا كي ينقل هذه الفكرة إلى شعب دولته بل إلى البشرية كلها ولا يقتصر على المحيط الذي يعيش فيه فحسب، بل يعمل على إثارة هذا الانفعال وإيقادِ هذه الجذوة في قلوب الجميع؛ لأن همَّه الوحيد هو توطيد محبة سيد السادات ﷺ في القلوب أجمع، فإذا ما ذُكر اسم روح سيد الأنام ﷺ احترقَ شوقًا وحسرةً وأسًى.. ومن جانب

(٥) "**يحيى طَاشْلِيجَالِي** (*Taşlıcalı Yahya*)": من أشهر الشعراء العثمانيين في القرن السادس عشر الميلادي لا يعرف تاريخ ولادته ولكن يقال إنه ولد في سنة (١٤٨٨م) وتوفي سنة (١٥٨٢م) لديه خمسة أعمال مشهورة وكتابات ما زالت إلى يومنا هذا... (**الناشر**)

آخر فإنه يتلوى همًّا أن يضِل هؤلاء الناس أو يزلّوا أو ينحرفوا، ويُكابدُ هذا الهمُّ ذهنَه دائمًا، فهو مشغول بهذا الأمر على الدوام، يعملُ على وضع خططٍ وحلولٍ لهذا الأمر، قائلًا في نفسه: "يا تُرى! ماذا يمكنني أن أفعل حتى أجنّب الناس مواضعَ الزلل، ماذا عليّ أن أفعل؟!".. وحاصل القول: إنه يسعى جاهدًا مجتهدًا ببالغِ الدقّة في سبيل إرشادِ المجتمع، والحيلولةِ دون زيغه وضلاله ومنعه من الانسلاخ عن دينه.

الاهتمام بإحياء الآخرين

والمؤمن الذي يمتلك هذه الحساسية لا يكتفي بأن يُرفرفَ الاسم الجليل المحمّدي على مآذن بلده فحسب، بل يتطلّع إلى أكثر من ذلك، ويضع الحديث الشريف: "**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**"[٦] هدفًا ونبراسًا له، ويرسم حياته وفقًا لهذه الغاية، ولكن عليه أيضًا ألا يُقلِّل من شأن نفسه وهو يسعى لتحقيق هذه الغاية فيقول: ماذا يمكن لرجلٍ مثلي أن يفعل؟"، بل عليه أن يسعى بعزمٍ وتصميم لتحقيق غايته انطلاقًا من روح المسؤوليّة الملقاة على عاتقه؛ مع الاعتقاد بأن الله تعالى يُجري الأمور الكبيرة على أيدي الصغار، وعليه أن يضعَ في ذهنه أن القلب المحمّل بالإيمان يستطيع أن يجد السبل التي يبثّ من خلالها إلهامات روحه إلى جميع القلوب.

أجل، يجب علينا أن نعرف أن الإنسان لو كان همُّه الأمةَ كلها لأجرى الله على يديه أعمالًا لا تطيقها إلا الأمة بِرُمّتها؛ ولَيَسّر له مثل هذه المهمة السامية كما فعل مع سيدنا إبراهيم عليه السلام ومفخرة الإنسانية محمد (عليه ألف ألف صلاة وسلام).

(٦) مسند الإمام أحمد، ٢٨/١٥٤.

وكلُّ هـذا تعبيرٌ عـن الحساسـيّة البالغة فـي الحيـاةِ الدينيّة، والتي تتعدّى حدود التديّن الشـخصي؛ وبتعبير آخر: يمكننا أن نُطلق عليها الاهتمام بإحياء الآخرين، ومن ثم يمكن القولُ: إن هناك اختلافًا بين التديـن والحساسـيّة الدينيـة، ولكـن ثمة حدودًا مشـتركة بينهما أيضًا؛ فالحدُّ النهائيّ للتديُّن، هو أن يتجنّب العبدُ المشـتبهات، ويعتبرَ نفسـه مجرِمًا حقيقيًّا بسبب ما فاته من صلاة، وأن يؤدي وظائفه ومسؤولياته بإتقـان كامـل، وأن يشـعر بالفرح والسـرور عند أداء مـا أمر الله به من باب التحديث بالنعمة، وإلى جانب ذلك يساوره القلق من أن يكون ما فعله قد شابه الرياء أو داخلته السمعة.. وهذا الحد النهائي للتدين هـو الحـد الأوّلـي أيضًا للحساسـية الدينيـة؛ لأن المؤمـن انطلاقًا من مثل هذه الحساسية يود لو أنه أعلَمَ الآخرين بما يشعر به، وأرشدهم إلى النعم التي حظي بها.

علينا أوّلًا أن نهدِم صرحَ أنانيّتنا

وأغلـب أصحـاب هـذا الأفـق مهمومـون، لا ينفـكُّ ذهنُهـم عـن التفكيـر فـي غاياتهم السـامية كلما قاموا أو قعـدوا، يُجهِدون عقولهم بالتفكيـر فـي هـذا الأمـر، ويمنعـون عقولهـم مـن الاسـتراحة حتـى -سـامحوني- عند الاستبراء، يطرحون أفكارًا جديدة، ويُسجِّلون كلَّ مـا جـال بأذهانهـم في مكانٍ ما، فإن لم يجدوا فرصة احتفظوا بها في خلايا عقولهم حتى يقيّموها فيما بعد.

إن همّ الدعوة يتملك هذه الأرواح المهمومة لدرجة أن السهوَ قد يعتري صلاتهم أحيانًا، ومن الممكن أن نعزو "سهو المقربين" إلى هذه الحالة السامية وإن لم يكن لها مصطلحٌ خاص في عِلم المصطلحات.

فعلى سبيل المثال إذا ما تأمَّلْنا في سَهْوِ فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ في الصلاة[٧] فسنجد أن ثمة كثيرًا من هذه الأفكار السامية كانت تُراود روحه صلوات الله وسلامه عليه، وهو المُهيأ للترقي إلى قِمَمِ المعالي، وكأن الصلاة تأتي -بمعنى ما- في المرتبة التالية بعد هذه الأفكار.

والحق أن سيدنا رسول الله ﷺ كان يعتبر تكريمَه بحادثة المعراج أقلّ درجة من تكليفه بالدعوة إلى الله، وأنَّ مهمّة الرسالة التي كُلِّفَ بها في الأرض أرفع وأعظم من ذلك؛ فرغم أنه وصل في المعراج إلى مكان لا يُدرَك وحدٍّ لا يُوصف إلا أنه لم يتشبَّث به، بل آثر الرجوع إلى وظيفتِه وأمّته مرّة أخرى.. وما ذكره وليُّ الله عبد القدوس الهندي الجشتي المتوفى سنة (٩٤٥هـ) حول مسألة المعراج ليؤكد هذه الحقيقة، إذ قال: "لقد وصل سيدنا رسول الله ﷺ إلى مكانٍ لم يصل إليه أحد، ورأى ما لم يره أحد، وإنسانٌ وصل إلى هذه المنازل يستحيل أن يرجع مرة أخرى، فوالله لو ذهبتُ أنا حيثُ ذهب صلوات ربي وسلامه عليه ما رجعتُ مرة أخرى".

ويقيّم وليٌّ آخر هذين السلوكين بقوله: "ها هو الفرق بين النبي والولي"؛ بمعنى أن الولي ما زال يسير في طريق "الفناء في الله، والبقاء بالله، ومع الله"، أما النبي فقد ارتقى أعلى المقامات وحازَ أرفعَ الدرجات؛ إلا أنّه مع ذلك لم يرضَ أن ينفردَ بالنعيم وحده ويدعَ الإنسانيّة تائهة في شعاب الضلال؛ ففضّل الرجوع إلى الناس مجدَّدًا؛ حتى يأخذ بأيديهم، ويصحبهم إلى هنالك.

(٧) انظر: **صحيح البخاري**، الصلاة، ٨٨، الأذان، ٦٩، السهو، ١؛ **صحيح مسلم**، مساجد، ٩٧-٩٩.

ومن الممكن أن نعزوَ سهوَ سيدنا عمر رضي الله عنه في صلاته إلى الفكرة نفسها، فذات يوم بعد أن انتهى رضي الله عنه من صلاته، نبّهه الصحابة رضي الله عنهم بأنه قد سها في الصلاة، فقال: "إني لأُجَهِّزُ جيشي وأنا في الصلاةِ"[٨].

وكما لاحظنا كانت فكرة إعلاء كلمة الله -التي هي غاية الجيش آنذاك- هي التي تُهيمن على كلّ مناحي الحياة لدى تلك القامات الشامخة، وتراود عقولهم حتى في أثناء صلاتهم، وهذا تعبيرٌ عمّا يشعر به هؤلاء من حساسيةٍ بالغة إزاء مسألةِ رفْع راية دينهم، ولا جرم أنّ إنسانًا بهذه الدرجة من الحساسية إزاء دينه لا يَقرب حرامًا، ولا يعتري صلاتَه شرخٌ أو قصور.

حاصلُ القول إنه من المتعذر على جماعةٍ تؤدّي عبادتها بشيء من بلادة المشاعر ولا يشغلها إلا إسقاط الفرض أن تُعيدَ تشييد صرح أرواحنا أو أن تُصبحَ رائدةً لبعثٍ جديد.. فلو أننا أردنا إقامةَ صرح روحٍ يبهرُ الأبصار ويشرحُ الصدور ويأسر القلوب فعلينا بدايةً أن نتناولَ مِعْوَلًا فننهالَ به على صرحِ أنانيّتنا فنهدمه تمامًا، وبعد ذلك نُقيم صرحًا تكونُ أوامرُ الدين ونواهيه هي ترابه وحجره، وطينتُه رضا الله سبحانه وتعالى؛ وذلك حتى لا ينهدم مرة أخرى.. ولذا فليس من الصواب الانسياقُ إلى فكرة "أدّ ما عليك من عبادات، ولا تنشغل بأمر أحد"، فمثلُ هذه الفكرة لا تُساهمُ في إعلاء كلمة الله.

(٨) **صحيح البخاري**، العمل في الصلاة، (في مقدمة باب (١٨) تفكّر الرّجلِ الشيءَ في الصلاة).

أصحاب الغايات السامية والقلوبُ السخية

سؤال: هل يمكن أن نقول استنادًا إلى حديث "مَا بَعَثَ اللَّهُ بَعْدَه -لوط عليه السلام- نَبِيًّا إِلَّا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِه"[٩] أن الشخصية المعنوية للخدمة بمثابة "الركن الشديد" لأبطال الهجرة في أيامنا الذين لا سند لهم سوى صدقهم وإخلاصهم؟

الجواب: سيدنا لوط عليه السلام هو ابن أخ سيدنا إبراهيم عليه السلام[١٠]؛ ابتعثه الله تعالى إلى "سدوم وعامورا" الذين كانوا يعيشون حول ما يسمى بـ"بحيرة لوط" اليوم.. انتشر بكثرة بين هؤلاء القوم ذلك الفعلُ القبيح الذي يُسمى "اللواط" والذي تُجيزه الآن -مع الأسف- بعضُ الدول، بل وتضعُ له القوانين بحجة الحفاظ على حقوق الإنسان، وقد تناولَ القرآن الكريم هذه المسألةَ بأساليب مختلفة على حسب السياق[١١].

قبل أن يُهلك الله عز وجل هؤلاء الطغاة أرسل إلى لوط عليه السلام رسلًا من ملائكته؛ جاؤوا إلى لوط عليه السلام بجلالهم وعظمتهم في صورة أشخاص ذوي وجوه لطيفة نضرة كابتلاء أخير من الله تعالى لهم، فلما رأى قوم لوط هؤلاء الملائكة همّوا بالتعدي عليهم، وبذلك

(٩) **سنن الترمذي**، تفسير القرآن، ١٣؛ **مسند الإمام أحمد**، ٥٣٩/١٤.

(١٠) **تفسير مقاتل بن سليمان**، ٧٩٣/٤؛ الطبري: **جامع البيان في تأويل القرآن**، ١٩٢/١٧، ٢٧٣/١٩، ٧١/٢١.

(١١) انظر: سورة الْحِجْرِ: ٥١/١٥-٧٧؛ سورة الشُّعَرَاءِ: ١٦٠/٢٦-١٧٥؛ سورة النَّمْلِ: ٥٣/٢٧-٥٨؛ سورة القَمَرِ: ٣٣/٥٤-٣٩.

كتبوا النهاية للكلام والنصيحة، فقد خسر هؤلاء القوم الامتحانَ كلّيةً، وعاقبهم الله ﷻ بأن أرسل عليهم حجارة من سجيل منضود، وخَسف بهم الأرض[١٢].

أجل، لمّا رأى المنحلُّون في قوم لوط رسلَ الله إلى لوط جاؤوه يُهرعون إليه بعد أن سالَ لعابهم لارتكاب هذا الفعل الشنيع، وأمام هذا المشهد قال لوط عليه السلام: ﴿**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ (سورة هُودٍ: ١١/٨٠)، وأغلب الظن أن أيَّ نبيٍّ مكان هذا النبي العظيم كان سيقول هذا القول، ولكن استطاع هذا النبي الكريم أن يضع ميزانًا دقيقًا لهذه المسألة، وهذا أمرٌ لا يستطيع أن يفعله إلا نبيٌّ، وفي هذا الصدد نُورِد حديثًا لسيدنا رسول الله ﷺ يُفهم منه أن الله تعالى قد عدّ تعبيرَ لوط عليه السلام عن عجزه وفقره تجاه المعتدين دعاءً مستجابًا، يقول ﷺ: "**مَا بَعَثَ اللهُ بَعْدَهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي ثَرْوَةٍ مِنْ قَوْمِهِ**"[١٣]؛ بمعنى أن الله تعالى لم يبعث رسولًا بعد لوط (على نبينا وعليه الصلاة والسلام) إلا في منعة من قومه وعشيرته، فإذا ما فكَّرَ أحد من قومه بالاعتداء عليه وإيذائه تصدَّت له عشيرته، ومنعَت البغاةَ المعتدين من الوصول إليه، وكفلت له الحفظَ والحماية.

سِتار الأسباب والعناية الإلهية

فمثلًا كان مفخرة الإنسانية ﷺ في الذُّؤابة من قريشٍ، إذ إنه من بني هاشم أولي القوة والمنعة في مكة، وكان جدُّه عبد المطلب ممن يُشار إليهم بالبنان فيها، وبعد أن توفّي عبد المطلب كفل النبيَّ ﷺ

(١٢) انظر: سورة هُودٍ: ١١/٧٧-٨٣.

(١٣) سنن الترمذي، تفسير القرآن، ١٣.

عمُّه أبو طالب، فقضى ﷺ طفولته وشبابه في كنفِه ورعايته.. ولذا كان مجرد الإشارة إليه بسوءٍ كافيًا لإثارة حفيظة بني هاشم أجمع، من أجل ذلك كان مشركو مكّة يخشون إيذاءه والتعرّض له بسوء، وهكذا وُضِعَت الأسبابُ الظاهرية ستارًا لتصرّف القدرة الربانية، وجعلها ﷻ حماية وحفظًا للمتأدّب بأدبِ ربّه سيدنا ومولانا محمد ﷺ.

والحادثة التي جاءت بسورة يس تدعم ما ذكرناه في هذا الموضوع: حيث بعث الله تعالى رسولين إلى أصحاب قريةٍ اتفق كثيرٌ من المفسرين على أنها "أنطاكية"[١٤]، فكذبوهما، فقال الله تعالى ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ (سورة يس: ١٤/٣٦) يشحذُ من قوتهما المعنوية، ويؤكد لهما أنهما ليسا وحدهما؛ لأن إلحاق ثالث إليهما يشير إلى أنه من الممكن أن يبعث رابعًا وخامسًا إن اقتضت الظروف.. وفي ظل هذا المددِ شعر المرسلون بأريحية أكبرَ حيالَ تأدية رسالتهم؛ حيث كان هذا المددُ بمثابة "ركنٍ شديدٍ" بالنسبة لهم.

وإذا ما استقرأنا تاريخَ الأنبياء عليهم السلام سنجد أمثلةً كثيرة تدلّ على هذا الأمر، غير أنني أكتفي بما ذكرته في هذا الصدد، وأُحيل هذه الأمثلة إلى المتخصِّصين في هذا المجال، وأنتقل بكم إلى الشقِّ الثاني من السؤال:

أجل، إن الأرواح التي نذرت نفسها في سبيل الله عشقًا للخدمة قد ارتحلت إلى جميع أرجاء العالم، تلبية لما تشعر به قلوبها من عشقٍ وحبٍّ للإنسانية، وقد يحدثُ أن يسافر بضعةُ أشخاصٍ إلى دولةٍ من الدول، أو يسافر واحدٌ بمفرده، فيتعرفون هنالك على أناس

(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان، ٥٧٥/٣؛ الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ٥٠٠/٢٠.

من ثقافات شتى، أناسٍ نشؤوا في بيئاتٍ مختلفة، ولهم قيمٌ متباينة؛ يتكلمون بلغاتٍ متباينة، ويدينون بأديانٍ مختلفة... ومن ثم فربما تتعرض هذه الأرواح المتفانية في ظلّ هذه الاختلافات إلى معاناة ومصاعبَ ومشقات شتى في هذه البيئات المختلفة، وهنا قد تكون الشخصية المعنوية للخدمة -كما جاء بالسؤال- ركنًا شديدًا؛ يعني سندًا قويًّا متينًا، وميناءً موثوقًا مأمونًا.

ففي الواقع إن هؤلاء الأصدقاء الذين سعوا للخدمة حيث ذهبوا قد وجدوا دعمًا قويًّا من إنسان الأناضول، ولا يخفى الدعمُ الذي قدمه رجال الأعمال الذين جاؤوا للاستثمار أو لإقامة المشروعات في هذه البلاد التي قصدَها الأصدقاء.. وبذلك أَسَرَ أصدقاءَنا شعورٌ بأنهم ليسوا وحدهم في هذه البلاد، وطبع هذا الأمرُ تأثيراتٍ إيجابيّة على مخاطبيهم.

وأريد هنا أن أنوّه بمسألة أخرى تتعلق بموضوعنا وهي: أننا انطلاقًا من قول سيدنا لوط عليه السلام ﴿**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**﴾ (سورة هُودٍ: ١١/٨٠) يُمكنُنا أن نتوصّل إلى النتيجة التالية وهي: أنه ينبغي لكلّ مَن يكافح ويجاهد في سبيل الله أن يأوي إلى ركنٍ شديد؛ لأنّ رفع الروح المعنوية وكسبَ ثقة الآخرين يستدعي آلةَ توليدٍ للطاقة (دينامو) ومصدرَ قوّةٍ يبعث هذه الثقة.. فلا جرم أن الدعم "الحقيقي" للمؤمن هو حول الله وقوته وقدرته ورعايته وكلاءته، لكن ينبغي ألا ننسى أننا نعيش في دائرة الأسباب، ونحن مكلفون بمراعاة هذه الأسباب، وليس بوسعنا أن نُعرض عن الأخذ بها.

وفي هذا السياق حذارِ ثمّ حذارِ من الكبرِ والغرور، خصوصًا حينما تبثّون أفكاركم ومشاعركم وإلهامات أرواحكم إلى القلوب الأخرى، ولنجتهد في العمل على قمع الميل والرغبة في إرغام الآخرين، وأن نتحاشى التصرفات والسلوكيات التي قد تبدو للآخرين على أنها جبرٌ وإكراه، وأن نعمل على تقديم أفكارنا ومشاعرنا بأسلوبٍ ليّنٍ يحظى بالقبول لدى الآخرين.. وعلينا ألا ننسى أنّ ما نقدّمه لهم من أشياء نافعة وجميلة نحصل في مقابلها أيضًا على أشياء نافعة وجميلة؛ لأن هناك الكثير من الأشياء المهمة التي تم اكتشافها وتطويرها في شتى أنحاء الكرة الأرضية التي أصبحت الآن كالقرية الصغيرة، فما نَستلهِمه من أفكار ورؤًى قد يُفضي إلى ابتكارات واكتشافات جديدة في عالمنا الفكري والشعوري، ومن ثم فعلينا أن نسعى إلى استلهام كل الجماليات التي قد تنفع الإنسانية ونحاول الاستفادة منها.

أسواق تُباع وتُشترى فيها الورود

أما مسألة إيصال جمالياتنا إلى القلوب الأخرى فتقتضي السعي إلى الاعتماد على حالنا ومنهجنا التربوي وأنديَتنا الثقافية ووسائل إعلامنا إن وُجدت، وعند تبادُل هذه الجماليات نبذل قصارى جهدنا لنجعلَ من هذا الحال سُوقًا يَعرض فيه الجميعُ كلّ ما لديه؛ وبذلك تصل القيمُ التي تبحث عن مشتريها إلى طالبيها، وليس من الصحيح قطعًا أن نجبر الآخرين على الأخذ بمجموعة القيم التي ورثناها عن الماضي أو أن نعرض قضايانا بالجبر والاستعلاء.

وينبغي أن نتذكر دائمًا أن قيَمنا وشتى جماليّاتنا قد تلقى ردَّ فعلٍ عنيف من الآخرين وإن كانوا في أمس الحاجة إليها إن اتبعنا أسلوبًا

خاطئًا في عرضها.. وحتى لا يحدث ذلك فعلينا ألا ننسى أن هناك أشياء جميلة ونافعة يمكننا أن نتحصّل عليها من الآخرين، وأن نضع في اعتبارنا قبولَ المخاطب ورضاه عند عرض الجماليات التي عندنا وكأننا في سوقٍ نتبادلُ فيه بضاعاتنا.

وفي الواقع ثمة حاجةٌ ماسّةٌ إلى مثل هذا التفاعل والتأثير المتبادل في دنيانا التي أصبحت كالكرة الصغيرة؛ لأن منعَ الشقاق والخلاف الذي قد يفضي إلى الحرب والنزاع لا يتأتى إلا بالتبادل والتفاعل الثقافي، ولا يمكن فعل ذلك إلا من خلال تشكيل مناخٍ سلميٍّ على مستوى الإنسانية، فإن لم نعمل على إقامة جسور الحوار بين الثقافات والحضارات وتهيئة مناخٍ مناسبٍ فيما بينها ساقت هذه الاختلافاتُ والتناقضاتُ الإنسانيةَ إلى نزاعاتٍ وحروبٍ لا يمكن تلافيها، ولا جرم أن مثل هذه الحرب ستكون أكثر فتكًا ودمارًا من الحربين العالميتين الأولى والثانية؛ لأنه لا غلبة لأحدٍ في حربٍ تقوم على القنبلة الذرية أو القنبلة الهيدروجينية، فمثلُ هذه الحرب تعني نهاية الإنسانية.

وحتى نحمي الإنسانية من هذا الخطر علينا أن نُقيم جسورَ سلامٍ بين مختلف المفاهيم والثقافات، وإلى جانب نقلِ بعض الأشياء للآخرين نَستلهِم منهم أيضًا بعض الأشياء، وبذلك نبرهن على أن مختلف المجتمعات والثقافات ليست غريبةً عن بعضها أو منافية لها تمامًا، وأنه لا توجد فروقٌ جذريّة تؤدي إلى النزاع والخلاف بين مختلف الثقافات والحضارات، فإن فعلنا ذلك نكون قد قدّمنا خدمةً مهمة وحياتية للإنسانية بأسرها، خاصة في ذلك العصر الذي أصبحت الحاجة فيه ماسة إلى اللين والتصالح.

مكافحة المكتسبات اللاشعورية القذرة

سؤال: كيف نتخلّص من الآثار السيّئة للمكتسبات اللاشعورية السلبية التي استقرتْ من قبل في أذهاننا وقلوبنا؟

الجواب: المكتسبات السلبية هي التي تُلوّث ذهننا وروحنا وعالمنا الشعوري أو تضلِّلُ منطقَنا ومحاكمتَنا العقلية، مما يؤدي إلى آثارٍ سلبيّة تُضرُّ بنا، إذ إن مشاعر الإنسان المعنويّة تَضمُر، وأحاسيسه ولطائفه تتكدّر.. فعلى الإنسان أن يُعطيَ إرادته حقَّها، ساعيًا إلى الانسلاخ والتخلّص من هذه المكتسبات السلبية ما أمكن.

ومثل هذه المكتسبات الضارة القبيحة قد تنشأ عن منظرٍ أو موقفٍ دون قصد أو عمد، ولكن ينبغي ألا ننسى أن هذه المكتسبات اللاشعورية السلبية بمثابة امتحان بالنسبة لنا، ومن ثم فعلينا أن نعتبرها عاملًا لاستحضار الذنب والحثّ عليه وإثارة الشعور للإقبال عليه واقترافه، ولا بدّ من اتخاذ التدابير اللازمة لِدَرءِ ذلك، فمثلًا قد تقع العين على منظرٍ غير لائق، فيسجّل مركز الذاكرة صورةَ هذا المنظر، وبمرور الوقت تنتقلُ هذه الصورة من دائرة اللاوعي إلى دائرة الوعي؛ فيسوق هذا الوضعُ الإنسانَ إلى نسجِ خيالات فاسدة، واستدعاء ذكريات قبيحة، والاندفاع إلى الأراضي اللزجة، ولذا على الإنسان -كما ذكرنا آنفًا- أن يستنفِذ كلّ إرادته أمام هذه المكتسبات

السلبية، وأن يسعى إلى بسط سلطانه عليها، وكثيرًا ما أوصانا القرآن الكريم بالبعد عن تلك الأجواء حالَما تتيقَّظُ أو تتداعى للإنسان مثلُ هـذه الذكريـات القبيحة؛ فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ٧/٢٠٠).

الفيروسات الفتّاكة والطب الوقائي

فالواقـع أن الصورة التي تشكّلت في الذهن نتيجة التعرُّض لمنظر حرام، أو تلك الكلمة النابية التي تلقتها الأذن فاستقرّت فيها وخلّفت آثـارًا لهـا في الذاكرة قد تدعوان الإنسـان فـي كلّ لحظةٍ إلى ارتكاب الذنـب؛ فعلـى الإنسـان حينذاك أن يتخلّص من هـذه التداعيات على الفـور ولا يعتـرف لهـا مطلقًا بحقّ الحياة؛ لأن هذه المكتسبات تُريد أن تُعلـن عـن وجودهـا مـع مـرور الوقت، وإن جـاز التعبير تلحّ عليه للقيام بأمورٍ معينة؛ مثل الفيروس تمامًا فكما أن الجسد إذا ما ضعُف تأخذ الجراثيم في بسط سيطرتها عليه فكذلك المكتسبات السلبية إذا ما ضعُفت معنويات الإنسـان أو ابتعد الإنسـان عن معنوياته وجدت الفيروسـات الفرصة للتوالد والتكاثر في منطقة اللاشعور؛ فتحركت علـى الفـور، وبدأت في الهجوم؛ لتأخذ الإنسـان تحت أسـارتها، من أجـل ذلـك كان بعـض رجـال المعنويات العظـام يُخطّطـون لحياتهم حتـى يسـدوا كلّ المنافـذ التـي قـد يأتـي منهـا الذنـب، ولـو فـي غفلة مؤقّتـة؛ بتعبيـرٍ آخـر: لقد اتّخذ هؤلاء تدابير مشـدّدة منـذ البداية حتى إنهم وإن اعتزموا فعل سيئةٍ في غفلةٍ مؤقّتة عجزوا عن فعلها، فمثلًا فضّلـوا "الخَلـوة" و"العُزلـة" حتـى يتجنّبـوا مواطـن الذنـب، واعتبروا الانزواء ثغرًا وسـدًّا منيعًا يحميهم من تسـلّط الذنوب عليهم، وهكذا

حفظوا أنفسَهم من الوقوع في الآثام، ولكن السبيل الأساس الذي يجب اتباعه والكمال الحقيقي بالنسبة للمؤمنين المكلفين بمعايشة الدين وتبليغه، ولا سيّما وارثي دعوى النبوة هو أن تكون مع الحقّ بين الخلق. أجل، إن معية الحقِ بين الخلق سلوكٌ نبوي؛ ووظيفة المؤمن الأساسية هي أن يجعل المكان الذي يعيش فيه يحاكي هذه القاعدة بقدر الإمكان، عليه أن يجعل بيئته طاهرة كما يرغب لقلبه أن يكون كذلك، وأن يحاول إزالة عوامل الشرور بتمامها.

الثقوب المسدودةُ ضدّ الأعداء الأخفياء

يُحكى أن سيدنا أبا بكر الصديق ﵁ لما وصل هو والنبي ﷺ غارَ ثور أثناء الهجرة دخل الغار أوَّلًا قبل رسول الله ﷺ وراح يتفقّد الثقوبَ التي في جدرانه فيسدّها بقميصه الذي مزّقه لهذا الغرض مخافة أن تخرج منها حية أو أي حيوان يصل إلى رسول الله ﷺ بأي مكروه، ثم دخل من بعده سيدنا رسول الله ﷺ واستراح مدة، ولكن قطعة القماش التي مزقها سيدنا أبو بكر ﵁ لم تكف لسدّ الثقب الأخير، فألقمه كعبه، فجاءت حيّة ولدغت قدمَه.

ومن هذا المنطلق يمكننا أن نستخرج بعض الحقائق التي أشارت إليها هذه الرواية وإن كانت لم ترد بالمصادر المعتبرة؛ أولها: صديقية سيدنا أبي بكر الصديق ﵁؛ لأن سيرته تبين لنا أنه كان مستعدًّا للإقدام على أيّ تضحية فداءً لرسول الله ﷺ، حتى وإن كان بوضعِ قدمه في فم الحية.

وثمة معنى آخر يمكننا أن نستخرجه من هذه المنقبة؛ وهي أنّ على المؤمن أن يسدّ كلّ المنافذ في المحيط الذي يعيش فيه حتى

لا تتضرّر صلتُه بالله أو حياته الدينية والمعنوية، ويشمل هذا أيضًا كلّ منافذ الخطر المحتملة، فعلى المؤمن أن يسدّ هذا المنفذ بحياته عند اللزوم، وأن يتوسّل إلى الله ويدعوه قائلًا: "اللهم إني أكاد أخسر كل حياتي الدنيوية في هذا الموطن، فاللهم إني أتوسل إليك أن تقيني وتحفظني من كل المخاطر التي من شأنها أن تضرّ بصلتي بك، وبشعوري بالعبودية بين يديك، اللهم أقم صرحَ روحي دائمًا، ولا تجعله ينحني لأحدٍ سواك".

وكما بيّنّا آنفًا فقد تكون هذه الواقعة مثارَ نقاش وجدال، ولكنها تعرض لنا مثالًا رائعًا في الصداقة والولاء، وتُلقِّننا هذا الدرس المهم في الحيطة والحذر: وهو أن المؤمنَ مطالَبٌ بأن يجعل المكان أو البيئة التي يعيش فيها مناسبةً تصطبغ بماهيَّتِه ولونِه، وأن يعملَ على جعلِها متوافقةً مع أفكارِه ومشاعرِه.

صديق السوء والحيّة الرَّقطاء

ولنرجع الآن إلى موضوعنا الأساسي فنقول إنه من الممكن أن نوجز بعض الخصائص التي تعيننا على التخلّص من الخيالات والذكريات القبيحة على الوجه التالي:

١- لقد وضع الرسولُ ﷺ علاجًا ناجعًا لِوَأْد ذلك الشعور المفسِد المسمّى بالغضب؛ حتى لا يدفعنا إلى الهلاك، فقال: "**إِنَّ الْغَضَبَ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ خُلِقَ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّمَا تُطْفَأُ النَّارُ بِالْمَاءِ، فَإِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَتَوَضَّأْ**"(١٥)، فههنا يحدثنا النبي ﷺ عن ضرورة تغيّر الحال والسلوك، وإذا ما حلّلَ الإنسانُ هذا الأمر

(١٥) سنن أبي داود، الأدب، ٤؛ مسند الإمام أحمد، ٥٠٥/٢٩.

من الناحية النفسية سيجد أن هذا الأمر الذي أوصى به الحديث الشريف هو أنجعُ الأدوية وأعظم الطرق فعاليّةً للتحكّم في الغضب.

وانطلاقًا من هذا الحديث الشريف يمكننا أن نقول: لا بدّ للإنسان أن يغيِّر من حاله وسلوكه ومكانه والوسط الذي يعيش فيه؛ حتى يستطيع التخلّص من جوّ الذنب الذي يسيطر عليه؛ وبذلك يتخلّص بداية من إلحاح الخيالات والذكريات الفاسدة التي تشغل باله، فإذا ما انتقل فيما بعد إلى أجواء وأحوال أخرى، فخامرَتْه أفكارٌ ومشاعر مختلفة استطاع أن يمحو من ذهنه وقلبه آثار كلّ هذه السلبيات.

٢- على المؤمن أن يصاحب الصالحين ويخالطهم ويعاشرهم دائمًا، وقد ذكرتُ كثيرًا من قبل أن طالب العلوم الدينية والعربيّة كان قبلَ دراسته يُعلّم هذا البيت المنظوم في الأصل بالفارسية:

صديقُ السوء أعظم شرًّا من الحية الرقطاء ذات السمومِ

إن تمكن منك؛ فاعلم بأنَّه ساقَكَ لا محالةَ إلى الجحيم

أما الصديق الصالحُ فيأخذ بيدك إلى جنات النعيم

أجل، إنّ اتخاذ الأصدقاء الصالحين أمرٌ مهمٌّ جدًّا؛ لأن الإنسان لا يمكنه أن يَثبت بمفرده دائمًا، فهو كالخيمة لا يستطيع أن يكون العمودَ المركزيَّ في خيمة وجوده والقائمَ لها في الوقت ذاته؛ فإذا ما أراد الإنسان أن يحملَ خيمة وجوده كهذا العمود المركزي فعليه أن يتَّخذ له بضعة أصدقاء كالقوائم يساعدونه على حملها؛ فلا يمكن أن تقوم قائمة لهذه البنية إلا بهذا الشكل، فحجارة القبّة مثلًا إن تراصَّت بجوار بعضها ما تعرضت للسقوط، وفي هذا الصدد يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ، وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ، وَالثَّلَاثَةُ**

رَكْبٌ"(١٦)، فعلى المؤمن أن يُحيل الجوَّ الذي يعيش فيه إلى مثل هذا الجوّ الذي أوصانا به النبي ﷺ، وحينذاك يقعُ على عاتقنا أن نكون دائمًا مع الأصدقاء الصدوقين الصالحين يقول الله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ (سورة التَّوْبةِ: ١١٩/٩)؛ فإذا ما أوشكْنا على اقتراف خطإٍ نبّهونا على الفور، واجتهدوا في تقويمنا، ومن يدري لعلّنا نخجل من هؤلاء الأحبّة؛ فنقمعُ شهواتنا ورغباتنا، وننأى بأنفسِنا عن الأفكارِ والمشاعر السيئة.

واستطرادًا للكلام فإنني أستميحكم عذرًا بإيرادِ شيءٍ خاصّ بعالمي الداخلي: كان أصدقائي الصالحون يُسْدُون إليّ النصحَ إذا ما اقترفتُ خطأً ما، وربما كنت حينذاك أخجلُ قليلًا، ويثقلُ الأمر على نفسي، ولكن عندما كنتُ أنظر إلى المسألة من حيث النتيجة الحاصلة يفيضُ قلبي بمشاعر الحمد لربي والشكر لأصدقائي.

ألم يُحذِّرْنا الأستاذ النورسي رحمه الله إلى هذا الأمر بقوله: "إن نبهني أحدٌ على وجود عقربٍ في أيِّ جزء من جسمي، عليّ أن أرضى عنه، لا أمتعض منه"(١٧).

إن المؤمن الصالح إن نبّه أخاه المؤمن قائلًا: "ما لك لا تحفظ نظرك وسمعك من الحرام؟!"؛ فلربما اهتز الأخ المؤمن، وتخبّط يمينًا ويسارًا كالسيّارة التي تسير مسرعةً على منحدر سحيق ثمّ أُمسِكَت مكابحُها فجأة، ولكن إذا ما نظر هذا الأخ المؤمن إلى المسألة من الناحية الأخروية سيتبين له أن هذا الأمر لا قيمة له؛ لأنه قد عاد

(١٦) **سنن أبي داود**، الجهاد، ٨٦؛ **سنن الترمذي**، الجهاد، ٤.

(١٧) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب السادس عشر، النقطة الثالثة، ص ٨٢.

إلى صوابه بسبب هذا التحذير، وخلّص نفسه من الوقوع في دائرة فاسدة؛ وهذا هو جزاء من يكون مع الصادقين الصالحين.

٣- على المؤمن أن يشتغل طيلة حياته بالأفكار والمشاعر الخاصة بالقيم التي يؤمن بها، وأن يفيض قلبه بها، فيدرسها ويفكر فيها، ويغذّي روحه دائمًا بما جاء في الكتاب والسنة دون أن يُفسح مجالًا لأي فراغ في حياته، وعليه أيضًا أن يتوجّه إلى ربه ﷻ، ويطلب منه الحفظ والعناية والكلاءة والوكالة، ويتضرع إليه قائلًا: "اللهم احفظني من الذنوب والمعاصي، اللهم اكْلأني بحفظك ورعايتك، وخذ بيدي فليس لي غيرك"، وسيدنا رسول الله ﷺ يرشدنا إلى هذا الأفق الذي لا بد أن نراعيه في هذا الموضوع بقوله: "**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**"(١٨).

وفي النهاية أريد أن أقول: كما أن الذين يتوجهون إلى الله ﷻ بصدقٍ وإخلاص لا يتعثرون ولا ينحرفون، فكذلك مَنْ يُحسنون اختيار أصدقائهم الصالحين لا يتعرّضون أبدًا للضياع والخسران.

(١٨) النسائي: **السنن الكبرى**، ١٤٧/٦؛ البزار: **المسند**، ٤٩/١٣.

الاستياء وعلاجه

سؤال: أصبح استياءُ الناسِ من بعضهم اليوم ودوام هذا الاستياء لفترةٍ طويلة مرضًا وبائيًّا، فما الطرق الوقائية لمعالجة هذا المرض الذي قد يؤدّي إلى مشاكل شخصية واجتماعية وأسرية كبيرة؟

الجواب: الاستياءُ هو امتعاضُ الإنسان من أخيه الإنسان، ووضع مسافةٍ بينه وبينه، واتخاذ موقفٍ منه، وقطع صلته به قلبيًّا وروحيًّا وعاطفيًّا، وعدم المبالاة به في موضعٍ هو أدعى للاهتمام به.. والاستياء قد يصاحبه غالبًا سلوكيات سلبية أخرى، فمثلًا قد لا يكتفي الشخصُ المستاء من صديقه بالامتعاض فقط، بل قد يتكلّم عنه بفظاظة وغِلظة ويكيل له السباب والشتائم، وقد يصل الأمر أحيانًا إلى أن يغتابه، ويفتري عليه؛ بل ويفرح لِزلّته وتعثره وسقوطه.. والجانب الأخطر في المسالة أن الشخص وهو يرتكب هذه السلبيات لا يعي أنه قد وقع في خطإ وذنب عظيم بسبب أنه أوكل إلى نفسه مهمّة الدفاع واعتبر الحق معها، بيد أن كلّ هذه أفعالٌ حرمها الله، وأمور مذمومة تتسبب في خسران الإنسان في الآخرة.

ووصايا رسول الله ﷺ وتحذيراته لَهُما فائدة عظيمة في هذا السياق، يقول ﷺ: "**لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**"[١٩]، وهذا يعني أنه أيًّا كان قدرُ استياءِ المؤمن وامتعاضه من أخيه فعليه ألا يزيد هذا الاستياء عن ثلاثة أيام، وفي هذا الصدد أودُّ أن أقول: إن لم يرتكز هذا الاستياء على سندٍ وأساسٍ مشروع أو كما يقولون في أصول الفقه على مناطٍ سليم؛ فلا يحلّ الاستياء حتى ضمن مدة أيام الثلاثة. أجل، للإنسان أن يستاء من أخيه لمدة ثلاثة أيام فقط إذا كانت الأسباب التي تؤدي إلى الاستياء حقيقية ومشروعة، ومثل هذا الاستياء حدّده نبي الإسلام ﷺ بثلاثة أيام؛ تهدأ فيها انفعالاتكم، وتسكن فيها مشاعركم الثائرة، وتقلّ حدة استيائكم، وفي هذه الحالة الساكنة تعيدون النظر في الأمر؛ لعل صاحبكم الذي تستاؤون منه يكون الحقُّ حليفَه، وفي النهاية تتجدَّد مشاعر الأخوّة في روحكم، وتُقرِّبون المسافة بينكم وبينه، وتُعانقونه.. وهكذا يضعُ لنا الحديثُ الشريف معاييرَ معيّنة، ويُرشدنا إلى هذا الطريق حتى ندفع عن أنفسنا الاستياءَ والامتعاض.

الاستياء الحقيقي والمجازي

ورغم أننا لم نصادف مثل هذا التعبير الذي يصنِّف الاستياء إلى "حقيقيّ" و"مجازيّ" فبالإمكان تقسيم الاستياء حسب نية الشخص ومقصده إلى هذين النوعين، ولكن وإن كان الاستياء بالمعنى الحقيقي أمرًا مذمومًا فهو بالمعنى المجازي عمليةٌ أو وسيلةٌ إستراتيجية يُلجأ إليها أحيانًا، فعلى سبيل المثال قد يتخذ الأبُ من ابنه موقفًا مؤقتًا

(١٩) صحيح البخاري، الأدب، ٥٧، ٦٢؛ صحيح مسلم، البر، ٢٣، ٢٥.

يقول فيه: "ولدي العزيز، لم أكن أتوقّع منك هذا!؟"، فهذا يُعدّ من قبيل الاستياء المجازي، ويمكنكم أن تنظروا النظرة نفسها إلى حادثة الإيلاء التي وقعت في عصر السعادة، وهنا أستميحكم عذرًا أن أكرّر واحدةً من ذكرياتي التي طالما رويتُها أمامكم.. فقد حدث ذات مرة أن أمسكَ معلِّمتي في المدرسة الابتدائية بأذني لواقعةٍ ما، وعنّفتني قائلة: "حتى أنتَ!؟".. أعتقد أنها لو ضربتني بالعصا ثلاثين مرة ما تأثَّرْتُ بهذا القدر؛ لأن في مقولتها تذكيرًا بالتقديرِ الذي كانت تحمله لي والعلاقةِ التي بيني وبينها، وتنبيهًا بأنني قد قطعتُ أو سأقطع هذه العلاقة.. ربما كان موقف المعلّمة معي مجرد سلوك، لكن هذا السلوك قد أرشدني إلى خطئي، وحملني على الرجوع عنه، وهذا ما أقصدُه من الاستياء المجازي، بمعنى أن الموقف المتّزن الذي يتّخذه الإنسان تجاه شخصٍ لتحذيره وتنبيهه قد يُستخدم منهجًا للوصول إلى هدفٍ إيجابي.

حقّ الوالدين، والاستياء المجازي

غير أن هذا الاستياء يُستثنى منه الوالدان؛ لأن الحق تعالى قال في حقهما: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**﴾ (سورة الإِسْرَاءِ: ٢٣/١٧)، إنني كلّما تلوتُ هذه الآية الكريمة في الصلاة أشعرُ وكأن خنجرًا ينغرزُ في داخلي، فمَنْ يدري أيّ سلوكٍ فظٍّ سمِجٍ بدَرَ مني وآذى مَن لهم حقٌّ عليّ مثل أبي وأمي وجدي وجدتي وأختي الكبيرة وعمتي.. وكلّما أعدتُ النظر في الأمر وأعملتُ فكري في الآية يُراودني ذات الشعور المؤلم وكأن حربةً تنتهي في صدري، ولذا فإنني كلما تذكرتُ والِدَيّ أقول: "رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ".

ومن ثم فعلينا ألا نستخدم الاستياء المجازي مع والدينا وكبارنا. أجل، على الإنسان ألا يستاء منهما ألبتة؛ حتى وإن صدرت منهما أمورٌ تُسبِّب الاستياء قطعًا، وألا يؤذيهما وإن آذوه، بل على العكس عليه أن يُدخل السرور عليهما ما استطاع، وإلا سيأتي يوم يعي فيه الإنسان أنه قد أخطأ في حقّهما، ولكن حينذاك يكون الأمر قد خرج من يده وفاته القطار؛ لأن الإنسان في ذلك اليوم لا يستطيع أن يتدارك أخطاءه، من أجل ذلك عليه أن يُنظِّم حياته؛ حتى لا ينحرف ويقول في النهاية: "ليتني لم أفعل كذا وكذا.. لو أنني فعلت كذا وكذا!"؛ لأن "لو" تفتح عمل الشيطان كما قال سيدنا رسول الله ﷺ[٢٠]، كما أن "لو" تعني -من وجهٍ- الاعتراضَ على قدر الله، ولذا يجب على الإنسان أن يتَّخذ له رفيقًا، ينبهه ويوجهه عند الضرورة إلى الأخطاءِ التي قد تدفعه فيما بعد أن يقول "لو"، فقديمًا كان السلاطين العظام يتّخذون لهم بعض الأشخاص، وكان هؤلاء لا يعرفون لهم حدًّا في الكلام؛ فكانوا يتكلّمون بأريحيةٍ وبلا استحياء، لكن لم يكن السلاطين يتضجّرون من تنبيهاتهم وتحذيراتهم لأنهم قد أعطوا لهؤلاء الرخصةَ من قبلُ في الكلام، بل على العكس كانوا يستمعون لهم ويمتثلون لتحذيراتهم، وهكذا ينبغي للإنسان أن يتخذ له أناسًا ينبهونه على الدوام، ويرشدونه إلى الطريق الصحيح، ويقومون بمقام البوصلة؛ وبذلك لا يحيد عن الجادة، ولا يقع في الأخطاء، لأن هذه الأخطاء وإن تبعها عذاب الضمير إلا أن هذا الشعور لا يمكنه أن يجبُرَ ما تمَّ كسره ولا أن يُصلِح ما يجب إصلاحه.

(٢٠) صحيح مسلم، القدر، ٣٤؛ سنن ابن ماجه، المقدمة، ١٠.

ولنرجع إلى موضوعنا الأصلي ونقول: من المقبول أن يكون هناك شيء من التدلّل اللطيف الذي قد يوجّهنا أو يوجّه غيرنا إلى طريق الخير، ويمكن أن نضعَ هذا الأمر ضمن قائمة الاستياء المجازي، بل يمكن أن نشبِّهه بصفعةِ الشفقة، فالوالدان مثلًا حينما يَقرُصان أذنَ ولدهِما برقَّةٍ أو يربِّتان على ظهره حتى يرجع عن الخطإ إنما يعبّران عن سخطهما من سلوكه وفعله وسيره، ومن جانب آخر يحاولان أن يُقدّما تحذيرهما وتنبيههما في غلافٍ من الشفقة، ولكن ينبغي أن نعلم أن هذه سلوكيات وأساليب تحتاج إلى كثير من الممارسة والتدريب، فلِلأسف الشديد قد نرى كثيرًا من الأخطاء والخلافات بين الزوجين لأنهما لم يخضعا لتدريبٍ جدِّيّ وكاف قبل زواجهما. أجل، إنهما لا يعرفان حقوق الزوجية وحقوق الأولاد، وحقوق الوالدين وغير ذلك، ونظرًا لأنهما لا يعرفان فقد وقعا في مثل هذه الأخطاء الفادحة، من أجل ذلك فإنني أرى ضرورة أن يخضع المُقبلان على الزواج لتدريبٍ حقيقيٍّ على مسألة الزواج، وبعد أن يحصلا على شهادة اجتيازهما هذه الدورة التدريبيّة يُؤذَن لهما بالزواج.

العمل الذي يُكسب ثواب العبادة

لنقف قليلًا عند الاستياء الحقيقي: فأحيانًا يقوم مَن حولنا بتصرُّفات تدعو بالفعل إلى الاستياء والامتعاض، ولكن ما يقتضيه الإيمان بالله واليوم الآخر هنا هو أن نسعى جاهدين للإعراضِ عن الاستياء والتخلص منه، حتى وإن كان هذا الأمر مخالفًا لمشاعرِنا، وعلينا ألا ننسى أن عدم استياء الإنسان في موطن هو أدعى للاستياء

يُكسبُ الإنسانَ ثوابَ العبادة؛ لأن هذا الشخص يتصارع مع نفسه، ويتمرّد على فوران صدره وغليانه، وفي النهاية يعطي إرادته حقّها، وقد ذكر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ثلاثة أنواع للصبر؛ منها الصبر على البلايا والمصائب، ويمكن القول هنا في طمأنينةٍ تامّة أن الصبر في مثل هذه المسألة يُكسِب الإنسانَ ثوابَ العبادة؛ لأن التغلُّب على الاستياء يندرج ضمن قائمة الصبر التي ذكرها الأستاذ النورسي.

أجل، علينا أن نعتبر كلَّ استياءٍ مصيبة من المصائب، لا بدّ من الصبر عليها وتحملها، فلا نستاء من الآخرين وإن أساؤوا إلينا، ولا نتأذّى وإن آذونا؛ لأننا إن لم نعاملْهم بالمثل وتصرَّفْنا معهم بمرونة ولينٍ ووجدنا طريقة فاحتضنَّاهم حتى وإن آذونا أو جرحوا مشاعرنا فلا شكّ أننا بذلك نكون قد قدّمنا تضحيةً عظيمة وأسدينا خيرًا كبيرًا للدين وللإنسانية.

أثرُ الاستياء في الحياة الاجتماعية

أمّا عن أثر الاستياء في الحياة الاجتماعية فنقول: قد يقع استياءٌ وامتعاضٌ وخلافات جمّة بين ذوي الآراء المتعددة، ولا سيما في الحياة السياسية، وأكثر ما يُشعل فتيلَ هذه المشاعر السلبية هو حبُّ المقام والمنصب والجاه والسلطان، حتى إنه قد يحدث أن يتفوّه الشخصُ بكلامٍ لا يليق، أو يُدلي بتصريحات تخالف الواقع؛ بغية أن يُضني ويسحق معارِضه؛ فيؤدِّي هذا إلى امتعاضٍ واستياءٍ كبيرين، بيد أن الإنسان إن لم يتحرّك من منطلق حب المقام والمنصب فسيلحظ أن هناك ساحة أو مجرى للسباق يمكن للجميع أن يتسابق فيه ويؤدّي مهمته في سبيل خدمة الأمة والإنسانية.

أجل، إننا جميعًا أبناء الأمة الواحدة يمكننا أن نسعى في سبيل مصلحة ومنفعة هذه الأمة وأن نسلك اتجاهًا واحدًا ونتكاتف ونتضامن، ونصل إلى نفس الهدف وإن اختلف مجرى السباق الذي نتنافس فيه، ولكن لا يصلح في هذا السباق أن يتمنى المرءُ لنفسه الوصول إلى الهدف دون غيره أو يُكنّ حقدًا وضغينةً لأحد، بل ولا ينبغي لهذا أن يكون، فما نسمّيه "تنافسًا" يجب أن يستند إلى فكرة: "عليّ ألا أتخلَّف عن هذه الجماليّات، أو على الأقل يجب عليّ أن أقوم بشيء نافع مثل هؤلاء الناس الذين يسعون إلى خدمة الناس"، وعلى ذلك يصبح الطريق رحبًا، فلا يحدث خلافٌ أو استياء أو امتعاض.

وهذا الأمرُ يسري أيضًا على عمليّة القيام أو نيّة القيام بتبليغ جماليات الإيمان والقرآن إلى القلوب؛ لأن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ (سورة العَنْكَبوتِ: ٦٩/٢٩)، بمعنى أن هؤلاء لو أزالوا العوائق بيني وبين قلوب الناس، وجاهدوا لإيصال القلوب بحقائق الإيمان، فإنني سأَصِلهم بي؛ ليس من طريق واحد، بل من طرقٍ متعددة، وكما قيل: "**الطُّرُقُ إِلَى اللهِ بِعَدَدِ أَنْفَاسِ الْخَلَائِقِ**"، وبما أن الطرق إلى الله متعددة فبإمكان الإنسان إن لم يستطع أن يذهب في هذا الطريق أن يسلك طريقًا آخر.

ولننظر إلى المسألة من الناحية الصوفية فنقول: إن سبيل النقشبندية والقادرية والشاذلية والرفاعية والخالدية؛ كلها سُبلٌ توصِلُ إلى الله ﷻ، ومن ثَمّ فلا داعي لأن تكون هذه الاختلافات مثارًا للنزاع أو الغيرة والحسد، بل يجب ألا نعطي قيمة لبعض الأفكار الهدامة، مثل: "إن هؤلاء طرقوا ساحتنا، وأخلوا بها".

أجل، إننا كقلوب مؤمنة علينا أن نتعامل مع إخواننا بأكبر قدرٍ من السهولة والليونة، وكذلك الأمرُ عندما نطرح عليهم أفكارَنا ومشاعرَنا؛ بحيث تنزل إلى أعماقهم كاللقمة المستساغة وتدخل في قلوبهم دون استئذان.

"يَدُ اللّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ"

ومع أن الاستياء فعلٌ مذمومٌ وشنيعٌ فقد يقع أحيانًا شيءٌ منه بين الأرواح التي نذرت نفسها لخدمة العلم والإنسانية، ومن ثم فإنني أرى من المفيد أن نشكِّل فريقًا يُناط به إزالة كل أسباب الامتعاض والاستياء بين أفراد المجتمع، وفي شتى نواحي الحياة الاجتماعية؛ لأن الوفاق والاتفاق كما يقول الأستاذ النُّورْسي رحمه الله هما أهم وسيلة لإحراز التوفيق الإلهي[٢١]، ويؤيد هذه الفكرةَ قولُ ربنا سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿**يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ (سورة الفَتْح: ٤٨/١٠)؛ بمعنى أن حفظ **الله** وعنايته ورعايته وكلاءته ولطفه وإحسانه تحيط بهم وتغشاهم من فوقهم، ويقول سيدنا رسول **الله** صلى الله عليه وسلم قولًا يوافق هذه الآية الكريمة: "**يَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ**"[٢٢]، وفي حديث آخر يقول روح سيد الأنام صلوات ربي وسلامه عليه: "**مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ فَلْيَلْزَم الجَمَاعَةَ**"[٢٣]؛ وذلك حتى لا يقع في الفرقة والاختلاف؛ لأن مَن انعزل عن المجتمع والجماعة ابتعد في الوقت ذاته عن عناية **الله** سبحانه وتعالى. أجل، إن هذا يعني أن مَنْ اعتزل جماعةَ الناسِ بسبب الاستياء والامتعاض والحسد والغيرة أو لأشياء لا يرتضيها ابتعد في الوقت ذاته عن عناية ربّه جل وعلا.

(٢١) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة العشرون، النقطة الأولى، ص ٢٠٧.

(٢٢) **سنن الترمذي**: الفتن، ٧.

(٢٣) المصدر السابق.

"لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا"

فإذا ما دقّقنا في كلِّ هذا تبين لنا عظم مصيبة الاستياء والامتعاض وحسن ثواب الإصلاح بين الناس والتوفيق بينهم.. فالأساس في ديننا عدم احتقار أي معروف وإن كان شيئًا بسيطًا؛ لأن الله تعالى قد يُنعم على عباده لما يقومون به من أعمال صالحة صغيرة، بأن يُسكِنهم بحبوحةَ الجنة فيتمتعون في رُبَى رؤية جمال الله بما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**اتَّقِ الله وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا**"[٢٤]، فإذا ما نظرنا إلى الأحداث بهذه النظرة سنرى أنه ما من شيء بسيط في الواقع، ألم يعدّ النبي ﷺ تبسُّمَ الأخ في وجه أخيه صدقةً[٢٥]، والكلمةَ الطيبةَ صدقةً[٢٦]، واللقمةَ يضعها الرجل في فم امراته صدقةً[٢٧]، وإزالةَ الأذى عن الطريق صدقةً[٢٨]؟ بمعنى أن الإنسان لو وجد حفرة في الطريق فردمها بالتراب حتى لا تسقط فيها إطارات العربات السائرة أو أزال شوكة من الطريق حتى لا تنغرز في قدم أحد فسيحصل على ثواب العبادة.. فلا قبل للإنسان أن يعرف أيًّا من هذه الأعمال البسيطة سيُسكِنه بُحبوحة الجنة.

وهنا أريد أن أروي لكم منقبةً ذات صلة بهذا الموضوع: كانت السيدة "زُبيدة" زوج هارون الرشيد امرأةً عظيمة، قدّمت للمسلمين كمًّا هائلًا من الخدمات العظيمة؛ من ذلك أنها لما سمعت أن الحجاج

(٢٤) **مسند الإمام أحمد**، ٦٣؛ الطيالسي: **المسند**، ١٦٧.

(٢٥) انظر: **صحيح مسلم**، البر، ١٤٤؛ **سنن الترمذي**، البر، ٤٥.

(٢٦) انظر: **صحيح البخاري**، الجهاد، ١٢٨؛ الأدب، ٣٤؛ **صحيح مسلم**، الزكاة، ٥٦.

(٢٧) انظر: **صحيح البخاري**، الإيمان، ٤١، الوصايا، ٢، مناقب الأنصار، ٤٧؛ **صحيح مسلم**، الوصية، ٥.

(٢٨) انظر: **صحيح البخاري**، الجهاد، ١٢٨؛ الأدب، ٣٤؛ **صحيح مسلم**، الزكاة، ٥٦.

عند توجههم إلى عرفة والمزدلفة يحملون الماء على ظهورهم من مكة؛ بسبب ندرة آبار الماء في الطريق الواصل بين هذه الأماكن أمرت بإنشاء سبلٍ وعيونٍ وسواقٍ للماء تمتد من مكة حتى منى وعرفات والمزدلفة[٢٩]؛ وتسببتْ بذلك في خيرٍ عظيم؛ حيث إنها هيأت الفرصة للملايين من الناس حتى يشربوا ويتوضؤوا ويملؤوا أسقيتهم، ولا جرم أن الله تعالى لم يضيّع عملها سدًى.. ولقد رأيتُ هذه العيون والسواقي التي أقامتها هذه السيدة الجليلة عندما سافرت لأداء فريضة الحج في عام (١٩٦٨م)، وكان العثمانيون قد دعموا طريق المياه هذا، وجعلوه تحت حمايتهم مدة مديدة.

يُروى أَن زُبيدة رَآهَا رجل فِي الْمَنَام وَهِي جالسة على كرْسِي جليل الْوَصْف، فقال لَهَا: بِمَ نلْت هَذِه الْمنزلَة؟ قَالَت: "كنت يَوْمًا أَنا وجواري وصويحبات عِنْدِي فِي انْشِرَاح وطرب فَسمِعتُ الْمُؤَذّن حِين بَدَأَ بِالتَّكْبِيرِ فأسكتهن هَيْبَة وتعظيمًا لله تَعَالَى إِلَى أَن فرغ فَأَعْطَانِي الله تَعَالَى مَا ترَاهُ"[٣٠].

أجل، إننا لا نعلم من بين الأعمال التي تبدو بسيطة بالنسبة لنا ما هو ذو قدرٍ عظيم عند الله تعالى، كما لا نعرف أيَّ الأعمال التي يرتضيها منا سبحانه وتعالى، فتجعلنا نحظى برضوانه، ونسعد بدخول جنته.. ومن ثمَّ فعلينا أن نعمل على أداء الواجباتِ تجاه ربنا طاعةً له دون اعتبار لعظمة الأمرِ أو بساطته.

---

(٢٩) ابن الجوزي: **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠/٢٧٧.

(٣٠) خليل بن شاهين: **الإشارات في علم العبارات**، ص ٨٧١.

هيئات الصلح

ولقد نوّهتُ بكلِّ هذا حتى ألفتَ انتباهَكم إلى أهمّية إصلاح ذات البين، لكنني أكرر مرة أخرى أن عِظَمَ وأهمّية هذه المسألة يُحتّم علينا ألا نُضيِّق إطارها، وأن نشكل فريقًا يُعوّل عليه بالقيام بهذا الأمر، يتكون هذا الفريق من شخصيات تتمتع بخبرات في هذا المجال، لها دراية بنفسية الإنسان بما يساعدها على حسن استقراء ماهية مخاطبيها، تتميز بقوة المنطق، وسلامة الحُجة، وفصاحة البيان؛ حتى يمكنها مساعدة هؤلاء الذين وقعوا في براثن الاستياء والامتعاض.. فمهما سيطر الجهل على المجتمع وظهر الخواء فيه من حيث الدين والتديّن فإن إنساننا مرتبطٌ بربه ﷻ ونبيه ﷺ ويحترم دينه؛ ولذا فبالإمكان تلافي هذا الاستياء الواقع وتدارك الأخطاء والتوفيق بين المتخاصمين من خلال استغلال المقومات والمبادئ العالمية التي أرساها ديننا وخاطب بها الجميع.

كما يمكننا أن نوسِّعَ من دائرة هذه المهمة التي نسميها الوساطة بين المتخاصمين لتتعدى مستوى المحلية؛ بمعنى أن بمقدورنا تفعيل هذا الأمر على مستوى أوسع؛ وكما يمكن تفعيلها في الحي والقرية والمدينة كذلك يمكن أداؤها على مستوى الدولة، بل لنا أن نذهب بالمسألة إلى أبعد من ذلك، ونستغلّها في ترميم العلاقات بين الدول، وهاكم الثواب والأجر الذي وعد به النبي ﷺ كلّ مَن يسهم في هذا الأمر، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟**" قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ الله قَالَ: "**إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ**"[٣١].

(٣١) سنن أبي داود، الأدب، ٦١؛ سنن الترمذي، صفة القيامة، ٥٦.

وقد تندرج الأنشطة الحوارية في أيامنا على مستوى العالم ضمن هذه القائمة. أجل، إن الحوار والانفتاح على كل أرجاء العالم، والإصلاح بين الشعوب، وإعداد إستراتيجية دائمة في هذا الموضوع، وتطوير الأساليب التكتيكية لها بالغ الأهمية في إزالة الخلافات والحروب والاضطرابات الحاصلة، أما الطريق الأمثل في مكافحة الخلاف والفرقة في عصرنا فهو الأنشطة التعليمية؛ بمعنى أن عليكم إنشاء أفرادٍ كاملين من حيث القيم العالمية والفضائل الإنسانية مثل السلم والسماحة والحوار، ليتخصّص هؤلاء في فروع العلم المختلفة، ولكن لا بد أن يكونوا متشبعين أيضًا بالقيم والفضائل الإنسانية، ومفعَمين بمثالية الإحياء، ولْيُجرِ هؤلاء دراساتِ الدكتوراه وما بعدها حتى ينفعوا الإنسانية حيث كانوا، وحينذاك سيُشار إليهم بالبنان، ويصبحون عناصر فاعلة كابحة لزمام الفتن والاضطرابات؛ وبذلك يؤدون مهمة عظيمة في هذا الموضوع؛ وهذا ما نعنيه بالإصلاح على المستوى العالمي، ومن ثم يجب أن تنتقل هذه المسألة من إطارها المحلي المصغر إلى المستوى العالمي الأكبر.

ويمكن لكبار رجال الدولة أن يتحرّكوا من منطلق الاتفاق بين الحضارات؛ فيجتمعوا ويتفقوا معًا على أمورٍ معينة؛ حتى لا تتسبب الخلافات في وقوع أي نزاعٍ أو خلاف.. ولا جرم أن مثل هذا الأمر مهمٌّ جدًّا بالنسبة للإنسانية، بل إنه عمليةٌ لا بدّ من إكبارها والتصفيق لها.. ولكن إن لم تتشبّع الأوعيةُ الدموية للمجتمعات بهذا الأمر؛ بمعنى إن لم تتقبل قاعدةُ المجتمع هذا الأمر، ولم تستوعبْه، أو تجعله جزءًا من فطرتها فستذهب كلُّ المساعي والجهود أدراجَ الرياح، ولذا ينبغي البحث عن سبلٍ حتى يستوعب الشعبُ هذه

المسألة، وإن شئتم فاجعلوا من عملية استيعاب الناس لهذه المسألة عونًا لرجال الدولة على أداء مهمتهم، إذ إن هذا الأمر مَنوطٌ بذاك.

إبان الحرب الباردة حدث نزاعٌ وانقسامٌ بين المعسكر الشيوعي والمعسكر الرأسمالي، فدخل بعض من الدول الصغيرة في أحد الحلفين، بينما انضم الآخرون إلى الحلف الآخر، وبسبب هذا التفسُّخ والتحزّب عاشت كلٌّ من هذه الدول مشاكلَ وأزمات كبيرة.. ولكن ما يخطر ببال الإنسان الآن هو: أما كان هناك مُفكِّرون ومثقفون يسعون لحلِّ هذه المسألة دون خلافٍ أو نزاع؟ أما كانت لديهم رغبةٌ في الإصلاح؟ يُخيل إليّ أنه لم يكن! بل أخذ هؤلاء يحرضون دولهم ضد الدول الأخرى حتى يلتهموها ويستأصلوا شأفتها؛ حتى تحول الأمر إلى سباق مسلّح، واستولى كلُّ حلفٍ على منطقةٍ بالعالم واستوطنها.. ولذا فإنني أقول إن معالجة هذه المسألة على المستوى العالمي والبحث عن أساليب للإصلاح بين الشعوب في هذا العهد الذي تيسرت فيه وسائل المواصلات والاتصالات وازدادت فيه الأسلحة الفتاكة يُعدّ من الطاعات التي تصل إلى مستوى العبادات.

الارتحال إلى الآخرة بقلبٍ سليم

إن إقامة وساطة للصلح بين المتخاصمين يعني في الوقت ذاته التخلّق بأخلاق الله؛ لأنه قد ورد في بعض الأحاديث الشريفة أن هذه العملية التي نسميها الوساطة للتوفيق بين عباد الله المتخاصمين إنما هي -إن جاز التعبير- إجراءٌ من الإجراءات الإلهية.. فمثلًا لنفترض أن إنسانًا أكل حقَّ أخيه في الدنيا، ثم انتقل إلى الآخرة حاملًا هذا الذنب على عاتقه، ولكن لأن هذا العبد الآكل لِحَقِّ أخيه له قدرٌ عند

ربه يقول الله تعالى لصاحب الحق: "**ارْفَعْ بَصَرَكَ فَانْظُرْ فِي الْجِنَانِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: يَا رَبِّ أَرَى مَدَائِنَ مِنْ ذَهَبٍ وَقُصُورًا مِنْ ذَهَب مُكَلَّلَة بِاللُّؤْلُؤِ لِأَيِّ نَبِيٍّ هَذَا أَوْ لِأَيِّ صِدِّيقٍ هَذَا أَوْ لِأَيِّ شَهِيدٍ هَذَا؟**".

قَالَ: هَذَا لِمَنْ أَعْطَى الثَّمَنَ.

قَالَ: يَا رَبِّ وَمَنْ يَمْلِكُ ذَلِكَ؟

قَالَ: أَنْتَ تَمْلِكُهُ.

قَالَ: بِمَاذَا؟

قَالَ: بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ.

قَالَ: يَا رَبِّ فَإِنِّي قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ.

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: فَخُذ بِيَدِ أَخِيكَ فَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ"[٣٢].

وهكذا نعلم أن تطبيق هذا الأسلوب على الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية هو تخلّقٌ بأخلاقِ الله ﷻ، فمعاملة الله للناس في الآخرة على هذه الشاكلة بمثابة مرجع قوي بالنسبة لنا، وإنني أرى أنه من الواجب علينا استثمارُ هذا الخلق الإلهي في طريقِ السعيِ الدائم للإصلاح بين الناس.

ولا أتذكر أنني استأتُ لنفسي من أحدٍ يومًا ما؛ ومنذ أربعين أو خمسين عامًا وبعض كُتاب أعمدة الصحف يكتبون ضدي المقالات، فإن ضحكتُ ينتقدون وإن بكيتُ ينتقدون كذلك، حتى وإن كنت في منزلة بين الحالتين لوجدوا وسيلةً قطعًا وكتبوا ضدي أيضًا.. لكنني

(٣٢) الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ٦٢٠/٤.

لم أكن أستاء منهم ولن أستاء، بل على العكس إنني أُشفق على حالهم؛ لأن هذا يعني أن هؤلاء يعانون في العثور على موضوع آخر يكتبون فيه.. ورغم ذلك ما دعوت على أحد منهم قط بدخول جهنم لأن هذا ليس في فطرتي وطبيعتي، بل إنني تعرضت للظلم والغَبن يومًا على يد أحدِ المقرّبين لي، وخطر ببالي في لحظات لو أن الله عاقبه بعذابه الأليم في الآخرة على صنيعه معي؛ لأن هذا الشخص كان عزيزًا عليَّ، ولذا أثّر صنيعه فيّ أيما تأثير، ولكن رغم هذا دخلتُ غرفتي، وقلت لنفسي: "بأي حقّ تقول هذا وتدعو عليه؟".. ويعلم الله أنني أجهشت بالبكاء في ذلك اليوم وذرفت دموعي، لأن الدعاء على أحدٍ بدخول النار ليس بالأمر اليسير..

ثم هل يستدعي الظلمُ الذي لحقك من قبل أخيك أن تحكمَ عليه بدخول جهنم؟ وحتى إن دعا هو عليك بهذا فليس لك أن تعامله بالمثل وتفعل الشيء نفسه، ولذا ففي رأيي أنه لا معنى ولا فائدة من الامتعاض والاستياء وإضمار الشر لأحدٍ، لأنه من الواجب علينا أن نأتي ربَّنا بقلبٍ سليمٍ[٣٣] لا يحمل ضغينةً ولا غِلًّا لأحد[٣٤].. علينا أن نأتي ربنا سبحانه بقلب سليم؛ استجابةً لدعوته لنا؛ كما يُهرع الحبيب إلى حبيبه، وما أعذب ما قال الشاعر الصوفي فضولي البغدادي:

لو طلب الحبيب روحي فهذا شرف لي

فما هذه الروح حتى أضن بالتضحية بها لحبيبي!؟

(٣٣) ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٢٦/٨٨-٨٩).

(٣٤) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (سورة الْحَشْرِ: ٥٩/١٠).

فعلينـا أن نَـرِدَ علـى ربّنـا ﷻ يـوم القيامـة أصفيـاء أطهـارًا؛ ملبّين دعوتَه القائلة: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ (سورة الفَجْرِ: ٢٨/٨٩).

اللهـم أنعـم علينا جميعًا بهذا الأفق وذلـك الفهم ونحن راحلون إلى الآخرة! آمين!

الغلول كبيرة من الكبائر

سؤال: يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٦١)، **فما معنى هذا الغلول الذي يُعدّ من الكبائر[٣٥]، والذي تحدثت الآية الكريمة عن شناعته وفظاعته، وما حدوده؟ وما الرسائل التي يجب على إنسان اليوم أن يستنبطها من خلال هذه الآية؟**

الجواب: الغلول بالمعنى العام هو أن يتعدّى الإنسانُ على شيء ليس من حقّه، وينتفع به، فيخون الأمانة.. وبالمعنى الخاص هو أخذُ شيء من الغنيمة قبل القسمة، واختلاسُ المال العام، وإساءةُ استخدام مال الدولة.

بطلُ العفّة الذي لا مثيلَ له

يقول القرآن في صدر هذه الآية: "وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ"، فقد استخدم القرآن ههنا تعبيرًا عامًّا يشمل جميع الأنبياء، وترجيح هذا الأسلوب يُشير إلى مسألتين مهمتين:

المسألة الأولى: أنه ما من أحدٍ قد غلّ من الأنبياء، ناهيك عن النبي ﷺ. أجل، لم يغلّ آدم ولا نوح ولا هود ولا صالح ولا موسى، ولا أحد من الأنبياء عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام، وما تعدّوا

(٣٥) انظر: **صحيح البخاري**، الجهاد، ١٨٩، الخمس، ٨؛ **صحيح مسلم**، الإيمان، ١٨٢، الجهاد، ٣٢.

على شيء هو حق للأمة، ولم تكن أيديهم تمتدّ إلى شيء إلا بعد أن يتأكّدوا من حقهم فيه تأكُّدًا لا يتسلّل إليه الشكّ أبدًا.

المسألة الثانية: وبما أنه لم يغلّ أحدٌ من الأنبياء، فبالأحرى ما كان لنبينا ﷺ وهو أعظم ثمرةٍ منيرة في كلّ هذه الشجرةِ المباركة أن يغلّ؛ وإذا كانت حلقة النبوة مثل حبات السُّبحة، ومفخرة الإنسانية ﷺ هو شُرَّابتُها، فلا يُسبَّح إلا به، ولا تكتمل السُّبحة إلا به، لأن الخلقَ قد بدأَ به، وبلغ الكمالَ به، وما من شيء إلا بدأَ وانتهى به، به شُرِحت الأشياء والأحداث، وبفضله قُرِئت قراءة سليمة، فلمّا استُخدمت هذه الأشياء والأحداث في سبيل الوصول إلى المعرفة الإلهية استُنبطت المعاني الصحيحة منها؛ وعلى ذلك فإن مفخرة الإنسانية ﷺ هو سيّدُ العفة ورائدها وقائدها ومرشدها.

وقد تعددت الروايات في سبب نزول هذه الآية الكريمة؛ منها أنها نزلت في غزوة أحد؛ حيث ساور الوهمُ بعضَ الشباب الغرّ -وربما يكون معظمهم من المنافقين- أن النبي ﷺ لن يعطيهم شيئًا من الغنائم وأنّه سيصرفها حيث يشاء.. وهكذا تُعبّر هذه الآية الكريمة بأسلوب بليغ عن الغلول بأنه ليس من خُلق هذه القامة الشامخة التي عاشت حياتها بدقّة بالغة وحيطة كبيرة.. وفي الواقع إن هذه الواقعة كافية للدلالة على عفّته ﷺ التي تَحَار لها الألباب.

أجل، ألم يرهن سيدنا رسول الله ﷺ درعه المبارك لليهودي حتى ينفق على أزواجه..(٣٦) فكما أنه كان يتحرّى الدقة في عالمه الداخلي كان ﷺ كذلك يتحرّز أن تحوم حوله أدنى شبهة في عالمه الخارجي.

(٣٦) انظر: صحيح البخاري، الجهاد، ٨٩؛ سنن الترمذي، البيوع، ٧؛ سنن ابن ماجه، الرهون، ١.

تغليفُ النفقات غير المشروعة بغلاف مشروع

ويتبع هذا قولُ ربّنا ﷻ في الآية نفسها: "وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".. فالغلولُ في الأصل هو أخذ شيء خفيةً من مال الغنيمة قبل القسمة، ويندرج تحته أيضًا كلّ شيء يتعدّى عليه الإنسانُ دون وجه حقّ؛ كأن يسعى -إذا ما تولى إدارة ما- أن يحصّل مالًا لنفسه عن طريق المضاربات، أو يخصّص لنفسه جزءًا من المخصصات السرية، ولا يكتفي بذلك بل يحاول أن يتخذ مبررًا لارتكابه هذه الأفعال الشنيعة، ويقول: "إنني أسعى وأكدح هنا، ولولايَ لما كان لكل هذه الإنجازات أن تتحقق"، ومن ثَمّ يستغلّ بعضَ الأشياء في سبيل مصلحته؛ ويحاول أن يُلبس أفعالَه غير المشروعة لباسًا مشروعًا؛ فكلّ هذا يدخل ضمن قائمة الغلول.. بل إن مَن يطلب حكم أمةٍ وهو ليس جديرًا به ودون وجه حقّ فإنما يغلّ حقوق الأمة وينتهك حقوقها.

وعلينا أن نفهم هذه الآية الكريمة ضمن قاعدة "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"، وعلى ذلك فما دام الأنبياء لم يقوموا بهذا الفعل وهو الغلول، فلا بد لأُمَمهم أيضًا ألا تقع في هذا الجرم.. يجب أن تكون ذا إرادة قويّة في هذا الأمر، وأن تسير على النهج الصحيح دائمًا.. وإلا فالآية القرآنية تخبر أن من غلّ سيأتي بما غلّ به يوم القيامة.. ومن ثم فعلينا أن نعتبر هذه الآية الكريمة بمثابة تعليم للأمة المحمدية في شخص الأنبياء العظام صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

جاء في حديثٍ شريف يمكننا أن نعتبره شرحًا وتفسيرًا لهذه الآية الكريمة أن سيدنا رسول الله ﷺ حدّث أصحابه يومًا عن الغلول، وكيف أنه كبيرة من الكبائر: "**أَيُّهَا النَّاسُ لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لَا أَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا قَدْ بَلَّغْتُكَ**"[٣٧]، ويُتبع النبيُّ ﷺ هذا القولَ بتعداد أنواعٍ أخرى من الأنعام وأموال الغنائم، مشيرًا إلى الجزاء نفسه.

وفي نهاية هذه الآية الكريمة يقول ربنا سبحانه وتعالى: "ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ"، اللهم احفظنا من أن نأتيك يوم القيامة بجرمٍ شنيعٍ كالغلول!

وإذا ما تأملنا في بعض الوقائع مثل: عملية استنزاف البنوك التي وقعت في بعض الفترات، وإهدار المال العام، ودفع الناس إلى الضيق والحاجة بسبب الديون التي ينوء بها كاهلُ الدولة فإنني أظن أننا سندرك جيّدًا لماذا كان الغلول -الذي نُهينا عنه- كبيرةً من الكبائر.

المحاسبة الدائمة لتجنّب الوقوع في الغلول

إن مما يجبُ على الأرواح الناذرة نفسها للخدمة في سبيل الله أن تنظر إلى هذا الأمر بمزيدٍ من الدقّة والحساسية.. فمثلًا إن لم نسأل أنفسنا أو نحاسبها عندما نجتمع من أجل الخدمة أو لأداء عبادة من العبادات قائلين: "هل لنا حقّ في الجلوس على هذه السجادة التي نجلس عليها في هذه المؤسسة؟"؛ فهذا يعني أن جذوة حساسيّتنا في هذا الموضوع قد انطفأت.. أنا لا أريد أن أقول: ليس لكم حقٌّ في هذا؛ لأن مَن أنشأ هذه المؤسسات إنما أنشأها بنيةِ الخدمة، وقد اشترى هذه السجادات بناء على هذه الفكرة، فهذا أمرٌ آخر.. ولكن

(٣٧) صحيح البخاري، الجهاد، ١٨٩؛ صحيح مسلم، الإمارة، ٢٤.

عند محاسبتنا لأنفسنا علينا أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة: "يا تُرى هل لنا حقٌّ في السجود على هذه السجادات، يا تُرى هل سيكون تآكلها وَبَالًا علينا؟ يا ترى هل الطعام الذي نطعمه هنا مشروعٌ بالنسبة لنا"، وهل نحن نستحقه؟"؛ وهكذا فمن الأهمية بمكان أن يكون لدى الإنسان هذا القدرُ من القلق والشك والحساسية في هذه المسألة؛ فالمؤمن يقع على عاتقه أن يتحرّى مصدر اللقمة التي وضعها في فِيهِ، من أين؟ وكيف؟ وهل هي مشروعة بالنسبة له أم لا؟ وأن يعيش حياته دائمًا بهذه الدقة البالغة.

أجل، قد تعملون في ساحات مختلفة في سبيل خدمة ديننا وأمتنا، ولكن لأضرب لكم مثالًا بجمعية "هل من مغيث؟ (*Kimse Yok mu?*)"[٣٨] لأنها التي تتبادر بذهني الآن.. فكما هو معلوم ومرئيّ فإن هذه الجمعية تؤدّي خدمة عظيمة في يومنا هذا، فما ظهرت مشكلةٌ في أيِّ بلدٍ من بلدان العالم إلا هرولت وساهمت في إزالتها،

(٣٨) **جمعية "هل مِنْ مُغِيث؟** (*Kimse Yok mu?*)" هي إحدى جمعيات العمل المدني العالمية المؤسسة في ٣ يناير (٢٠٠٢م)، وكان يعمل معها عشرات الآلاف من المتطوعين، وهي كانت تقدم المساعدات الإنسانية في كل أنحاء العالم دون أدنى تمييز بسبب الدين واللغة والعرق والنوع، وكانت تمديد المساعدة في محافظات تركيا كلها عبر ٤٠ فرعًا لها، وفي ١١٠ دول بالعالم، وهي عضو استشاري بالمجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة (*ECOSOC*)، وقد فازت الجمعية في ١٠ يوليو بـ"جائزة البرلمان التركي لأفضل الخدمات المقدمة"، ومنذ عام ٢٠١٠م وحتى اليوم وهي تعمل بالتعاون مع المُفَوَّضِية العليا للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (*UNHCR*) من أجل توفير احتياجات اللاجئين في تركيا في مجالات مثل الصحة والتعليم والغذاء؛ وتأتي فلسطين وغزة على رأس المساعدات التي تقوم بها الجمعية خارج تركيا، ومنذ (٢٠٠٦م) وحتى الآن تزداد تدريجيًّا فعاليات المساعدات والمعونات التي تقدمها الجمعية في المنطقة، وقد اكتسبت صفة "الجمعية العاملة للصالح العامّ" بقرار مجلس الوزراء التركي الصادر في ١٩ يناير (٢٠٠٦م)، كما حصلت بقرار مجلس الوزراء التركي الصادر في ٦ فبراير (٢٠٠٧م) على صلاحية "جمع التبرعات دون تصريح"، إلا أن هذه الصلاحية أُلغيت من التنفيذ بقرار مجلس الوزراء الصادر في ٢٢ سبتمبر (٢٠١٤م)؛ فقامت الجمعية برفع دعوى قضائية ضد هذا القرار الأخير لدى محكمة مجلس شورى الدولة في ٢ أكتوبر (٢٠١٤م) تطالب فيها بوقف القرار من التنفيذ، وكانت لا تزال الإجراءات القانونية مستمرة ولكن أغلقتْ من قبل الحكومة في تاريخ ٢٣ يوليو/تموز (٢٠١٦م). **(الناشر)**

وفي تضميد جراح المتضررين هناك، ولكن علينا ألا ننسى أن وراء هذه الجمعية الإغاثيّة العالميّة همّةُ أمتنا؛ لأن وسائل الإعلام تُعلنُ عن المساعدات التي تقوم بها هذه الجمعية، وتَفتَح الهواتف البابَ لتلقّي المساعدات، وهكذا يهرع فلانٌ للمساعدة بثلاثة قروش، وفلان آخر بخمسة وهكذا، حتى تتراكم هذه المساعدات، وتصل إلى مبلغ معين.

في الواقع يجب على مَن يعمل في مثل هذا المكان ولديه دخلٌ آخر أن يعمل في سبيل مرضاة الله؛ فلا يطلب أجرًا دنيويًّا ولا يتشوّف إلى أخذ أيّ مقابل.. ولكن إن لم يكن لهذا الشخص الموظّف بهذا المكان دخلٌ آخر فلْيُقدّر له راتبٌ معين، ومقنّن أيضًا، وإلا فإن قيل: "إن هذا المكان يتمتع بإمكانيات كبيرة، فعلينا أن نعطي العاملين فيه أجرًا يضاهي أجر صحفي رفيع المستوى، لأننا نهاجر إلى شتى أنحاء العالم، ونتحمل الكثير من التضحيات، ومن ثَمّ لنا الحقُّ في الحصول على هذا الراتب العالي"؛ فهذا يُعتبر صورةً من صور الغلول.

ولكن ما يجب أن يتمّ هنا هو أن يقولَ الفريق أو الهيئة التي تدير هذه المؤسسة بعد أن تضع قواعد معينة لتنظيم العمل: "حقُّك هكذا، وراتبُك بهذا القدر، وبدلُ سفرك بهذا القدر أيضًا... إلخ"، ولا يجوز لأحدٍ أن يتحصّل على أكثر من هذا، وإلا قد يخسر الإنسان رغم أنه يعمل في طريق الحق، وقد يتعرّض لغواية الشيطان والعياذ بالله وهو يسير إلى الله، وفي النهاية يتعثّر وتنقطع به السبل، رغم توفُّر الفرصِ والإمكانيات للسير في الطريق الصحيح.

مصارحة المجتمع

فعلى كلّ مَن يتولّى أمرَ مدرسةٍ أو معهدٍ تحضيري للجامعة أو نادٍ ثقافي... إلخ من المؤسسات الأخرى أن يتعامل بهذا القدر من الحساسية البالغة؛ لكي يُشعروا إنساننا بالثقة بهم؛ حتى إذا ما اقتضت الضرورةُ التضحيةَ بالنفس ضحّى بها عن طيب خاطر.

فإن وقع غلولٌ من شخصٍ في مكانٍ ما ولو بأقل من حبّة شعيرٍ حوسب عليها في الآخرة، يقول الله ﷻ: ﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ (سورة الزَّلْزَلَةِ: ٨/٩٩)، ففي هذه الآية ذكر ربنا ﷻ أن الإنسان يُحاسب في الآخرة على ذنوب أقلّ من حبّة الشعير؛ لأن "الذرة" تعني أصغر جزء في المادة، وكانوا يسمونها قديمًا "الجُزيء"، وبعد ذلك أسموها "الذرة"، ثم "أجزاء الذرة"، بل لكم أن تطلقوا عليها أيضًا اسم "أيون" أو "الأثير".. وهكذا يُفهم من الآية الكريمة أن الله تعالى سيحاسِب الإنسانَ على أقلّ الشرور التي قد يتعذّر رؤيتها بالمجهر أو بالأشعة السِّينِيّة الكهرومغناطيسيّة "X".

تأملوا هذا الإنسان العظيم الذي عاش في مطلع القرن العشرين، وأوقف حياته للخدمة الإيمانية كيف قضى عمره بهذه الحساسية البالغة، وحتى لا تتزعزع ثقة الناس فيه كان يصارح المجتمع ويكشف حساباته الخاصة أمامه، فعلى سبيل المثال يقول: "إن هذه السترة (الجاكيت) قد اشتريتها مستعملة قبل سبع سنوات، وكفتْ أربع ليرات ونصف لمصاريف خمس سنوات مضتْ للملابس والحذاء والجوارب، فلقد كفتني البركة والاقتصاد والرحمة الإلهية"[٣٩]..

(٣٩) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب السادس عشر، ص ٨٦.

وبذلـك لـم يفسـح هـذا الإنسـان العظيـم المجالَ لإثارة أيّ شكوك أو ريبـةٍ حولـه.. ثـم ذكـر فيمـا بعـد أن الدجاجة التي يقتنيهـا في بيته كانت تضع له كلّ يوم بيضة حتى في موسـم الشـتاء، كما أن فرختها التي وضعتها في الصيف بدأت هي الأخرى تمده بالبيض أيضًا(٤٠).. وفي الواقـع لم يكن الأسـتاذ النورسـي رحمه الله يقصد من وراء ذلك قصّ القصـص علـى النـاس، بـل مصارحتَهـم وإطْلاعهم على الحيـاة التي يعيشها.

وقـد اسـتمعتُ يومًا من الحاج "منير بـك" وكان من أعيان قريتنا؛ أن الأستاذ النورسي رحمه الله لمّا قبضوا عليه وجاؤوا به من جبل "أرك"(٤١) نزل ضيفًا في بيت جدّي رحمه الله.. وقد حدّثنا الحاج "منير بك" عن حال الأسـتاذ النورسـي فـي تلك الأوقـات فقال: "لما رأيتُـه فاضت عيناي بالدمـع حزنًـا علـى حاله؛ لأن رجْلَـه وجوربَه كانا غارقيـن في المياه نظرًا لتمزّق حذائه، فاشتريت حذاءً مَطّاطيًّا وذهبتُ به إلى البيت، ثم أخذتـه إلـى الأسـتاذ -[ومن يدري قـدر الجهد الذي بذلـه والصعوبة التي عاناها حتى يجعله يقبل مِنه هذا الحذاء!]- وبعد ذلك أحضرتُ له عند الإفطار حسـاءً وخشّـافًا، فتناول من الحسـاءِ بضـع ملاعق، ثم قال: "لنتسحّر بالخشاف إن شاء الله حتى لا نسرف".. ومما يُفهَمُ من هذه القصّة أن الأسـتاذ النورسـي لم يكن في حالةٍ تسـمح له بشـراء حـذاء مطاطـي جديـد.. وهكـذا عـاش حياته بهـذه الدقّة والحساسـية البالغـة، وبـذل مـا فـي وسـعه حتى لا تهتـزّ ثقة النـاس فيه، فـكان لنا في هذا الأمر نعمَ القدوة الحسنة.

(٤٠) المصدر السابق.

(٤١) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة العاشرة، ص ٦١.

فعلى كلّ مَن تولّى إدارة مؤسّسةٍ أو منصبٍ ما في المجتمع أن يعيش حياته بمثل هذه الحساسية، فنحن المؤمنين نعتبرُ أنَّ أكبرَ رصيدٍ لنا هو ثقةُ الشعب بنا، فالشعب مصدرُ هذه الثقة، وإنما يرعى الخدمات التي نقوم بها لأنه يعتقد أن حياتنا لا تشوبها ذرّة من المتاجرة بثقته، ومن ثم فإن غللتم واعتديتم على أشياء ليست من حقّكم فقدتُم ثقةَ هذا الشعب، وجاءت خيانته على أيديكم وهو الذي وثق بكم.. ومثل هذه الخيانة سيحاسبكم الله تعالى عليها في الآخرة.. ولكن لا ندري كيفية هذا الحساب، هل يستطيع الإنسان آنذاك أن يُقدِّم كشف حسابه أو لا، وكيف سيكون ذلك.. لا نعرف، ولا شك أن وقوفنا مثل هذا الموقف في يوم المحشر سيصيب سيد السادات ﷺ بالحزن والكدر والخجل.

ثمة مناهج وقيم أساسية أمدّنا ديننا بها في هذا الخصوص، وهي أمور جديرة بالوقوف عندها ومراعاتها.

أجل، لقد أحسنَ الحقُّ تباركَ وتعالى علينا بالقرآن الكريم والسنّة الصحيحة ودين الإسلام المبين، وجعله روحًا لحياتنا، فلو لم نُقم صرح روحنا بعد كلّ هذه النعم التي تتنزل علينا زخًّا زخًّا فهذا يعني أننا أهدرْنا عمرَنا وضيَّعنا حياتنا سدًى، وعلى ذلك فإن كنا نبغي ألا نصيب روحَ سيد الأنام ﷺ بالخجل في الآخرة، أو كنا نبتغي أن تستمرّ بركات الله وإحساناته علينا بسبب ما نقوم به من أعمال خيّرة فنحن في حاجة إلى أن نتعامل بحساسيةٍ بالغة إزاء هذا الموضوع.

من أجل ذلك فمنذ أربعين أو خمسة وأربعين عامًا وأنا أنصح أصدقائي بألا يسعوا إلى امتلاك بيت أو سيارة.. أنا لست إنسانًا

حسّاسًا بهذا القدر، ولكن كم مرة رفعت فيها أكفَّ الضراعة إلى ربي ﷻ قائلًا: "اللهم ليس لي سواك، وروحي فداء لك، اللهم لا توسّع على أشقائي في عرض الدنيا"؛ لأن الناس لو رأوهم في ثراء وغنى سيقولون: "إنهم قد تحصّلوا على هذه الأموال من الجهة الفلانيّة"، ولكن الحمد لله رب العالمين، فكلٌّ منهم يعمل في مكانٍ ما عاملًا عاديًّا، وكلّ الناس يعرفون أنني لا أنزعج من هذا الأمر، ليعملوا وليُرهَقْ كاهلهم بهذا العمل، وليتوفّاهم ربهم -أطال الله في أعمارهم- على هذه الحال! إنني لا أحزن لهذا، إنني أحزن لو خُتمت لهم -والعياذُ بالله- بخاتمة سوءٍ، أو دارت الشائعاتُ حولهم.. لأن هذا يعني ضياع اعتبار الغاية التي ترعاها أمّتنا بكلّ صدقٍ وإخلاص، وفقدانٌ لرصيدنا عندها.

لصوصُ النجاح

وأخيرًا أُنوّه بأن الغلول لا يكون فقط في الماديّات بل في المعنويات أيضًا، فمثلًا يذكر الأستاذ النورسي رحمه الله أنه لا يجوز أن تُعطى الغنيمة كلها لقائد الوحدة العسكرية التي دحرت عدوها فأحرزت الغنيمة من جراء هذا النصر، بل يجب أن تُقسّم الغنيمةُ بالتساوي على أفراد الوحدة العسكرية كلهم؛ لأن الشرف والغنيمة المعنوية التي ترتبت على هذا النصر هي ملكٌ للجيش كله وليس للقائد فحسب..[٤٢] ومن ثمّ فإنّ احتكار الإنسان للنجاحات التي

(٤٢) يقول الأستاذ النورسي: "كما أنه ظلم عظيم إذا ما أعطي إلى شخص واحد ما تملكه الجماعة، ويكون الشخص مرتكبًا ظلمًا قبيحًا إذا ما غصبَ ما هو وقفٌ للجماعة، كذلك الأمر في النتائج التي تتحصل بمساعي الجماعة وعملهم، والشرف والمنزلة المترتبة على محاسن الجماعة وفضائلها، إذ ما أُسند إلى رئيسها أو أستاذها أو مرشدها يكون ظلمًا واضحًا بحق الجماعة، كما هو ظلم بيّن بحق الأستاذ أو الرئيس نفسه، لأن ذلك يداعب أنانيته المستترة فيه ويسوقه إلى الغرور، فبينما هو حارسٌ بوابٌ

حققتها هيئةٌ ما يدخل في باب الشرك الخفيّ من جانبٍ والغلول من جانب آخر؛ بمعنى أن مِن الأخطار العظيمة التي قد تحيق بالإنسان أن يحتكر لنفسه النجاحات التي تحقّقت بفضل مساعي الملايين من الناس ويقول: "هذه الخطط والمشاريع من بنات أفكاري وصدق فراستي"، وبذلك يجذب إقبال الناس عليه وتقديرهم له، فالإنسان حينما يحتكر نسبة هذه النجاحات لنفسِه يأخذُ الآخرون في التملّق إليه، قائلين: "ما شاء الله، لا حرمَنا الله منك، أطال الله عمرك، وفقك الله إلى مزيدٍ من النجاحات..."، وعلى ذلك يدّعي الإنسانُ لنفسه كلَّ شيء، وهذا يُعدّ وقاحةً أخرى وسوء أدب، ومن ثم فليس من الصحيح أن ينسب الإنسانُ لنفسه النجاحات التي أُحرزت نتيجة مساعي وجهود الملايين من الناس، ولا أن يعتبر توجّه الناس إليه حقًّا له، وهذا الوضع يُعدّ غلولًا وذنبًا عظيمًا وخيانةً للأمانة.

للجماعة، إذ به يتزيا يزيّ السلطان ويُوهم الآخرين بزيّه، فيظلم نفسه، بل ربما يفتح له هذا طريقًا إلى نوع من شرك خفي. نعم، إنه لا يحق أن يأخذ آمرُ طابورٍ الغنائم التي حصل عليها الجنود من فتحهم قلعةً حصينة، ولا يمكنه أن يُسند انتصارهم إلى نفسه". (بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشرة، ص ١٨٤-١٨٥)

المفهوم الراقي لساعات العمل

سؤال: كيف يجب أن يكون مفهوم ساعات العمل لدى القلوب التي نذرت نفسـها في سـبيل الحق تعالى؟ وما دور التضحية في ساعات العمل؟

الجواب: إنّ إنفاق الجهد في سبيلِ الحق والحقيقة، وبذل الأموال والثروات واستغلالها في هذا السبيل؛ كلها أمورٌ يمكننا أن نُدرجها في قائمة واحدة ألا وهي الإنفاق من حيث فلسفتها الرئيسة عمومًا، وكما ذُكر الإنفاقُ بين الآيات المكّية على إطلاقه يمكننا أن نفهم الأمر هنا على إطلاقه أيضًا، بمعنى أن الله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ (سورة البَقَرَةِ: ٣/٢)، فكما رأينا جعلت الآية الكريمة من إنفاق كل ما نستطيع إنفاقه من النعم التي أسبغها الله علينا غايةً وهدفًا، وعلى نفس الشاكلة فإن العمل بروحِ التفاني التام وفهمِ الجهد المبذول في ساعات العمل على إطلاقه كما جاءت الأحكام المكية على إطلاقها أيضًا هو نتيجة إيجابية لمثل هذا الأفق من التضحية.

وهنا لا بد ألا نغضّ الطرف عن المسألة التالية: فأحيانًا نقول على سبيل التشويق والترغيب لذلك الإنسان الذي نذرَ روحه للحقّ والحقيقة: "عليك أن تُنفق بما يزيد عن حاجتك، وأن تركض ركض

الفرس العربي الأصيل دون تعب ولا نصب".. وهكذا نفضل استخدام هذا الأسلوب في الترغيب والتشويق، وتدعونا الحاجة أحيانًا إلى أن نطلب من الإنسان أن يسعى لبذل كلِّ ما لديه، ولكن علينا عامة أن ننظر بعين الاعتبار إلى الطبيعة البشرية سواء في الإنفاق أو في تنظيم الجهد والأعمال.. بمعنى أنه يجب علينا ألا ننسى أننا بشر ولنا أُسَرٌ وعوائل، وأننا مضطرّون إلى تأمين سبلِ المعيشة لهم، كما يجب أن ننتبه إلى ألا تخرج الأمور التي نكلِّف بها الآخرين عن حدود الإمكان.

أجل، قد تكون هناك بعض القامات الفريدة التي ركضت ركض الفرس العربي حتى تقطعت أنفاسها، وتوقَّفَ قلبُها دون وعيٍ منها أثناء ركضِها، ولكن ينبغي ألا نتوقّع هذه التضحية من الجميع، وألا نُخضع الجميع لمثل هذا الأداء ومثل هذا البرنامج.. علينا أن نراعي الوضع العام، ونقسم أعمالنا وفقًا لذلك.

منهج ورثة النبوّة في تنظيم الحياة

يقول سيدنا رسول الله ﷺ في حديث ذي صلة بموضوعنا: "**إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ**"(٤٣)، بمعنى أن الدين ليس بالأمر الشاقّ الصعب مما لا يطيقه الإنسان، فمن الممكن القيام بأوامره في راحة وطمأنينة؛ عن طريق تنظيمنا لأوقاتنا وتقسيمنا لأعمالنا، ودعمنا لبعضنا، ولكن مَن شادّ الدينَ غلبَه وقطعه، ومن ثمّ فعلى الإنسان أن يتناول الأمر باليُسرِ كما أسلفنا حتى يستطيع القيام به في صباه وشبابه وشيخوخته، وأن يعايش دينه ليس على مستوى الفرد فقط بل على مستوى الأسرة والمجتمع.

(٤٣) صحيح البخاري، الإيمان، ٢٩؛ سنن النسائي، الإيمان، ٢٨.

وقد يوجد دائمًا أناسٌ نذروا حياتهم كلَّها في سبيل الحق والحقيقة، وأغلقوا أعينهم عما سوى خدمة الدين، وتجرّدوا تمامًا عن الدنيا.. وإن هذا الاتّجاه لا بأسَ فيه ما دامَ أربابه لا يجبرون الآخرين عليه ولا يُكلّفون غيرهم به.

وإنَّ من أربابِ هذا المنهج المتصوفةَ الخلوتيين الذين اعتزلوا الدنيا، وعاشوا حياتهم في عزلةٍ وانزواء، فأغلقوا أبوابهم على أنفسهم حتى لا ينشغلوا بشيء ولو طرفة عين عن العبادة لربهم ﷻ، ولكن علينا ألا ننسى أن هذا ليس سبيلَ ورثة النبوة.. إننا نقدّر هؤلاء الناس، ونتوّج بهم رؤوسنا، ولكن سيد الأنام (عليه ألفُ ألفِ صلاة وسلام) لمّا كان يبلغ رسالته لأتباعه كان يُخبرهم بأن من يُخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ ممن لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم[٤٤]، ومن هنا فتقع على كلِّ فردٍ مسؤوليّات ومهام، عليه أن يقوم بها ويؤدّيها بإتقان في سبيل رفعة أمّته، ولا سيما أن رفعة الإنسان منوطةٌ -من جهةٍ ما- برفعة أمّته والأجيال القادمة، ولذا يجب على الإنسان أن يُطوّر من خططه الكبرى العامة التي يراعي فيها المجتمع ككل، وأن يبذل جهده لتحقيق هذه الخطط، ولكن إلى جانب هذا عليه أن يقوم بتنظيم أعماله، حتى لا يعتري دينه وديانته وقلبه وروحه أيُّ خلل أو قصور، وألا يتخلف عن السعي بقدر الإمكان عن سبيل الله.. ومن ثم يجب على الجميع أن يقوموا بالوظائف الملقاة على عاتقهم، فلا يتركون ثغرة أو خللًا في أي مرحلة من مراحل الحياة وفي كل مناحي الحياة إلا سدّوه،

(٤٤) انظر: سنن الترمذي، القيامة، ٥٥.

وأن يقوموا بتنظيم أعمالهم وتقسيمها إن كانوا يرومون إتقانَ أعمالهم وإبرازَها على أكمل وجه، وجنيَ الثمار من ورائها.

كان عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما من خيرة الصحابة وأكثرهم زهدًا وتقوى، وهو ممّن يسمعون فيفهمون عن النبي ﷺ خير الفهم، كان هذا الصحابي الجليل يقوم ليله ويصوم نهاره، وأحيانًا ما يواصل صومه يومين أو ثلاثة.. حسنٌ، إلامَ يُمكن الوصولُ إليه جرّاء هذه الحياة التعبدية؟ إن الإنسانَ بهذه الحالة إن كان متزوِّجًا فسيُؤدّي ذلك إلى إهماله حقّ أسرته.. فمثلًا إذا تفرّغ الإنسانُ للعبادة حتى الصباح قد لا يتمكّن من رؤية أولاده والجلوس معهم ومحادثتهم، وقد يقصِّر في القيام بالوظائف الأخرى التي أُنيطت به.. فلما وصل نبأُ عبد الله بن عمرو بن العاص إلى سيدنا رسول الله ﷺ قال: "**إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**"(٤٥)، وهكذا أشار النبي ﷺ من خلال هذا التحذير النبويّ إلى التكاليف الموضوعية التي يطيقها الإنسان، كما سلَّطَ الضوءَ على ضرورة تنظيم الوقت وتقسيم العمل.

ولنرجع إلى موضوعنا مرة أخرى ونقول: علينا أن نكون متوازنين في فهمنا لمسألة الخدمة والإنفاق.. فمثلًا لنفترض أن صاحب مصنع جاء إلى مؤسّسةٍ خيرية وقال للموظفين هنالك: "إنني أريد أن أتبرّع بمصنعي كلّه لهذه السنة من أجل الخدمة، فلكم أن تستخدموه كما تشاؤون"، بل لنفترض أن عددًا آخر من أصحاب

(٤٥) **صحيح البخاري**، التهجد، ٢٠؛ **صحيح مسلم**، الصيام، ١٨١.

المصانـع قد فعلوا الشـيء نفسـه، وتبرّعوا بمصانعهـم، علينا حينذاك أن نفكـر فـي الخلـل الـذي قـد يعتـري منظومـة العمـل، فهـل بإمكان هـذه المؤسسـة الخيريـة أن تشـغّل هذه المصانـع كلهـا؟ وهل بإمكان أصحـاب المصانـع هؤلاء أن يفعلوا الشـيء نفسـه كلَّ عام؟ علينا أن نأخـذ كلّ هـذا بعين الاعتبـار؛ ونطلب من هـؤلاء الراغبين في التبرع بأن يواصلوا تشـغيلهم لمصانعهم وفق النظام الذي وضعوه بأيديهم، وليُنفقوا ما يشـاؤون دون انسـلاخٍ تامّ من أموالهم، وبذلك سيسـاهم ذلك الشـخص في أعمال الخير كلّ عام، وسـيواصل رعايته وتمويله لمثل هذه الأنشـطة، وإلا فإن تبرّعَ بكلّ ما لديه سـتأتي السـنة القادمة وليـس فـي يديـه شـيءٌ يتبـرّع بـه، ويكتفـي بالنظـر إلـى الجميـع وهـم ينفقـون ويتبرعـون.

ما يعِدُ به تنظيم أوقات العمل

مـن الأهميـة بمـكان أن نراعي مسـألة تنظيم الأعمـال إلى جانب روح التضحيـة فـي سـبيل خدمـة الحـق.. وكما جـاء في نهاية سـورة الشـرح يمكننـا أن نسـتريح مـن أعمالنا بتنوّعها؛ وذلـك بالانتقال بين الأعمـال التعبديـة والأعمـال الدنيوية والعكس؛ إذ علينا أن نزيح عن أنفسـنا الأرق الروحيّ بالعمل الجسـدي، والتعب الجسدي بالانتشاء الروحي.. وبذلك نملك بنيةً روحيةً وجسديةً قويةً متينةً فاعلة.

ثمّـة معلِّمـون ومربـون من أصحـاب التضحية والروح الحِسْـبية؛ يقومـون بوظائفهـم داخـل الوطـن وخارجـه، فـي المـدارس والأندية الثقافيـة وغيرهـا مـن المؤسّسـات في سـبيل خدمة الإنسـانية؛ فهؤلاء سـواء عاشـوا علـى الكفـاف أو تقاضـوا راتبًـا فـي صـورة منحـة،

أو قُدّر لهم راتبٌ معتاد، أيًّا كان الراتب الذي يتقاضونه، فالمتوقّع من هؤلاء هو أنّ يتكفّلوا -فوق ساعات العمل، وبعد أن يضمنوا سبل الإعاشة لأولادهم- بتدريسِ الطلاب أربعين ساعة إن لزم الأمر، وأن يكونوا معهم صباح مساء، وإن كان بمقدورهم فليقوموا على تربيتهم وإرشادهم في أيام الإجازة أيضًا.

أجل، ليت هذه الأرواح الحِسْبية تساعد طلابها في دروسها؛ بغيرةٍ وعزمٍ نبويّ، وأن تستمع لآلامهم، وأن تحنو عليهم وترحمهم رحمة الأم وشفقتها على أبنائها، إلا أنه يمكننا من خلال هذا الفهم لساعات العمل أن نعدّل من حياتنا العلمية والمعرفية التي انهارت وفسدت منذ زمنٍ طويل، ولكن قبل أن نكلّف الناس بمثل هذا المستوى من التضحية علينا أن نُعيد تأهيلهم في هذه المسألة، وأن نعوّدهم على ذلك، ثمّ نستودع إرادتَهم هذا المفهومَ من التضحية، وينبغي ألا يغيب عن أذهاننا أبدًا ونحن نقوم بهذا أن هذه التضحية ليست بالأمر الذي يُجبَرُ الناسُ على القيام به.

أجل، إن أردنا أن نجني ثمارًا يانعة من وراء الخدمات التي نقوم بها فعلينا أن ننفق وقتًا أكبر في سبيل ذلك.

فمثلًا لو أنكم تولّيتم أمرَ الإدارة والإشراف على الطلاب في مدرسةٍ ما، فعليكم بعد أداء وظيفتكم الإدارية نهارًا في المدرسة أن تقوموا بالمسؤوليات الملقاة على عاتقكم خارج ساعات العمل كمتابعة الطلاب في غدوّهم ورواحهم للأماكن التي يصحُّ أو لا يصحّ أن يذهبوا إليها، والثمرة تأتي بإذن الله وعنايته وفضله على قدر الوقت الذي خصصتموه لهذا الأمر، وعلى قدر الجهد الذي بذلتموه فيه.

قراءة الأوامر التكوينية قراءة صحيحة وتنظيم الوقت

بعدما أوضح فضيلة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي ﵀ أن تنظيم المساعي هو أحد الأسس المهمة في الترقي ذكر أن هذا "لا يتمّ إلّا باتباع الأوامر المقدسة في الدين، والثبات عليها، مع التزام التقوى من الله سبحانه وابتغاء مرضاته"[٤٦]، وأما التقوى فهي اجتناب المحرمات، وأداء الفروض، واتقاء الشبهات، وتحرّي الإنسان للأمر، ومحاسبته لنفسه هل هو من حقوقه أو من واجباته أو أنه لا يندرج ضمن أي واحد منهما؟ هذا كلّه أمر مرتبطٌ ارتباطًا مباشرًا بالتقوى، ولذا فإن الشخص الذي يُعهد إليه بعملٍ من الأعمال إن لم يُحسن استغلال وقته، ولا يركّز في عمله، ولا يؤدّي وظيفته التي أُسندت إليه بحقها فهو مسؤول أمام المؤسسة التابع لها، كما أنه مسؤول قبل ذلك أمام ربه ﷻ.

ولا يعزب عن علمكم أن للتقوى بعدًا آخر، وهو مراعاة الأوامر التكوينية إلى جانب الأوامر التشريعية.. فمثلًا يندرج تحت مسألة مراعاة الأوامر التكوينية؛ حسنَ استثمار الوقت، والنظر بعين الاعتبار إلى ما يجري في الدنيا التي نعيش فيها، ومراعاة وجود الحاسدين الذين يحيطون بنا كالدوائر المتداخلة وذلك بمباشرة الأعمال التي نقوم بها بحكمةٍ ومنطقية، وابتغاء الكمال في تسيير أعمالنا دون إحداث أيّ مشكلة، ومن هذا المنطلق فإنني أناشدكم الله متسائلًا: هل يجوز أن يضرّ الإنسان بنفسه وخدمته وأمّته بعدم مراعاته لمثل هذه الأمور؟!

---

(٤٦) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشر، المذكرة السابعة، ص ١٧٠.

أجل، إن تنظيم الوقت بشكلٍ جيّد أمرٌ يقتضيه الدين، كما أنه وسيلةٌ مهمّة تُفضي إلى إحراز النجاحات فيما نقوم به من أعمال؛ بمعنى أن علينا أن نُنظّم أمورنا؛ من قَبيلِ متى نستريح، ومتى نعمل، وما الوسيلة التي تؤدّي إلى الفوز والنجاح، ومتى نشحن قلوبنا روحيًّا، ومتى نُفرغ ما شحنّاه، وهكذا... وهذا يتطلب منا أن نتحرّى الدقّة البالغة، وأن نعالج كلَّ شيءٍ أوَّلًا بأوّل.

تقسيمُ العمل ومراعاةُ الوقت

من جانب آخر فمن الأهمّية بمكانٍ تقسيمُ العمل إلى جانب تنظيم الوقت؛ بمعنى أنه لا بدّ من حسن اختيار المرء الذي سيُباشر العمل، إلى جانب تحديد المجال الذي باستطاعته أن يحقق النجاح فيه، وهذا يتأتّى بمعنى أدقّ وبشكلٍ كامل على يد المسؤولين عن العمل، فقد كان من أبعاد فطنته ﷺ أنه كان يُحسن توظيف المرء المناسب في المكان المناسب. أجل، لم يكن هناك أيُّ داعٍ لتغيير الشخص الذي استعمله في مكانٍ أو مهمة ما؛ لأن النجاح كان يحالفُ الشخص الذي عينه دائمًا، وهذا الأمر منوطٌ أيضًا بمعرفة المسؤول بماهية الأشخاص واختبارهم والكشف عن مهاراتهم، وإن معرفة القابليات في ظلّ الظروف الحالية، واستغلالها في أماكنها أمر منوطٌ من ناحيةٍ ما بالعقل المشترك والوعي الجمعي.

وثمة فائدةٌ في الإشارة هنا إلى هذا الأمر الأخير: كثيرًا ما تُعقد الاجتماعات والبرامج على فترات متفاوتة في مؤسسات الدولة أو المؤسسات الخاصة، ولا جرم أن هذه الاجتماعات والبرامج تُنظَّم في وقتٍ محدد؛ لأن الوقت قيِّمٌ وثمينٌ، ولا حقَّ لأحد أن يُضيّع

وقت أخيه أو يُهدِره وقته الثمين؛ لأن هذا الأمر يُوجب المسؤولية أمام الله تعالى، ولا سيما أن هناك أعمالًا قد يتسبّب التواني فيها -ولو لنصف ساعة- في ضياع العمل الذي لا بدَّ من القيام به، فقد يؤدّي تأجيل الأمر بعضَ الشيء إلى وقوع سلبيّاتٍ خطيرة وخسائر بالغة.

من جانبٍ آخر فإن التواعد على اجتماعٍ ما، وتحديدَ موعدٍ له يُعدّ بمثابة تعهّد ضمني.. ويُخشى على مَن لم يُراع هذا أن يدخل ضمن مَن توعّدهم الله ﷻ بقوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة الصَّفِّ: ٦١/٢)، وإذا نظرنا إلى سبب نزول الآية -رغم أن الآية يتعلّق محتواها ومعناها بمساحة أكبر تتجاوز سبب النزول- فإننا سنجد أنها نزلت فيمن لا يتمسكون بوعودهم أيضًا، ومن ثَمّ على الإنسان إنْ وعد بحضور اجتماعٍ ما أن يبذل قصارى جهده أن يكون هناك في الوقت المحدّد، بل عليه إن اقتضت الضرورة أن يذهب قبل موعد الاجتماع بمدة وينتظر أمام الباب، فانتظارنا للآخرين أولى من انتظارهم إيانا، ولكن إن اعترضت هذا الإنسان مشكلةٌ تعوقه عن حضور الاجتماع في موعده المحدد له فعليه أن يتصل هاتفيًّا معتذرًا عن عدم تمكّنه من الحضور؛ حتى لا يتسبب في ضياع وإهدار وقت أصدقائه.

فضلًا عن ذلك لا بد من ترتيب الموضوعات التي سيتمّ التحاور حولها خلال الاجتماع، وأن تُدَوّن بدقّةٍ بالغة في مكانٍ ما، وألا تُترك المسألة لفوضى الارتجال، ومن المهمّ بالنسبة لنا أن تُسجّل هذه الموضوعات بعقلٍ وحسٍّ وقلبٍ سليم؛ وبذلك تظل الموضوعات التي سنناقشها في إطارٍ معين، وإلا قال هذا شيئًا، وقال ذاك شيئًا آخر

معارضًا له، وقال ذلك شيئًا آخر تمامًا، وعند ذلك تتدخّل العواطف، وتتشعّب الموضوعات، والحال أن علينا أن نتقيّد بالملاحظات التي سجّلناها من قبل، فإن كانت الملاحظات التي سجلناها تعتمد على عقلٍ سليم فلن تخرج عن الإطار الذي حددناه لها، وبذلك لا يضيع وقتُنا سُدًى.

وهناك مسألة أخرى كثيرًا ما نوهت بها في مناسبات مختلفة، وهي عدم إطالة المكالمات الهاتفية دون داع، فأحيانًا تطول المسائل التي نتحدث عنها في الهاتف، ويشكّل الجزءَ الأكبرَ فيها ألفاظٌ مثل: يعني.. وكيف.. ونعم.. بيد أننا لو دوّنّا هذه الموضوعات التي نتحدث عنها في الهاتف من قبل لقرأناها من المكان الذي دونّاها به، ولما أسرفنا في استعمال الهاتف، ولا ضيّعنا وقتَنا دون داع، فأحيانًا يكون هناك أمرٌ لا يستغرق الحديث عنه سوى دقيقتين ولكنه يطول إلى أكثر من نصف ساعة لأنه لم يُعدّ ويُدوّن من قبل، بيد أن الأطباء يقولون: إن إطالة الحديث في الهاتف ينتج عنه ورمٌ بالمخ والعياذ بالله، وبما أننا نثق في كلام الأطباء في هذا الموضوع فعلينا أن نتحرّى الدقة، حتى لا نقترف ذنبًا.

حمادى القول: إن علينا نحن المؤمنين أن نضع نظامًا ومعيارًا معيّنًا لأحوالنا وسلوكياتنا، فيجب أن نتقيّد بالانضباط في قيامنا وقعودنا وحركاتنا وحديثنا، وأن نعيش حياتنا وفق المنهج والمبادئ السماوية.

الأضحية وسيلةٌ للتقرّب مِن الله ومِن الناس

سؤال: تجوبُ الأرواحُ المتفانية كلَّ أنحاء البلاد، ويطوفون بمشـــارقها ومغاربها، ويســـافرون إلى كلّ الدول التي تعانـــي الفقـــرَ والحرمان لا ســـيما قـــارة إفريقيا؛ حتى يجعلوا من الأضحية -التي هي وســـيلة للتقرَّب من اللّه ﷻ- وســـيلة للتقرب إلى الناس والتواصـــل بين القلوب، فما رأيكم فـــي اتخاذ الأضحية وســـيلةً للمعايدة على الناس في أيام العيد، وبم تنصحنا حتى يسير هذا الأمر على نحوٍ أفضل؟

الجواب: بـادئ ذي بـدء علينـا أن نعلم أنه ما من شـيء إلا ويبدأ بنواةٍ صغيرة، ثم يقوم الذين يأتون من بعدُ برعايتها وكفالتها، فيبتكرون أسـاليب ومناهـج جديـدة لتطويرِها، ويأتون ببدائـل مختلفة.. وهكذا الأضحيـة؛ كانـت عبـادةً يؤديهـا الناس على المستوى الفرديّ فقط، ويشـرعون في ذبحهـا وتوزيعها على الأقـارب والجيران والمعارف، ومـع الوقت أصبحت هذه الشعيرةُ سواء في بلادنا أو البلدان الأخرى وسيلةً مهمّة للوصول إلى القلوب.

الأضحية وخلق الإيثار

يقول تعالى في مستهلّ السـورة الثانية من القرآن الكريم: ﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ (سـورة البَقَرَة: ٣/٢)، وفي هذا إشـارةٌ إلى أن الحق ﷻ هو صاحب الملك، وما نحن إلا مُستأمَنون على هذا الملك، بمعنى

أنّ كلَّ ما ننفقه في الحقيقة إنما هو من النعم التي أسبغها الله ﷻ علينا، يقول الحق تعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ (سورة الإِسْرَاءِ: ٣١/١٧)، وهنا إشارة إلى ضرورة ألا يساورنا الخوفُ والقلق من فوات الرزق، وفي آية أخرى يذكر ربّنا تبارك وتعالى هذا الأمر صراحة فيقول: ﴿إِنَّ اللّٰهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ٥٨/٥١).

وفي الواقع إن الإنفاق سواء كان عن طريق الزكاة أو صدقة الفطر أو الأضحية إنما يعبّر عن الحدّ الأدنى للمسألة، أما الحدّ الأقصى للمسألة فيشير إليه الحقُّ تعالى بقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (سورة الْحَشْرِ: ٩/٥٩)، والإنسان الذي يتعامل بهذه الروح لا يبخل على الناس بما آتاه الله من وقتٍ وإمكانيات وعلمٍ وعرفانٍ وثروةٍ وأفق فكري... إلخ، ويشاطر الآخرين كلّ ما يملكه.

وهكذا المسلمون في الأعياد يعبرون بالأضحية التي يذبحونها عن عمق مشاعر السماحة عندهم، ويفتحون القلوب بها، ويضربون بسهمٍ من أضاحيهم لمن لم يستطع التضحية منهم، وجاء في الحديث: "**اسْتَفْرِهُوا ضَحَايَاكُمْ فَإِنَّهَا مَطَايَاكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ**"(٤٧)، وفي هذا الموقف يقف الإنسان مشدوهًا مفعمًا بكل مشاعر الاحترام والتقدير، ويقول: "عجبًا! على أيٍّ من هذه الأضاحي أركب؟!".

ويقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**مَنْ كَانَ لَهُ سَعَةٌ وَلَمْ يُضَحِّ فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّانَا**"(٤٨)، ووفقًا لهذا الحديث فإن عدم الذبح مع وجود السعة

(٤٧) الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ٨٥/١؛ السيوطي: **الجامع الصغير**، ١٨٥٣/١.
ومعنى "استفرهوا" أي استكرموا، أو استعظموا.

(٤٨) **سنن ابن ماجه**، الأضاحي، ٢؛ **مسند الإمام أحمد**، ٣٢١/٢.

يحمل تهديدًا كبيرًا من النبي ﷺ، ومن ثَمّ ذكر فقهاءُ الحنفية أن لفظ الحديث يدلّ على الوجوب(٤٩) ويقولون إن إلحاق الوعيد لا يكون إلا بترك الواجب(٥٠)، فكما أنّ الزكاة فرضٌ على مَن بلغ مالُه نصابَ الزكاة، فكذلك الأضحية واجبة على كل قادرٍ بوسعه أن يُضحّي، وبما أن الأضحية عبادةٌ واجبةٌ فعلى كلّ مَنْ له سعة أن يضحي؛ لأنه ما مِنْ أحدٍ يريد أن يدخل ضمن وعيد النبي ﷺ: "**فَلَا يَقْرَبَنَّ مُصَلَّانَا**"، ويُفهم من قوله ﷺ: "**مَنْ كَانَ لَهُ سَعَةٌ**" أن المجتمع يشمل القادرَ وغير القادر، وعلى ذلك فلا بدّ ألا ينسى القادرُ حقَّ الفقير في النعم التي أنعم الله عليه بها، وأن يرعاه وينظر إليه بعين الشفقة والرحمة؛ يعني أن على المضحّي ألا يضنّ بلحم أضحيته على مَن هم أدنى منه في مستوى المعيشة.

وفي آية أخرى يحضّ ربنا ﷻ المؤمنين على الإنفاق ممّا يحبون، فيقول: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٩٢/٣)؛ ومن ثمّ فعلى الإنسان أن يختار أضحيته التي ستكون مطيّته في الآخرة من الأضاحي السمينة، وفي الواقع لا بدّ أن تتوافر في الأضحية بعضُ الشروط كألّا تكون الأضحية عمياء أو عوراء أو عرجاء أو كسير(٥١)؛ لأن الإنسان سيتمثّل له في الآخرة كلُّ شيءٍ فَعَله بأشكاله الخاصة في عالم المثال، فنحن لا علم لنا بما يجري في العالم الآخر، ولا يمكننا أن نتصوّر ما هنالك، ولا نعرف كيف

(٤٩) علمًا أن الأحناف غايروا بين "الواجب" و"الفرض" فقالوا في تعريف الواجب هو: ما ثبت طلبه من الشارع طلبًا جازمًا بدليل ظنيّ كصلاة الوتر والأضحية، ويميزون بينه وبين الفرض، لأنهم يقولون إن الفرض ما ثبت طلبه من الشارع طلبًا جازمًا بدليل قطعيّ كالزكاة. (**الناشر**)

(٥٠) السرخسي: **المبسوط**، ٨/١٢.

(٥١) انظر: **سنن أبي داود**، الضحايا، ٥-٦؛ **سنن الترمذي**، الأضاحي، ٥.

ستتمثّل لنا هذه الأشياء في الآخرة، ولكن ربّما ستتمثل أمامنا كطائرة أو سفينة أو زورق أو فرس أصيل، ولكن إن نظرنا إلى المسألة من حيث سعة رحمة الله تعالى وصِدْق وعده يمكننا أن نقول إن كلّ هذا سيتمثّل لنا لا محالة ولكن نحن لا نعرف كيفيته.

وقد روت أمنا السيدةُ عائشة رضي الله عنها أن سيدنا رسول الله ﷺ ضحّى، ووزّع ثلثي أضحيته، وأبقى ثلثها حتى لا يحرِم منها أهلَ البيت[٥٢]، فهذا هو المعيار بالنسبة لمَن يريد أن يتّبع السنة في توزيع أضحيته، ولكن إن كانت الأضحية عن كل فردٍ من أفراد الأسرة فالأمر يختلف حينذاك؛ فمثلًا يمكن لربِ الأسرة أن يَدَع لأهله أضحية من هذه الأضاحي، أو يترك نصفها أو ثلثها، ويوزّع الباقي، وبهذا التقسيم لا يحرِم الإنسانُ مَنْ حوله من لحم أضحيته، ويؤدي في الوقت ذاته حقّ نظر الآخرين إليها، وبذلك تُمد يدُ العون لمَنْ يعيشون في فقرٍ وعوز، وتُلبَّى احتياجاتهم الرئيسة، وتُقام جسور المحبة والشفقة بين الطبقات والمجتمعات كافة.

أن يصير الكرمُ من طبيعة الإنسان الفطرية

وكما ذكرنا سابقًا كان الناس في فترةٍ ما في بلادنا يذبحون الأضاحي في فناء بيوتهم، ويُبقون على جزءٍ منها في بيوتهم، وما يبقى يوزِّعونه على الجيران والمعارف.. ولكن جاء اليوم الذي أصبحت فيه الأضحية لا تقتصر على المحلّة أو القرية فقط، بل توسَّعَت دائرتها؛ حتى أصبحت تصل إلى العديد من ذوي الفاقة، وتعهّد القادرون بالقيام بهذا الأمر، وأخذ البعض بعد ذلك لا يكتفي بذبح أضحيةٍ واحدة، أو اثنتين أو ثلاثة، حتى وصل العدد إلى عشرة

(٥٢) صحيح مسلم، الأضاحي، ٢٨؛ سنن أبي داود، الضحايا، ٩-١٠.

وعشرين وثلاثين أضحية، وهذا في الوقت ذاته يعبّر عن أنّ شعور الكرم قد نما عند الإنسان، وصارت فكرة الإنفاق جزءًا من فطرته، كما أن القيام بهذا الأمر أمام الأعين كان سببًا في تشكيلِ عنصرٍ من التشويق لدى الناس، وهكذا بدأت رعاية الفقراء في كل أرجاء الدولة عن طريق الأضاحي، ولما رأى أصدقاؤنا أن الأمر قد استتبّ في الدائرة القريبة عمدوا هذه المرة بفضلٍ من الله وعنايته إلى توسيع دائرة هذا العمل الذي بدأ لأول وهلة كبذرة صغيرة، امتدت فروعها واتسع نطاقها فشملتْ مساحة عظيمة، حتى كادت هذه الأرواح الفدائية تصل إلى كلّ دول قارة إفريقيا؛ حيث إن الفقر يهيمن بصورةٍ بالغة على دول تلك القارة، ومعظم سكانها لا يذوقون اللحم، ولو مرة في السنة، فلما تعرّف أصدقاؤنا إلى أحوال هؤلاء تعهّدوا بذبح الأضاحي وتوصيلها إليهم وتقديمها لهم بروحِ الإيثار.

ثم بدأ هؤلاء الأشخاص الفدائيون يذبحون الأضاحي في كل بقعة من الأرض وليس في إفريقيا وحدها، ويوزّعونها على أهالي الأماكن التي نزلوا بها؛ حتى راقت مثل هذه الخدمة لهؤلاء الناس الذين تختلف ثقافاتهم ومفاهيمهم عنا، فلقد كان ذبح الأضاحي وطهيها أو توزيعها على الناس دون طهيها شيئًا جديدًا لم يألفه هؤلاء الناس ولم يسمعوا به، فمثل هذا الأمر لا وجود له في حياتهم. أجل، كان هذا الأمر بمثابة صوت ونفَس جديدين في تلك البلاد التي تهيمن عليها مشاعر المصلحة والنفعية، ولكن عن طريق الأضحية أدرك الناس هنالك قِيَمَنا الجميلة، وتعرّفوا على سخاء الإسلام، وسماحة المسلمين وروح الإيثار، وفي النهاية أخذوا يشعرون بألفةٍ ومودةٍ مع مقوماتنا الأساسية.

وإنني أرى أنّ مثل هذه الفعاليات التي تحققت في دنيا العولمة تُعدّ وسيلةً مهمّة لإقامة جسور المحبة والحوار بين الثقافات المختلفة، ولقد وصلت هذه الفعاليات إلى مستوى معين من العلو والارتقاء، ولكنّ الاكتفاءَ بما هو موجود إنما هو من ضعف الهمة، إذ ينبغي أن يكون هدفُنا هو تجاوزَ المستوى القائم دائمًا والارتقاءَ إلى ما هو أعلى وأعلى.

وثمة جانبٌ آخر للمسألة وهو: لا بدّ من تغيير صورة الأعمال التي نقوم بها كلّ عام، بأن نضفي عليه ألوانًا أخرى وزخارف مختلفة؛ حتى نُغري الآخرين ونستهويهم إلى هذا الأمر أيضًا.. فمثلًا علينا مع توزيع الأضاحي أن نقيم مخازن ومستودعات نجمع فيها الألبسة والأشياء الفائضة عن الحاجة، ثم نذهب بها إلى الفقراء والمحتاجين في هذه الدول ونوزّعها عليهم؛ لأن هناك أناسًا بالدول التي نسافر إليها ليس عندهم ما يكفيهم من اللباس، وإذا ما أمعنتم النظر إلى هذه الدول وجدتم في ناحيةٍ منها ناطحات سحاب، وألفيتم في ناحيةٍ أخرى أناسًا يعيشون في حالةٍ أسوأ من سكان العشوائيات عندنا، فالقطرة من المساعدة تمثّل للمحتاجين -الذين يعيشون في البلاد الفقيرة لا سيما القارة السوداء- شيئًا كبيرًا.. ولذا علينا أن نضفي على مساعداتنا ألوانًا أخرى وأبعادًا مختلفة حتى نجعل البسمة تعلو وجوه هؤلاء الناس؛ لأن سعادتهم هي وسيلة لسعادتنا أيضًا.

وليس بوسعنا أن نعرف ما يعدّه الله لنا من جراء هذه الجهود المبذولة، ولا أن نطّلع على أبواب الخير الأخرى التي يمكن أن يفتحها لنا، ولذا علينا أن نُغيّر من نمط مساعداتنا، ونُجري عليها

بعض التعديلات، ونقوم ببعض الإسهامات المبتكَرة، وأن نعمل على إحياء وإعمار قلوب هؤلاء الناس على الدوام، ثم الله يفعل ما يشاء، وكما يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "على المرء أن يؤدي واجبه ولا يتدخل بتدبير الله سبحانه وقَدَره"(٥٣).

مفاجآت تأتي مع الأضحية

في الواقع لا بدّ وأن يكون الأساسُ في العبادات والطاعات استهدافَ القرب من الله سبحانه وتعالى، وأداء العبادة من أجل الله، والإخلاص فيها، فيجب على الإنسان أن يركّز على هذه الغاية في حياته، ولا ينشغل بسواها، ومن ثم فلا بدّ عند أداء شعيرة الأضحية من سلامة النية التي هي قصد القلب، وأن يتحرّى الإخلاص في عمله، ويقول: "اللهم إنك أمرتني أن أنحرَ فأطعتُ، ولو أمرتني أن أضحي بنفسي ما تأخرتُ، ولضحّيت بها عن رضا وطواعية، وإن استدعت الحاجةُ أن أُشكّل جبهةً للدفاع عن ديني وشرفي ونفسي ومالي ودولتي فأنا على استعدادٍ وتلهُّفٍ للقيام بذلك"، بمعنى أن الإنسان عليه أن يتذكّر ما باستطاعته أن يُنفقه وهو يُخرِج ماله الذي هو بضعةٌ منه، انظروا إلى قول الله تعالى مخبرًا عن حال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ (سورة الصَّافَّاتِ: ١٠٣/٣٧)؛ وهو بذلك يشير إلى أنهما أدركا السرّ في عبوديتهما لربهما، واستوعبا دقّة الامتثال والطاعة للأمر الإلهي.

فلو أن الإنسان أخلص النية عند أدائه لشعيرة الأضحية فستصبح كلُّ أعماله التي تتعلق بالأضحية بمثابة العبادة، وسترجع عليه

(٥٣) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة الثالثة عشرة، ص ١٨٠.

الأعمال الأخرى التي يقوم بها في سبيل هذا العمل الخيّر بثوابٍ يماثل ثواب هذا العمل، وسيُسجّل له في دفتر حسناته كلُّ ما ارتبطَ بهذا العمل من أعمال، مثل: الذهاب إلى السوق، وشراء الأضحية، وإدخال الحبل في عنقها، وربطها بمكانٍ ما، وحملها فوق العربة، وأخذها إلى المذبح، ورعايتها بضعة أيام، وانتظار نحرها، أو الإتيان بها إلى البيت وتقديم العلف لها، ثم ذبحها، وتوزيع لحمها... إلخ.

ومن جانبٍ آخر فرغم ما يحمله الإنسان من رقّةٍ قلبية وشفقة شعورية تجاه نحرِ الذبيحة، وخفقانها، وسيل الدم منها، وغير ذلك... إلا أنه سينال ثوابًا آخر وستُكتب له في دفتر حسناته جميعُ هذه الأعمال التي قام بها رعايةً منه لدقّة الامتثال للأمر.

قد ترون كلّ هذه الأعمال صغيرةً وبسيطة، غير أنها حينما تُعرَضُ أمامكم في الدار الآخرة ستقفون مشدوهين مذهولين قائلين: "ربنا ما أعظم غناك! أخذت هذه الأشياء الصغيرة، ونمّيتها وكبّرتها وعظّمتها وشكّلتها، وجعلتها خالدةً مخلدة، وتقدّمها لنا الآن!".. ومن ثم يجب على الإنسان أن يؤدي شعيرة الأضحية بغنى نفسٍ وطمأنينة قلب، يقول ﷻ مشيرًا إلى هذا الأمر: ﴿**لَنْ يَنَالَ اللّٰهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ**﴾ (سورة الْحَجِّ: ٢٢/٣٧).

أجل، لو أن الإنسان أدّى هذه العبادة قاصدًا من وراء ذلك أن تكون وسيلةً للصلة والقرب من الله والتعامل معه فستعود عليه يوم القيامة بالخير الجزيل والمفاجآت التي لا قِبَلَ له بها.

القيم المقدسة والأعين الساهرة

سؤال: جاء في حديثٍ شريفٍ أن هناك عينين لا تمسّهما النار؛ أحدهما عينٌ باتت تحرس في سبيل اللّه، فكيف يمكننا أن نفهم معنى هذه الأعين الساهرة التي أشار إليها الحديث الشريف في ظلّ ظروفنا الراهنة؟

الجواب: الأعينُ الساهرةُ لغةً هي الأعينُ التي تظلُّ متيقّظة على الدوام ولا تعرف طعمَ النوم.. ويُطلق هذا اللفظُ اصطلاحًا على الأبطال الذين يرابطون على ثغور الدولة وهم في كامل اليقظة والانتباه؛ حتى لا يتسلل أيُّ خطرٍ إلى الداخل؛ إنهم الذين يرابطون حتى الصباح دون أن يغمَض لهم جَفنٌ، وحالهم يقول: اللهم إنا نستعيذ بك من أن يلحق الضررُ بدولتنا وجيلنا ونفسنا ومستقبلنا وأرضنا ولوائنا، وسائر ما لنا".. ولقد بشّر النبي صلوات ربي وسلامه عليه هذه الأعين الساهرة بقوله كما ورد بالسؤال: "**عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ**"(٥٤).

الخطر الكامن في الداخل والكشف المبكر عن هويته

والحقُّ أن ذلك البيان النبوي يُعدّ بمثابة مكافأة وعطيّة لذلك الإنسان الذي كان يُرابط على حدود دولته في ظلّ الظروف آنذاك. أجل، لقد كان هؤلاء يبيتون على الثغور دون أن يغمض لهم جفن

(٥٤) سنن الترمذي، الجهاد، ١٢.

في سبيل حماية دولتهم ودينهم؛ كي يكونوا محلًّا لهذا الثناء والمدح النبوي، غير أن المخاطر التي تُحدِّق بديننا وشبابنا ودولتنا وغايتنا العظمى اليوم قد اكتسبت بُعدًا آخر، فثمة مخاطر وتهديدات تسربت إلينا كما يتسلّل الجاسوسُ وأخذت تعيش بيننا.

أجل، لقد وضعَ أعداؤنا برامج وخططًا بديلةً لهدم ديننا وقيمِنا التي ورثناها عن الماضي، وسرّبوها إلينا تحت غطاء النفاق؛ حتى كدنا نترقّب كثيرًا من التخريبات والتدميرات الخطيرة ونخمّن وقوعَها في كلِّ آن.

ويمكن أن نُدرج في قائمة الأعين الساهرة هؤلاء الذين يشعرون بالهم والقلق إزاء هذه الأخطار، والذين يدعون ربهم في أنين وتأوّه قائلين: "اللهم إنا نستعيذ بك من أن تُنتهك حرمة دولتنا وغايتنا وأمتنا وديننا وتديّننا"، والذين يبيتون في تيقُّظٍ دائمٍ ولا يغمض لهم جفنٌ حتى لا ينهدم صرحُ روحنا من جديد.

ونظرًا لأن هذه الأعين تظلّ دائمًا في حيطة وحذر؛ فإن بصرَها الثاقبَ يقعُ على الخطر مبكّرًا، وتحاول أن تتصدّى له، فلا يقيمون سورًا واحدًا كتلك القلاع القديمة، بل عديدًا من الأسوار التي من شأنها أن تشلّ حركة أيِّ خطرٍ قادم.

أجل، إنهم يُقيمون أسوارًا ضد هذه المخاطر؛ حتى إذا ما همّ المعتدون بتدمير أحدها فوجئوا بسورٍ آخر، فإن أتوا عليه أيضًا وُوجِهوا بسورٍ ثالث، وهكذا حتى يصلوا إلى سورٍ منيعٍ لا يمكن اقتحامه حينذاك.

العيون النائمة والمجتمع المُسيَّس

وأستعيذُ بالله من الطعن والتشنيع بالآباء والأجداد؛ لأن نبيَّنا صلوات ربي وسلامه عليه قد أوصانا بذكرِ محاسن موتانا والكفّ عن مساويهم(٥٥)؛ ولذا علينا أن نعمل على ذكر محاسنهم قدر المستطاع، ومع ذلك لا أستطيع أن أنتقل من هذه النقطة دون أن أنوّه بحقيقة مهمّة، وهي أننا انزوينا على أنفسنا فترةً ما؛ فتسلّم غيرُنا زمامَ أمرِنا، ولما استسلمنا للنوم والغفلة والاستكانة بسطَ الآخرون سلطانَهم ونفوذَهم علينا.. نعم، إننا لم نضع برامج وخططًا للانفتاح على العالم فليس ثمة خطة واحدة طويلة الأجل لهؤلاء المدّعين الذين يترنمون بالملاحم الحماسية لأمتنا!

لقد استسلمْنا في هذه الفترة، وانزوينا عن العالم متّجهين نحو الدعة والخمول؛ ما أصابنا بشللٍ في انفعالاتنا وأحاسيسنا ومشاعرنا الحماسية الحقيقية.. فلو أدركنا هذه المخاطر في وقتٍ مبكّر، وكنّا أصحابَ أعين ساهرة، وأخضعْنا كلَّ شيء للتجديدِ مرة أخرى لاتّخذنا التدابير اللازمة، ووضعنا أسوارًا أمام هذه المخاطر التي تتسلّل إلينا، ولو كنا فعلْنا ذلك لَما تعرّضْنا في النهاية لمثل هذه العاقبة الوخيمة.

أجل، لو أحسَنَّا قراءة ما حولنا والعالمِ الذي نعيش فيه؛ والأهم من ذلك لو أقمنا حواجز بديلة لدحر هذه المخاطر؛ لكان الوضع مختلفًا عمّا هو عليه الآن.

وبدهيّ أن خلايا الشرّ التي تُفكِّر في الشرّ وتخطّط له لا تكفّ أبدًا عن تصدير شرورها رغم ما نقوم به من مساعٍ لإيصال القيم

(٥٥) **سنن الترمذي**، الجنائز، ٣٤؛ **سنن أبي داود**، الأدب، ٥٢.

التي انبثقت عن جذورنا الروحية والمعنوية إلى البشرية جمعاء، فالعالم في غليان كبير، حتى إن الناس في بعض الأماكن قد حاولوا الإطاحة بحكّامهم المستبدين، ولكن يجب ألا ننسى أنه لو شاع في المجتمعِ شيءٌ من التفسّخ والتشوّه فعلينا أن نضع في حسباننا السبلَ والمناهج التي تُمَكّننا من تصحيح هذه الأوضاع؛ فلا يمكننا إصلاح وتقويم الناس خلال لحظة واحدة، ولا جرم أن الأخذ بأيدي هؤلاء الذين ابتعدوا عن الدين فترةً مديدة وانغمسوا في الحياة العلمانية يحتاج إلى بعض الوقت؛ حتى يتسنى لهم أن يدرسوا أنفسهم دراسة صحيحة؛ ولذا فعلينا أن نعيد النظر في جميع البرامج والخطط الموضوعة من أجل الإصلاح؛ لا سيما إن كانت المسألة مسألةَ إيمان، وتربيةَ نَشءٍ يقوم على أرضيةٍ فكريّة وأخلاقية سليمة، فإن تعذّر علينا حلُّ هذه المشاكل أخذ الشيطان "مفستو"[٥٦] يحيك مؤامراته مرة أخرى، وسقطت البشرية في حبائله كرّةً ثانية.

لا يتأتّى النظام من الفوضى والاضطراب

أجل، كثيرًا ما لا تُؤتي الثورات التي تقوم في مجتمعٍ ما أُكُلَهَا؛ إن لم يتمّ عملُ ما يلزم لها، ربما يضطلع الكثيرون بهذا الأمر بحسن نيّةٍ منهم، ولكن ليس بمقدورنا أن نجزم بالنتائج التي تسفر عنها هذه الأحداث العشوائية؛ ولذا تزداد مخاوفي وقلقي من هذه الحركات والأعمال التي تسيطر عليها العشوائية.. ولنرجع إلى موضوعنا الأصلي ونقول: إن هذا كله يرجع إلى غياب الوعي وعدم القدرة

(٥٦) "فاوست (*Faust*)" بطل المسرحية المشهورة المسماة "فاوست" للشاعر الألماني الكبير "جوته (١٧٤٩-١٨٣٢م)"، يمثِّل فاوست شابًّا وقع في شباك الشيطان الذي يمثله في المسرحية نفسها "مفستو (*Mefisto*)". **(الناشر)**

على استيعاب الأحداث، وتقييمها من غير رويّة.. من هنا فإن الأعين الساهرة في المجتمع هي تلك الأعين التي تفطن إلى كلِّ هذا مسبقًا، وتتخذ التدابير وفقًا لذلك..

إذًا فإن أهم وأوّل قضية لا بدّ من حلّها لإصلاح أيِّ مجتمعٍ: هي إقامة روح الإيمان لدى الفرد مجدّدًا، وإعادة صياغته مرة أخرى.. وبعبارةٍ أخرى: إن كان لا بدّ من تحقيقِ تغييرٍ حقيقيّ فلا بدّ من تناول المسألة بكلِّ جوانبها، فكما أن الجسدَ لا يستطيع أن يقوم بوظائفه على الوجه الأمثل إلا بوجود الحيوية في جميع أعضائه فكذلك إصلاح الحياة الاجتماعية يستلزم تناول هذه الحياة بكل جوانبها، فإن تجاهلتم ثغرة واحدة من الثغرات الواجب سدّها؛ هويتم على الأرض من فوركم دون وعيٍ أو شعور، وكأنَّ بكم عضوًا ما قد أُصيب بالشلل.

أجل، إن لم تُقيّموا الأحداث بمنطقٍ سليم ومحاكمةٍ عقلية، وحكمةٍ وبصيرة، ولم تُخططوا لأعمالكم وحركاتكم وفقًا لهذا فلا شك في وقوع فوضى واضطرابٍ من جراء الأعمال والحملات التي تقومون بها.

ولذا علينا أن نُفكِّرَ بعمقٍ في كلِّ هذا ونقول في أنفسنا: ماذا، وكيف يجب أن نعمل؟ وما المخاطر التي تحيق بديننا وتديّننا وجيلنا ومستقبلنا؟ وهل حققنا الأمان في الطريق الذي نسلكه؟ وهل ثمة احتمالية من مواجهة المشاكل في الطريق الذي نسير فيه؟

وهكذا يمكننا أن نعمّم مصطلح الأعين الساهرة على كلّ هذا، وأن نتناوله بشكلٍ أكثر شمولية.. وعلى ذلك يمكن القول: كما

أن النار لن تمسّ الأعين التي تبكي من خشية الله ليل نهار فكذلك لن تمسّ النارُ أيضًا الأعينَ الساهرة المتيقّظة المهمومة التي تتوقُ إلى القيام بما يلزم في سبيل دحر الحملات التي تستهدف المجتمع ودينه وتديّنه وقيمه المنبثقة عن أعرافه وتقاليده.

قد تعتلج الإنسانَ الهمومُ بسبب علله الشخصية أو مشاكله الأسرية، وقد تتسع الدائرة فيعاني ذلك الإنسان همومًا خاصة بمحلّته وبلدته ودولته.. فهذه الهموم التي يشعر بها الإنسان هي من مقتضى فطرته، لكن الهمّ الأكبر -الذي يتجاوز هذا كله- هو انشغال الإنسان بمشاكل البشرية جمعاء، والبحث عن حلول لها، وفتح قلبه وصدره للإنسانية بأسرها.. فلو أن الإنسان ارتأى ضرورة أن تنعم الإنسانيةُ كلها بالأمن والسعادة المادية والمعنوية الدنيوية والأخروية، وقام وقعد بهذه الأفكار، وعانى من الهمّ والقلق بسبب هذا؛ فإنني أحسب أن النوم سيجافي عينيه، ولن ينعم بالراحة وإن رقد بفراشه ليلًا.. وخاصة إن لم يستطع أن يجد حلولًا للمشاكل والنوازل، أو أنه تَعسَّر عليه إعداد خططٍ بديلة لحلِّها؛ فمن المحتمل حينذاك أنه سيدفع اللحاف عنه، وسيظلّ يتجوّل في الممرّات ليلًا كالمجنون.

أجل، إن مثل هذا الهمّ سيطردُ النومَ من عينيه، ويدفعه إلى أن يكون عينًا ساهرة.

ومن المفيد أن نذكر أن مبعث هذا الهمّ هو الإيمان بالله؛ بمعنى أن الإنسان عليه أن يتوخّى نهج النبي ﷺ ويشعر في قرارة نفسه بالمعنى الحقيقي للجنة والنار؛ حتى يتسنى له أن يشعر بمثل هذا الهمّ.

إن مثل هذا الإنسان الذي يطفح صدره بالهمّ قائلًا: ليتني أستطيع أن أحتضن جميعَ الإنسانية، وأبثّ القيمَ التي أحملها في قلوبهم أيًّا كان مستواهم، وأفرّغ إلهامات روحي في صدورهم؛ من شأنه أن يقوم ويقعد بهذه الأفكار وينشئ الخطط ويضع الإستراتيجيات.. حتى إنه -سامحوني- ينشغل حتى في وقت الاستبراء بحلّ المشاكل العالقة بذهنه، فإذا ما خطرت بباله فكرةٌ أسرعَ بتسجيلها، أو اتصل هاتفيًّا على الفور بالمعنيين بهذا الشأن، وشاورهم في الحل الذي توصل إليه.. بل قد تقطع عليه الوضوءَ وصلاةَ النافلة فكرةٌ جالت برأسه فجأة؛ لأنه يتعامل مع جروح المجتمع المختلفة كطبيبٍ حاذق، فهو يقوم ويقعد وذهنُه مشغولٌ بإيجاد فكرة صائبة.

إن ذلك الإنسان المهموم إذا ما رأى عدم جدوى الوصفات العلاجية التي يستخدمها لمعالجة الأسقام والأمراض أمامه أخذ يفكر في وصفة علاجية أخرى، فإذا ما دار بخلده حلٌّ قال: يا ترى! هل من الممكن أن يصلح هذا لعلاج أسقام هؤلاء، وسرعان ما يضع هذا العلاج موضع التطبيق.

وهكذا يطرُدُ مثلُ هذا الهمِّ النومَ من عين الإنسان، ويجعله يدور هنا وهنالك كالمجنون.

مهام المسجد

سؤال: ما هي مهام المسجد في عصر السعادة؟ وما الأمور التي لا بدّ أن نراعيها حتى يتسنى لنا إعادة صياغة مساجدنا في الوقت الحالي على نفس الروح التي كانت عليها في عصر السعادة، وذلك من الناحية المعمارية، ومكانتها في الحياة الاجتماعية؟

الجواب: يُطلق على هذه الأماكن المباركة أحيانًا "الجامع"؛ أي الذي يجمع الناس ويحشدهم، وأحيانًا أخرى "المسجد"؛ أي مكان السجود أو موضع السجود، ولكن لا يُطلق عليها "المركَع" أي المكان الذي يُركع فيه، أو "المقام" بمعنى المكان الذي يُقام فيه؛ ورغم أن الركوع والقيام يُعدان ركنين أساسيين في الصلاة فإنه لا يمكن مقارنتهما بالسجود الذي يُعبر عن أشد حالات القرب من الله سبحانه وتعالى.. وفي هذا يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**"[٥٧]؛ لأن السجود يجتمع فيه أمران؛ أحدهما: الدلالة على كبرياء الله تعالى وعظمته، وثانيهما: أن الإنسان يعبّر من خلاله عن صِغره ومذلّته، فإذا ما تضافرَ هذان الأمران تجلّت أعظم حالات القربِ من الله تعالى.

أجل، لو أن العبد وضع جبهته على الأرض في تواضعٍ ومحوٍ وخجلٍ، واجتهد في أن يدسّ رأسه في التراب -إن أمكن- حصل

(٥٧) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٥؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٨.

القرب من الله تعالى.. وهذه الحالة يمكن التعبير عنها بهذه الكلمات:

الرأس والقدم على السواء.. والسجادةُ تلثم الجبهة الغراء
هذا سبيلك أيها الإنسان.. لترقى وتقترب من ربك المنان(٥٨)

وانطلاقًا من هذه النقطة يمكننا أن نقول إن المسجدَ هو ذلك المكان المبارك الذي يتحرّر فيه الناس من غربتهم، ويهرعون إلى القرب من ربهم، ويعتبرون هذا القرب إكسير حياتهم؛ ولذا نراهم يركضون على الدوام؛ حتى يُفرغوا ما في أرواحهم ويُنفِّسوا عن مشاعرهم، ويشحنوا فيه طاقاتهم.

المشاكل التي يُفصَل فيها في كنفِ المسجد

وكما ذكرنا سلفًا وانطلاقًا من المعنى اللغوي للجامع فيمكننا أن نستخدم لفظ الجامع لذلك المكان الذي يجتمع به الناس ويحتشدون، ولكننا إن قصرنا اجتماع الناس هذا على أداء الصلاة مع الجماعة فحسب؛ فهذا يعني أننا ضيّقنا محتوى المسألة؛ والحال أن علينا أن نتناول خاصّية الجمع هذا في إطارٍ أوسع، ولا ريب أننا بحاجةٍ إلى النظر بداية إلى عصر صدر الإسلام حتى يتسنى لنا فهم هذه الخاصية وإدراك مهام المسجد المختلفة على نحو أفضل.. فإذا ما نظرنا إلى ذلك العصر الذهبي لألفينا الرسول الأكرم ﷺ يجتمع بالصحابة الكرام رضي الله عنهم في المسجد لأغراضٍ شتى مثل: تبليغ الرسالة، والتشاور حول بعض المسائل، وإنفاذ القرارات، ووضع حلول للمشاكل الواقعة.. من أجل ذلك يمكننا أن نعتبر الجامع مكانًا يجمع الناس للصلاة وتحلّ فيه العديد من القضايا الإسلامية..

(٥٨) فتح الله كولن: "**ريشة العزف المكسورة** (*Kırık Mızrap*)"، ص ٣٨٢. (ديوان شعري جمع فيه جملة ما كتبه الأستاذ فتح الله كولن من قصائد وأشعار، لم يترجم بعد) (الناشر)

أجل، إن هذا المكان المبارك كان يقوم حسب الحاجة بوظيفة الكتّاب والمدرسة والتكيّة ودار العبادة، فضلًا عن ذلك فالجامع هو ذلك المكان المبارك التي يجتمع فيه الناس لأداء سنّة الاعتكاف، والتجرّد من الأهواء النفسانية والجسمانية، أو كما يقول الأستاذ النورسي رحمه الله؛ "ينسلّون من الحيوانية، ويدَعون المادية، ويدخلون مدارج حياة القلب"[٥٩]، ويواصلون سياحتهم في هذا الفلك.. وعلى ذلك فالجامع ليس مكانًا مخصّصًا للرجال فحسب، بل هو متاحٌ للنساء أيضًا طالما رُوعيت الأصول والآداب، وسَلِم الجوُّ العام؛ لأن المسجد في عصر السعادة كان متاحًا للرجال والنساء على السواء.

ولو أردنا شرحَ هذه الأمور بمزيدٍ من التفصيل نقول: كانت تُعقد في المسجد النبوي حلقاتٌ يجلس فيها الصحابة الكرام رضي الله عنهم يذكرون **الله** سبحانه وتعالى بمختلف أسمائه الحسنى وصفاته العليا، كما كانت تُقام في المسجد المجالس العلمية، وعلى رأسها مجلس سيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلم؛ فكان كل من يأتي إلى المسجد من الخارج ينضمّ لهذا المجلس.. كما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقف في مكانٍ يستطيع الجميع رؤيته من خلاله بارتياحٍ، والحقُّ أن رؤيته صلوات ربي وسلامه عليه تكفي وحدها لحصول الانشراح في النفوس، لأن في الصحبة النبوية انصباغًا بصبغة الحقيقة.

أجل، كان النبي صلى الله عليه وسلم يتّسم بالجدّيّة والوقار، كما كان له حالٌ خاص مع ربه؛ حتى إن الإنسان الذي لا يحمل حقدًا ولا غلًّا لأحد إذا ما رآه أسرع بالإذعان له على الفور، وقال: أشهد أنك

(٥٩) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة الرابعة عشرة، ص ١٨٨.

رسول الله(٦٠)، وقد كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يُدركون هذا، ومن ثم كانوا يَتُوقون دائمًا إلى مشاهدته، وإمعان النظر فيه، ويترقّبون نظرات عينيه.. كما كان النبي ﷺ بدورِه يفرغ إلهامات قلبه الطاهرة إلى هؤلاء الذين يتطلّعون له ويتوجهون إليه، ويوليهم أهمية بالغة، فقد جاء في الحديث أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ، فَلَمَّا وَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَلَّمَا، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فَرَأَى فُرْجَةً فِي الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: "**أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلَاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ**"(٦١).. ففي هذا الحديث وقّر النبي ﷺ ذلك الصحابي الذي اجتاز كلّ الحواجز وحاول جاهدًا أن يصل إلى الحلقة، كما وصفَ الثانيَ الذي اكتفى بالجلوس خلف الحلقة بضعفِ الهمة، أما الثالث الذي غادر المكان لأنه لم يجد فسحة في الحلقة فقال عنه ﷺ "**فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ**".

الوفود الأجنبية التي كان يستقبلها المسجد النبوي

إضافة إلى هذا كان النبي ﷺ يستقبل الوفود في مسجده؛ إذ كانت الوفودُ تقدم من كل الأنحاء لرؤيته والاستماع إليه وفهمه والنظر في أحواله، ورغم أنه ﷺ أعلن المدينة حرمًا فقد كان يستقبل فيها السفراء والوفود، وكما ورد في كتب الصحاح استقبل النبي ﷺ في مسجده نصارى نجران، فأقاموا في المسجد النبوي أيامًا يأكلون ويشربون

(٦٠) انظر: سنن الترمذي، القيامة، ٤٢؛ سنن ابن ماجه، الإقامة، ١٤٧.

(٦١) صحيح البخاري، العلم، ٨، الصلاة، ٨٤؛ صحيح مسلم، السلام، ٢٦.

وينامون ويقومون ويقعدون ويؤدون عبادتهم؛ وبذلك أتيحت لهم الفرصة للتعرّف أكثر على نبينا ﷺ والاطلاع على ليله ونهاره، ورغم أنهم لم يتخلوا كلّيةً عن أفكارهم الثابتة وأحكامهم المسبقة فإن سيدَ الأنام محمدًا ﷺ استغلّ هذه الفرصة جيّدًا، فاستطاع أن ينفذ إلى قلوبهم، ويُلَيّنها لدرجةٍ ما إزاء الإسلام؛ لأننا في النهاية نجد أن النبي ﷺ لما دعاهم إلى المباهلة، وقال كما جاء بكتاب الله تعالى: ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/٦١)، خَافُوا وَمَا شَرَعُوا فِيهَا وَقَبِلُوا أَدَاءَ الْجِزْيَةِ[٦٢]، وبعد ذلك ذابوا -كما يقول بديع الزمان النورسي- في الحوض الكبير للإسلام.

وكما رأينا فقد كان للمسجد وظائف واسعة في عصر صدر الإسلام؛ فلقد كان يُعلّم فيه القرآن والسنة، وتوضع فيه أسس علم الفقه من خلال الاجتهادات والاستنباطات، كما كان يُصاغ فيه الفكر الإسلامي المهيأ للانكشاف والتطوّر في المستقبل؛ فالقطرة فيه تُصبح بحرًا، واللّمعة فيه تصير شمسًا، غير أننا مع الأسف أغلقنا أبواب هذه المساجد، واكتفينا بفتحها لأداء الصلوات الخمس فقط.

الفلسفة المعمارية الصالحة للجميع رجالًا ونساءً

إنني شخصيًّا أحمل كلَّ تقديرٍ وتبجيل لكلِّ ما قام به أجدادُنا رحمهم الله؛ فقد أَسْدَوا خدمات عظيمةً عبر العصور للإسلام والمسلمين، ولكنني أرى من القصور أنهم لم يفكروا في أن يكون في مساجدنا أماكن خاصة خالصة للنساء تتوافق مع خصوصيّتهنّ؛

(٦٢) الرازي: **مفاتيح الغيب**، ٨/٧١؛ الزمخشري: **الكشاف**، ١/٣٩٦.

لا يتعرضْن فيها لأعين الرجال، أو يخشين على أنفسهن الوقوع في الحرام، ويتحرّكن فيها في راحة وأمان؟ ولِمَ لَمْ تُنشأ أماكن خاصة لاعتكاف النساء في ناحيةٍ من المسجد، محاطة بسياجٍ من الأمان والخصوصية؟!

أجل، لِمَ حُرمَت النساء من هذه الأماكن وما شابهها؟ لقد كانت النساء في عصر السعادة يقفن في الصلاة خلف الرجال(٦٣)، وإننا هنا لا ندّعي أننا أكثر دقّة وحساسية في مسألة معايشة الدين من سادتنا الأطهار رضي الله عنهم الذين كانوا يعيشون في عصر السعادة؛ معاذ اللهِ، وإن شوارعَنا وأسواقَنا التي تجري فيها النجاسات والأرجاس، وعالَمَنا القلبي والروحي الذي اسودّ لكثرة ما يحمله من سلبيات ونجاسات ليكفيان في الدلالة على الحالة التي وصلنا إليها.

أجل، إنني أعتبر من القصور في قيام المسجد بوظيفته الكاملة ألّا يلبّي احتياجات النساء بكلّ جوانبها.

إذًا فلنجعل الجماليات الساحرة التي تحويها مساجدنا في وضعٍ خليقٍ بمشاهدة الجميع لها بما في ذلك الأجانب حتى تُتاح لهم فرصة مشاهدة روائع هذه الأماكن المباركة والنواحي الجمالية التي تَبهَر الألباب فيها؛ وحتى يتحقق هذا لا بد أن نهيّئ المجال الذي يمكن من خلاله مناقشةُ ومدارسةُ أيِّ الفلسفات المعمارية التي تبنى عليها مساجدنا، وأيّ المعاني التي تعبّر عنها القباب والمُقرنَصات والنقوش والرسوم.

(٦٣) صحيح مسلم، الأذان، ١٣٢؛ سنن الترمذي، الصلاة، ٥٢؛ سنن أبي داود، الصلاة، ٩٧.

آداب الذهاب إلى المسجد والمكث فيه

ثمة آية كريمة في كتاب الله تعالى تشير إلى ضرورة أن تظلّ مساجدنا وجوامعنا مفتوحةً أمام الجميع، يقول تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ٣١/٧)، ولو لاحظنا فقد استخدَمَ القرآنُ الكريم أسلوبَ الخطاب: "يَا بَنِي آدَمَ"، وعدل عن استخدام أسلوب: أيها المسلمون، أيها المؤمنون، أيها المصلّون.. ويمكننا أن نفهم من ترجيح القرآن لهذا الأسلوب وإسناده إلى سيدنا آدم عليه السلام أن القرآن يشير إلى ضرورة أن نفتح أبواب مساجدنا لغير المسلمين أيضًا؛ فلعلّ بعض من يحملون أفكارًا مسبقة حول ديننا وتديُّننا وجوامعنا ومساجدنا يتخلّون عن هذه الأفكار بعد دخولهم مساجدنا واغتباطهم بما فيها مع مرور الوقت، فيهيمون عشقًا لهذا المكان الجميل، ويذوبون في جوّه الدافئ المحتضِن للجميع.

ثم ترشدنا الآية إلى أن نعتني بمظهرنا عند ذهابنا لمساجدنا التي هي محالّ لاجتماعاتنا.. وبتعبير اليوم فإن الإنسان إذا ما أراد أن يذهب لاجتماعٍ ما فلا يذهب بلباسِ عمله، وإنما يعدّ للأمر عُدّته.. وعند النظر إلى الأحاديث الواردة حول صلاة الجمعة خاصة سنجد أنه تمّ تناول الأمر بمزيدٍ من العناية والدقة.. فلقد أوصى النبي ﷺ المسلمين عند ذهابهم لأداء صلاة الجمعة أن يغتسلوا ويستنّوا ويمسّوا الطيب، ويتخذوا لهم لباسًا خاصًّا للجمعة[٦٤].

ويمكننا أن ننظر إلى المسألة من ناحية أخرى؛ فقد جاء في الحديث أن نفرًا من الأعراب دخلوا المسجد النبوي وعليهم ثيابٌ

(٦٤) انظر: **صحيح البخاري**، الجمعة، ٢-٥؛ **صحيح مسلم**، الجمعة، ١-١٢.

من صوف بسبب ما يجدونه من الفاقة، فلما اشتدّ الحرّ أخذوا يتصبّبون عرقًا، فانتشرت رائحة الصوف في كل أنحاء المسجد، وعند ذلك فاضت عينا النبي ﷺ بالدموع، ودعا الصحابة رضي الله عنهم إلى الصدقة حتى يخلّصوا إخوانهم من الفاقة التي يعيشون فيها، ثم قال: "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِذَا جِئْتُمُ الْجُمُعَةَ، فَاغْتَسِلُوا، وَلْيَمَسَّ أَحَدُكُمْ مِنْ أَطْيَبِ طِيبٍ إِنْ كَانَ عِنْدَهُ**"(٦٥).

أجل، بما أن المساجد هي أماكن اجتماعاتنا فلا بدّ أن نتحاشى أن نكون على وضعٍ يثير اشمئزاز الآخرين مِنّا.. كما يجب على المؤمنين أن يتحمّلوا بعض سلبيات الآخرين التي تصيبهم بالأذى أحيانًا مثل العرق ورائحة الفم الكريهة.. ولكن من جانب آخر عليهم ألا يضطروا الآخرين إلى تحمّل مثل هذا منهم، عليهم أن يتناولوا هذا الأمر ببالغ الدقة والعناية.. وسامحوني إن قلت إن على مَن يشكو من رائحة فمه التي تتسبب في أذى الآخرين بسبب ما يشكو منه من التهاب في الحلق أو ارتجاع في المريء أن يسلك طريق العلاج دون أن يُضيّع وقتًا، وأن يجد حلًّا لهذه المشكلة، فمثل هذه الأمور المزعجة تشتت الانتباه والتركيز لدى الإنسان الذي يستغرق في العبادات وقراءة القرآن الكريم.

ولذا فعلى المسلم إن أراد أن يذهب إلى المسجد أن يلبس أجمل ثيابه وأطهرها، ويصيب الطيب إن أمكن، ويحاول أن يكون على هيئةٍ يُغبط عليها.. فمثل هذا السلوك يُعدّ في الوقت ذاته تعبيرًا عن احترامه لإخوانه المؤمنين.. من ناحية أخرى فمن غير اللائق

(٦٥) صحيح مسلم، الكسوف، ٧١؛ مسند الإمام أحمد، ٢٤١/٤ (واللفظ له).

أن تعلـو الإنسـانَ النجاسـةُ أو تنبعـث منـه رائحة كريهـة، فكأنه بذلك يسـتخفّ بالمـكان الـذي يكون فيه أقرب إلـى ربه ﷻ، مـع أنه يُصلِح مـن هندامـه عند مقابلة عظيمٍ مـن الناس.. إن الصلاة هي المثولُ بين يدي الله تعالى، كما أنها معراج المؤمن، فعلى مَن يسلك هذه الرحلة المباركـة أن يتحلّـى بأعلـى درجـات الحيطـة والحـذر، ويفعـل كلّ ما يقتضيه احترامه لربه ﷻ.

ثـم تجـذب الآيـة الانتباه إلى مسـألةٍ أخرى وهـي: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُـوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾، فمثلًا إن قال الإنسـان في نفسـه: سـأذهب إلى المسـجد كل يوم بجبّة جديدة، أو سـأكوي لباسـي كلّ يوم عند الذهاب إلى المسـجد؛ فهذا كلُّهُ من قبيل الإسـراف.. فالآية توصينـا مـن خلال الحديث عن الأكل والشـرب بأن نأخذ بالوسـطية فـي كلّ شـيء، وألا نخـرج عـن حـدّ الاعتـدال، وألّا نحيـد ألبتـة عن الصراط المستقيم.

الشيطان: ألدّ أعداء خدّام الدعوة

سؤال: ذكرتم فيما مضى أن الشيطان يتسلّط على الإنسان حسب قدره ودرجته، فما معنى ذلك؟

الجواب: الشيطان كائنٌ لا يفكّر في الخير ألبتة، منغلقٌ على الفساد كليّةً، مشحون بمشاعر السوء والشر، وقد صار ألدّ أعداء الإنسان منذ اللحظة التي عصى فيها الله تعالى.. وحتى نستوعب هذه العداوة يمكننا أن نشبِّه الشيطان بإنسانٍ -وإن كان الإنسان لا يشبه الشيطان بتمامه- على وشك الانفجار وكأنه قنبلةٌ موقوتة قد نُزع فتيلها.. أحيانًا ما تقابلون مثل هؤلاء الأشخاص في محيطكم، وليس من المعلوم ماذا عسى شخصٌ من هؤلاء أن يفعل إن لم يجد ما يأمله؛ فمثلًا قد يقلب مائدة الطعام، ويجعل عاليها سافلَها، ويُلقي بالأشواك والملاعق والأطباق والأكواب أرضًا بكل عنف، ويركل الكرسيَّ الذي أمامه بقسوة، فإذا ما وقعت عيناه على اللوحات المعلّقة على الجدار همّ بنزعِها وإلقائها أرضًا، بل ربما إن حدثْتَه في تلك اللحظة عن الحلم والأناة وَكَزَكَ ولطمَك؛ لأن الانفعالَ والغضبَ قد ذهبا بعقله، ومثل هذا الغضب هو جنونٌ مؤقّت، وعاقبتُه مصيبةٌ ما بعدها مصيبة.

إن الشيطان كائنٌ يحمل كلّ الخصالِ السيئة، ويُضمر للإنسان كلّ حسدٍ وغيرةٍ وغلٍّ وحقدٍ، وليس الغضب فحسب. أجل، إنه مشحونٌ بكلِّ الحقد للإنسان؛ لدرجة أنه لا يروي غلّته أن يغوي بني آدم جميعًا، وقد أبان صراحةً عن حسده وغيرته من الإنسان عند خلق آدم عليه السلام، فأنكر الله وعصاه وقال في وقاحةٍ: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ (سورة ص: ٣٨/٨٢)، وفي آية أخرى يكشف الشيطان عن عداوته وبغضه فيقول: ﴿**ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ٧/١٧)، ويُفهم من ذلك أن الشيطان يحاول أن يغوي الإنسان بشتى الطرق؛ وذلك بأن يزيّن للبعض الحياة البهيمية، أو يوحي إلى البعض الآخر زخرف القول غرورًا، أو يُسوّد حياة آخرين ويقنعهم باليأس من الحياة، أو يدعوهم إلى إعلان الكفرِ صراحةً.. من أجل ذلك كان النبي ﷺ يدعو صباح مساء أن يقيه اللهُ شرَّ المهالك التي قد تأتيه من شتى الجهات، فيقول: "**اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**"[(٦٦)].

وهكذا يستهدف الشيطان بدايةً مَن هم أكثر نفعًا للإنسانية حتى يُلحق أشد الضرر بالنوع الإنساني الذي يضمر له هذا القدر من العداء، ثم يُغير عليه.. وإذا نظرْنا إلى المسألة من هذه الزاوية سيتبدى لنا مدى المعقولية في أن يضمر كائنٌ خبيث مثل الشيطان مخلوقٌ

(٦٦) سنن أبي داود، الأدب، ١٠٠؛ مسند الإمام أحمد، ٢/٢٥.

من مارجٍ من نار[٦٧] العداوةَ لإنسانٍ مثل آدم عليه السلام؛ "صفي **الله**"[٦٨]، و"من المصطفين الأخيار"[٦٩].

أجل، إن العداوة التي يحملها الشيطان للرجال العظام أشدّ من العداوة التي يحملها لغيرهم؛ فعداوته لسيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام تختلف كثيرًا عن عداوته للسامري وقارون، بإيجازٍ نقول: لا جرم أن الشيطان هو ألدّ الأعداء لِمَن تقرّب إلى **الله** ويعمل صالحًا.

لجامُ الشيطان والمشردون الضائعون

ثمة كتابٌ من كتب الرقائق يسمى "تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين" لأبي الليث السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ/٩٨٥م) رحمه الله، كنت أدرّسه بِلغتي العربية القاصرة لأهل قرية "قُورُوجُقْ (*Korucuk*)" -مسقط رأسي- وعمري حينذاك ما بين الخامسة عشر والسادسة عشر.. الفصل الأول في هذا الكتاب يتعلّق بالإخلاص، ثم تليه فصولٌ أخرى تتحدث عن الجنة والنار وغيرهما، أما في الفصل الأخير فيورِد مؤلِفُ الكتاب حديثًا حول لقاء سيدنا رسول **الله** صلى الله عليه وسلم بالشيطان.. ورغم أن هذه الواقعة لم ترد في كتب الحديث المعتبرة فإن حديث علّامة كبير مثل أبي الليث السمرقندي عنها يحمل -في رأيي- أهمّيّةً كبيرة من حيث الرسالة التي يُقدمها، كما أن الواقعة وثيقة الصلة بموضوعنا هذا؛ ففيها أن رسول **الله** صلى الله عليه وسلم سأل الشيطان قائلًا: "**يَا مَلْعُونُ كَمْ أَعْدَاؤُكَ مِنْ أُمَّتِي؟**" قَالَ: خَمْسَة عَشَرَ أَوَّلُهُمْ: أَنْتَ..[٧٠].

(٦٧) انظر: سورة الرحمن: ١٥/٥٥.

(٦٨) أبو الشيخ: **العظمة**، ١٥٩٦/٥؛ الثعلبي: **الكشف والبيان**، ٥١/٦.

(٦٩) انظر: سورة آل عمران: ٣/٣٣.

(٧٠) أبو الليث السمرقندي: **تنبيه الغافلين**، ص ٦٠١.

أجل، إن لم يكن هذا الملعون الذي يدّعي أنه إلهُ الظلام عدوًّا للمعصوم ﷺ الذي أنقذ الإنسانية في انطلاقة واحدة، وقوّض أركانَ كسرى وقيصر في دفعةٍ واحدة، وأنار عوالم الناس المظلمة، فمن يا ترى يمكن أن يكون عدوًّا له![71].

ولذا فإن الذين يعملون على خدمة دين الله حسب مستوى كلٍّ منهم، وتمثيلِه بالشكل الذي يتناسب معه هم ألدّ أعداء الشيطان الرجيم.. وفي هذا الصدد يقول فضيلة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله: "إن الشياطين يُتعِبون أنفسهم ويُجهدونها مع خدّام تلك الدعوة المقدسة"[72]؛ بمعنى أن الشيطان يُجهد نفسه مع كلِّ مَن وهبَ نفسه للدين مخلصًا، وتعلّق به وارتبطَ به قلبًا وقالبًا.

ولمزيدٍ من الإيضاح أعرض عليكم هذه النكتةَ التي جالت بخاطري: مرّ رجلٌ من أهل الدنيا، أو رجلٌ لا قِبل له بصلاةٍ أو صيامٍ بحديقةِ أحدِ المساجد، وإذا به يرى شخصًا يحمل في يده مجموعةً من الألجمة، فقال له: "مَن أنت؟"، قال: "أنا الشيطان"، فسأله: "ما بال هذه الألجمة التي معك"، فقال الشيطان: "إنني أحمل هذه الألجمة لهؤلاء العبّاد الذين تعلقت قلوبهم بربهم في هذا المسجد؛ حتى إذا خرجوا أبعدْتُهم عن هذا المناخ، وجررتهم خلفي"، فسأله الرجل: "عن أيّ الألجمة يحملها لي"، فقال الشيطان: "لا حاجة لك في اللجام، لأنك بإشارةٍ بسيطة تنقاد وتهرول خلفي".

(71) يشير الأستاذ هنا إلى قصيدة "ذات ليلة" التي نظمها الشاعر التركي المشهور "محمد عاكف أَرْصُويْ (١٨٧٣-١٩٣٦م)" وهي تتكلم عن مولد النبي محمد ﷺ:

وجاء ذلك المعصوم فأنقذ البشرية بنفخة واحدة   وغلب القياصرة والأكاسرة في حَملَة واحدة
وبُعِثَ العاجزون وكان حقهم السحقَ ليس إلَّا   وهلك الظالمون ولم يكن يخطر الزوالُ ببالهم

(72) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، ص ٢٢١.

ومن ثـمّ فمَـن تعلّق قلبه بربه ﷻ، وعزم علـى إحياء دينه وأوقف حياته للخدمة في سبيله فسيبذل الشيطانُ كلَّ ما في وسعه للاشتغال به والنيل منه، وكما يقول الشيخ "لطفي أفندي"[٧٣]: لِمَ يُجهد الشيطانُ نفسَـه ويضيِّـع طاقتَه مـع مَن جعل إفطارَه في الخمـارة، وصيامَه في الحانـة، وعيدَه بيـن الأوثـان؟!.. بيـد أن الشيطان كائن مسـوِّلٌ مُزيِّنٌ مُفسِدٌ مُحترفٌ.

الشيطان والأسرة

أجل، يتسلّط الشيطان على الإنسان وفقًا لقدره وثقله المعنوي.. بداية يُجهد نفسه مع الذين لهم ثقلٌ ومنزلة عالية، والذين ينظر الناس إليهم بعين الاحترام والتقدير، والذين يُعبِّرون عن قيمة معينة بالنسبة للمجتمـع والنـاس. نعم، يتصارع الشيطان معهم بدايـةً، ويحاول أن يحرز الغلبة عليهم؛ فإذا ما وصلَ إلى مقصده وبغيته غمرته السعادة؛ لأن سعادته تكمنُ في انتشار الشرور والفساد على ظهر الأرض..

وهناك حديثٌ شـريفٌ يُسـلّط الضوء على هذه المسـألة يقول فيه سـيدنا رسـول الله ﷺ: "**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَـعُ عَرْشَـهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُـمَّ يَبْعَثُ سَـرَايَاهُ** (فمنهـم مَـنْ يزيّـن للإنسـان أكلَ الربا، ومنهم مَـن يتحكم في عينه ويجعلها تنظر إلى الحرام، ومنهم مَن يجعله يلهث وراء شهواته، بمـا يثيـره فيه من مشـاعر بهيميـة، ومنهم مَن يطبق علـى فمه ويجعله

(٧٣) **أَلْوَارْلِي محمد لطفي أفندي** (١٢٨٣هـ/١٨٦٨م-١٣٧٥هـ/١٩٥٦م): عالمٌ زاهدٌ وشاعرٌ صوفي، ولد في محافظة "أَرْضُرُومْ" شرقي تركيا، حصل على الإجازة العلمية من كبار علماء عصره، وبعد أن عُيِّن إمامًا وخطيبًا انتسب لشيخ النقشبندية "محمد بيري كفراوي"، عُرف بين الناس بـ"إمام أَلْوَارْ"، واشتهر بلقب "سيدي أفا"، نظم أشعارًا بالعربية والفارسية والتركية، نُشرت فيما بعد تحت عنوان "خلاصة الحقائق". **(الناشر)**

ينطلق بالكذب والافتراء والغيبة، وربما يضطلع كلُّ تلميذٍ من هؤلاء بالذنب الذي يتفق مع قابليّاته ومهاراته في هذا الشأن)، **فَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً**"، قَالَ: "**فَيَأْتِيهِ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا فَعَلْتَ شَيْئًا!**"، قَالَ: "**ثُمَّ يَأْتِيهِ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، فَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ، فَيُدْنِيهِ مِنْهُ**"(٧٤)..

ولكن لِـمَ يُسَرُّ الشيطان بهذا القدر، ولِـمَ كلّ هذه الحفاوة بذلك التلميذ الذي فرّق بين الزوجين؟ لأن الأسرة هي نواةُ المجتمع، ومنها يبدأ التفكُّك والانحلال، فإن فسدَ شيء فيها تعذّر إصلاحه في المجتمع.

فإذا ما نظرنا إلى كل هذا ألفينا الشيطان يرتّب الشرور التي سيرتكبها وفقًا لأولويّتها بالنسبة إليه.. ووفقًا لهذه الإستراتيجية يحاول بدايةً أن يصرع الروّاد وأصحاب الوزن الثقيل، فإذا ما صرعهم تمكّن بسهولةٍ من التغلّب على المصارعين الآخرين؛ فبإشارة منه يستطيع أن يسحب هؤلاء ويجعلهم يهرولون من خلفه.. ومن ثمّ يتسلّط الشيطان بداية على الأنبياء العظام ثم الأصفياء الكرام، ثم الأولياء الفخام والمجتهدين العظام... ومن هؤلاء الذين يتسلّط عليهم الشيطان أيضًا في البداية أولئك الذين نذروا أنفسهم لإعلاء كلمة الله تعالى.. إن الشيطان لا يترك مطلقًا هؤلاء الذين جعلوا جُلّ همهم إعلاء كلمة الله، ونذروا أنفسهم لخدمة دينه، ويبذل قصارى جهده لتدوير رؤوس هؤلاء وتكديرِ أبصارهم، وسوقِهم إلى ما لا خيرَ فيه ولا فائدة تُرجى من ورائه.

(٧٤) **صحيح مسلم**، صفات المنافقين، ٦٧؛ **مسند الإمام أحمد**، ٣/٣١٤.

الشخصيات التاريخية التي تعرضت للهجوم

وثمة أرواحٌ بين الناس على شاكلة الشياطين تمامًا؛ مهيّأة للفساد يهاجمون ويقدحون على الأكثر في أولياء الله، وإن كانوا قد توفوا وقضوا نحبهم.. فمثلًا ينالون من حقّ السلطان القانوني(٧٥) الذي قضى عمره على صهوة فرسه مجاهدًا، ثم ارتحل إلى أفق روحه وهو في ساحة الحرب في سبيل الله.. ولا أعلم أيّ المصادر التي اعتمد عليها هؤلاء فقالوا إنه كان يشرب الخمر، وكان يحيا حياة بهيمية، معاذ الله! يقول الفيلسوف الجزائري العظيم مالك بن نبي(٧٦): "إن لم تكن الدولة العثمانية قائمةً على ثغور العالم الإسلامي من ناحية الشمال لما كان هناك ما يسمى الآن بالعالم الإسلامي".. فقد حبا الله تعالى العثمانيين بإدارة الدولة والوصول بها إلى أعلى المستويات على مدى ستة قرون من تاريخ الإنسانية، وهذا فضل من الله يؤتيه من يشاء من عباده.

إن الذين يتكلمون عن هذه الشخصية العظيمة دون وعي أو علمٍ لا يعلمون أن هذا الإنسان العظيم قد حقق الأمن والطمأنينة للناس على بقعة شاسعة من الأرض لمدة نصف قرن من الزمان تقريبًا، كما جعل من نفسه حارسًا لحرمة الأمن والأمان في عصره.. لقد كان الفساد والإرهاب وقطع الطريق منتشرًا في ذلك العهد، وسائدًا في كل الأنحاء، غير أن هؤلاء الناس ضحوا براحتهم، وتصدوا لمثل

(٧٥) **السلطان سليمان القانوني** (١٤٩٤-١٥٦٦م): عاشر السلاطين العثمانيين، وصلتْ الدولة العثمانية في عهده أقصى اتساع لها حتى أصبحت أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت، وتبلغ مدة حكمه قرابة نصف القرن (٤٦ سنة). **(الناشر)**

(٧٦) **مالك بن نبي** (١٣٢٣هـ/١٩٠٥م-١٣٩٣هـ/١٩٧٣م): من أعلام الفكر الإسلامي العربي في القرن العشرين، ويُعدّ المفكر الجزائري مالك بن نبي أحد رُوّاد النهضة الفكرية الإسلامية في القرن العشرين، وهو يُعَد من أكثر المفكرين المعاصرين الذين نبّهوا إلى ضرورة العناية بمشكلات الحضارة. **(الناشر)**

هـذه المخاطـر، وتغلبـوا على كل هذه المشـاكل.. وإنني إزاء ما يحلّ بـي فـي هذه الدائرة الضيقة أُفكر فيما جرى للسـلطانين مثل سـليمان القانوني رحمه الله، وأحاول أن أتصوّر حال هذه الشخصيات العظيمة على الأقـل؛ إننـي أعتقـد أن هـؤلاء العظـام قد عاشـوا في ليلـة واحدة كلَّ الأزمات التي حلّت بي طوال عمري.

أجـل، إننـا لـم نتجـرع طوال عمرنـا ما تجرعـه وعاناه هـؤلاء في يومٍ واحد.. فالكلام سـهل يسـير، ولكنني أظن أننا لو حلّت بنا تلك المصائب التي حلّتْ بهم لانسحقنا وانهزمنا تحتها.

ولكن ماذا عسـانا أن نقول لهؤلاء التعسـاء الذين لم يستطيعوا أن يسـتوعبوا مدى الإخلاص والعمق والصدق وغير ذلك من الخصال التي كان يتمتـع بها أجدادهم، فأخذوا يقدّمونهم في قوالب مختلفة، فكـدّروا الأذهـان بمـا جـاؤوا به مـن افتـراءات كاذبة خاطئـة، فظلموا وجـاروا.. اللهـم أَنِرْ أعيننـا بالحق والحقيقة، واحفظنـا مِن أن نقترف مثل هذا الجور والظلم البيّن! آمين.

الشغفُ بالعلم والدراسة

سؤال: هل من الضروري استيراد العلوم للوصول إلى المستوى المطلوب في العلم والدراسة؟ وما الذي يجب القيام به لتأسيس مفهومٍ علميٍّ قائم على مقوّماتنا الأساسية؟

الجواب: المصدر الرئيس للعلم هو آثار الحق تعالى، والقرآن الكريم المعجز البيان هو القول الشارح والتفسير الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع لهذه الآثار(٧٧)، والسنة الصحيحة هي المبيّن والمفسر للقرآن الكريم، أما فهمُ ساداتنا من الصحابة الكرام والتابعين العظام فهو بمثابة عدسة نستطيع من خلالها فهمَ كتاب الله تعالى؛ لأن القرآن الكريم نزل بلغةٍ يفهمونها، واستخدم سيدنا رسول الله ﷺ لغةً تراعي الأفهام وتحترم الحسّيات وتتماشى مع الأذهان أو ما يُسمى بـ"التنزلات النبوية"، ولذا فمن الأهمية بمكانٍ أن نتدبر ونستوعب جيّدًا الأوامر التكوينية تحت ريادة القرآن الكريم بدايةً فالسنة الصحيحة ثم السلف الصالح، وأن نتوصّل إلى نقطة اتصالٍ واتفاق بين هذه الأوامر التكوينية والأسس الدينية، لكن يجب ألا يغيب عن الأذهان أنه من المتعذّر الوصول مرة واحدة إلى مثل هذا الأفق المأمول والمستوى المنشود في مثل هذه المسألة التي تعرضت لإهمالٍ جسيم طوال قرون؛ فقد تلقى الشغف للعلم والدراسة ضربةً

(٧٧) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة الخامسة والعشرون، المقدمة، ص ٤١٧.

فادحة في القرن الخامس الهجري، فحُذفت من المقررات الدراسية الحقائقُ والمعاني العالية التي يفيضها العلم في الأرواح، ونتقرب بها إلى الله.. وكما ذكرنا في مناسبات مختلفة لم تُستبعد فحسب العلوم الطبيعية في المدارس الشرعية، بل أُغلِق الباب وأوصِد دون حياة الإسلام الروحية.

نشوة النصر

وثمة حقيقة لا مجالَ إلى إنكارها وهي أننا قد رفعنا لواء الإسلام في تلك الفترة، وبذلْنا قصارى جهدنا وسعينا في هذا السبيل، فأحرزْنا إنجازات كبيرة في المجال السياسي والعسكري، ولا جرم أن رعاية العالم الإسلامي والذود عنه له قيمةٌ عالية وقدرٌ كبير عند ربنا ﷻ.

أجل، فالذين انغلقوا على العداوة وتجاوزوا واعتدوا؛ يُعتبرُ التصدّي لهم من أجل الحفاظ على الدين والشرف والكرامة أمرًا جديرًا بالاحترام والتقدير وخليقٌ بمن قاموا بهذا الأمر أن يُوجّه إليهم كلُّ احترام وتقدير.

أجل، إن أجدادنا من السلاجقة حتى الإيلخانيين، ومن الأيوبيين حتى العثمانيين قد رفعوا لواء الإسلام، ومثّلوه حقّ التمثيل، فكأنهم حملوا اللواء من برجٍ إلى آخر، وجعلوه يُرفرف خفاقًا على القمم في كل مكانٍ كرمزٍ لكرامتنا وشرفنا وعفتنا، ولكن كما أن الإنسان الذي ينهمك في أمرٍ ما ويستغرق فيه لا يستطيع أن يتبحّر في أمرٍ آخر فقد أدى هؤلاء وظيفةَ رفعِ اللواء، ولكنهم أغفلوا المختبرات والمراكز البحثية.

والحال أن العلم في عالمنا الإسلامي كان قد بلغ مكانة سامقة في القرون السابقة طوال عصور متعددة، فنشأ الكثير من المتفوقين في هذا المجال؛ فمثلًا كان ابن سينا (٣٧٠هـ/٩٨٠م-٤٢٧هـ/١٠٣٧م) متخصّصًا في علوم كثيرة، وله باعٌ كبيرٌ في الفكر والفلسفة، كما كان صاحب الكلمة في علم وظائف الأعضاء، وعلم التشريح، وساحة الطب؛ حتى إنه وضع علاجات معيّنة للفيروسات في تلك الفترة، كما كانت له آراء وملاحظات حول فهم القرآن الكريم، وفضلًا عن ذلك كان متصوّفًا، ولم يكن وحيدًا في هذا الميدان، بل نشأ إلى جانبه في تلك الفترة أيضًا العديدُ من العلماء الأجلّاء مثل محمد ابن يحيى بن زكريا الرازي (٢٥٠هـ/٨٦٥م-٣١١هـ/٩٢٣م) وجابر ابن حيان (٧٢١-٨١٥م) والفزاري (ت: ٧٧٧م) والزهراوي (٩٣٦-١٠١٣م) والخوارزمي (١٦٤هـ/٧٨١م-٢٣٢هـ/٨٤٧م) والبيروني (٣٦٢هـ/٩٧٣م-٤٤٠هـ/١٠٤٨م)...؛ كان مصدر هؤلاء جميعهم الدين الإسلامي، بحثوا فيه عن نقطة الاتصال والاتفاق بين الأوامر التكوينية والأوامر التشريعية، واستوعبوها جيّدًا، فلم يرزحوا تحت تأثير الآخرين، ولم يُصابوا بعقدة الدونية، أما غيرهم فقد أدركوا أن ما يتمتع به هؤلاء المؤمنون من مزيةٍ وتفوقٍ يرجع إلى الدين، فاحترموا الدين في شخص هؤلاء.

غير أن الشغف بالعلم والبحث قد ظلّ قائمًا حتى القرن الخامس الهجري، وما إن ابتعد عن المركز ووصل إلينا حتى أخذ يتباطأ ويفقد بريقَه مع الوقت، ولم يؤد وظيفته على الوجه الأكمل.. ومن المحتمل أن النصر الذي تحقق بفتح إسطنبول قد أدار رؤوسنا، وزاد هذا الدوارَ انتقالُ الخلافة إلينا، ولا يُفهم من كلامي أن هذه الفترة

لـم تتخللهـا أي إنجـازات؛ فـلا أحـد يُنكـر الإسـهامات العلميـة التي حققتها "مدرسـة الفاتـح" و"مدرسـة السليمانية"، و"مدرسة أندرون".. ولكن الحقيقة التي لا سـبيل إلى إنكارها أن هذا التطوّر والانكشـاف العلمـي فـي السـاحة العلميـة الـذي ظلّ قائمًـا حتـى القـرن الخامس الهجري لم يُر له أثرٌ في الحقب التالية.

تأمّل كتاب الطبيعة

والحقُّ أن الغـربَ قـد وصـلَ إلـى مسـتوى معين في العلـم والفنّ بتأمّلِه وتدبّره للحوادث والأشياء وشغفِه الكبير بالعلم والدراسة، كما يظهر لنا في البرامج الوثائقية.. فمثلًا أخذ بعض علماء الغرب في تتبُّع حياة طيور البطريق في القطب الشـمالي، والحيتان في مكان ما؛ حتى إن هنـاك باحثًـا يقـول: "إنني أتتبّـع حياة الأفاعي منذ خمسـة وعشـرين عامًـا".. ربمـا لا يعلـم هـؤلاء العلمـاء النتيجة التي سـيتحصّلون عليها في المستقبل من جراء سعيهم وجهدهم، ولكن حبَّ الاطّلاع عندهم وشغفَهم بالعلم والبحث؛ قد دفعهم إلى التدقيق فيما يسمونه بالطبيعة الموحشة، فأخذوا يحللون ويركبون ويُدقّقون، ويمحّصون، وينسجون، ثم ينظرون في الأطراف؛ في محاولةٍ للوصول إلى نتيجة ما.

وأقـول اسـتطرادًا: لقـد وصـل هـؤلاء في العلـم إلى مسـتوى ما، ولكنهـم نسـبوا كلَّ هذا إلى الانسـياقات الداخليـة والدوافـع الطبيعية لدى الحيوانات، ولم يخطوا خطوة أخرى، فينسبوا الأمر إلى صاحبه الحقيقي وهو الله ﷻ.. لقد رأوا أن كل الأحياء تتصرف مثل الإنسان، بـل إن بعضهـا يتفـوّق على الإنسـان ويحـرز كثيرًا مـن النجاحات في مسـألة إدامة العيش، ولكنهم لم يسـتطيعوا أن يروا يدَ الناظم سـبحانه

التي أبدعت مثل هذا النظام والتناغم الرائع الفريد، ولا القوانين التي وضعها، ونظرًا لأنهم لم يستوعبوا فكرة السير إلى الله انطلاقًا من الإنسان والحوادث والأشياء، ولا يملكون وجهة النظر التي تعينهم على الوصول إلى هذا الأفق فقد انخرطَ وانغمس معظمُهم -ولا نقول جميعهم- في الطبيعية والوضعية أو المادية.

أجل، رغم ما بذلوه من جهدٍ فقد عجزوا عن رؤية كتاب الكون الكبير، وما فيه من حروفٍ وكلماتٍ وفقراتٍ تتحدّث جميعها عن الله ﷻ.

السبل الآمنة للوصول إلى الحقيقة

ولنرجع إلى موضوعنا الرئيس فنقول: لقد ضعُفت الهمّة لدى العلماء والباحثين عندنا بعد القرن الخامس الهجري، فلم يضطلعوا بأبحاثٍ وأعمالٍ حول دراسة الأشياء وسبر أغوارها كما يفعل علماء الغرب اليوم.. وإننا الآن إن لم ننكبّ على هذا الأمر مثلهم على الأقل، أو نهب أنفسنا لمثل هذه الدراسات والأبحاث فمن المتعذّر الوصول إلى نجاحٍ على المستوى المنشود.. من أجل ذلك يجب أن يكون لدينا عشقٌ بالغُ الشوقِ للحقيقة، وكما أنه لا توجد حقيقةٌ أعظم من الحق ﷻ، فكذلك ليست هناك حقيقةٌ أعظم من الأشياء التي عظّمها الله ﷻ، إذًا فالعشق هنا هو عشق الوصول إليه سبحانه بدايةً، ومن شأن هذا العشق الذي يشعر به الإنسان إزاء حقيقة الحقائق أن يثير شغفَه نحو العلم، أما عشق العلم فيسوقه إلى البحث والدراسة، ونتيجة لهذه الدراسات يقوم الإنسان بالبحث عن الطرق الموصّلة إلى الله والعثور عليها.

والطرق الموصلة إلى الله تعالى هي بعدد أنفاس المخلوقات؛ ولذا فإن قصْر هذا القول على المشارب والمسالك ليس إلا قصورًا في الفهم؛ فثمة سبلٌ توصّل إلى الله في كلِّ المخلوقات بداية من الذرات حتى المجرات، علينا أن نجدها، ونعبّد الطرق الآمنة حتى لا تتردى الإنسانية في أودية الضلالة، أو تصطدم بما يَعِنّ في طريقها؛ وهذا يتطلّب منا أن نكدّ ونسعى ونناضل ونكافح ونموت ونحيا مرات ومرات، ونتخلى عن التفكير في أنفسنا من أجلِ أن يحيا الآخرون، وأن نتلمّس يدَ قدرة الله تعالى وعلمه المحيط وإرادته الشاملة في كلّ شيء؛ حتى لا نقع فيما وقع فيه الغربيون حينما انغمسوا في الطبيعة.

ومن ثم فطلاب العلم عندنا في حاجةٍ ماسة إلى إعادة تأهيلٍ حتى يتشرّبوا مثل هذه الروح، فإن لم يتمكن مثل هذا الشعور في نفوس هؤلاء بدايةً من المدرسة الابتدائية فالإعدادية والثانوية والجامعة وما بعدها؛ فلن تقدروا على انتقاء مثل هذا الفريق الذي تنشدونه من بينهم، ولذا يجب عليكم أن تُغرِقوا الباحثين بالجوائز للتحفيز والتشجيع إن لزم الأمر. أجل، إننا لا نُنكر أن التقدير تابعٌ للمهارة في فلسفتنا، ولكن يجب ألا نتوقع مثل هذا الشعور لدى الجميع؛ لذا علينا أن نساعد رجال العلم على إظهار مواهبهم ومهاراتهم بإغداق العطايا عليهم وتأمين حياتهم المادية والمعنوية، كأن نقول لأحدهم: "قم بالبحث في هذا المجال، فإن وقفتَ على جوهر المسألة أمّنّا لك حياتك المعيشية، وخصّصْنا لك بيتين حتى لا ينشغل عقلك أو قلبك بأمورٍ مادية عدا العلم والبحث".. والحق أن البحث العلمي هو مسألةُ عشقٍ، ومحاولةٌ لانهماك الإنسان بكل

كيانه في العمل، غير أن تشبّع الناس بهذا الشعور أمرٌ منوط بإعادة تأهيلهم من جديد.

نقل المعرفة والقضية الأساسية

أما المسألة التي لا بدّ من حلّها كخطوةٍ أوّلية للسير في هذا الطريق الموصِل لهذا الهدف فهي مسألةُ نقل المعرفة، ومن ثمّ فمن الممكن لنا الآن احتذاءُ الطريق الذي اتبعه اليابانيون والصينيون.. فكما هو معلوم أخذَ هؤلاء علومَهم عن الغرب، واستفادوا منها، وأضافوا إليها، وألحقوا بها بعض الزيادات، ووظّفوها وفقًا لفلسفاتهم ورؤاهم العامة؛ فمثلًا استغلّت الصين ما نقلته من معلومات وتكنولوجيا في مجال الصناعة، وبدأت تُصنِّع منتجاتٍ بأقل الأسعار، حتى صارت دولةً عالميّة عملاقة، أما اليابان فقد أُبيدت ودُمّرت بالقنبلة النووية في الحرب العالمية الثانية، ودخلت تحت وصاية دولةٍ ما، غير أنها رغمَ كلّ هذا ما فتئت أن تفوّقتْ علينا في مجال الأبحاث والدراسات العلمية، وكذلك ألمانيا دُمّرت ومُحيت، وتقاسمتها الدول الكبرى، إذ دخلت ألمانيا الشرقية تحت وصاية روسيا، وألمانيا الغربية تحت وصاية أمريكا، لكن رغم كل هذه الظروف السلبية استطاعت أن تستجمع قواها وتنهض، وتستورد العمالة من عندنا.. ومن ثم فمن الممكن أن نعيشَ نحن أيضًا مثل هذه الفترة من نقل العلوم والتكنولوجيا، ثم نحسن استغلال ما استوردناه من الخارج، وبعد ذلك تأتي مرحلة توجيه إنساننا إلى الغايات السامية.. البعض يُطلق على هذا الأمر "أسلمة العلوم"، لكنني أرى من الأصوب أن ننظر إلى المسألة على اعتبار "أنها محاولةٌ للوصول إلى نقطة التقاءٍ بين الأوامر

التشريعية والأوامر التكوينية التي هي مصدر العلم".. ولا جرم أنه من المستحيل الوصول إلى هذا المستوى في حملةٍ واحدة أو انطلاقةٍ واحدة، من أجل ذلك لا بدّ من تربية أناسٍ عاشقين للبحث العلمي، يصدحون بالحقيقة في كلّ مكانٍ كالمؤذن الذي يضع يديه على أذنه صادحًا بالأذان مع دخول كلّ وقت، وألا نتراجع عن مواكبة العصر بأن نتتبّع آثار العلم والتكنولوجيا التي ظهرت في غير عالمنا.

حاصل القول: إن الآلية العلمية القائمة على مقوماتنا الفكرية في حاجةٍ إلى نقل المعرفة بدايةً ثم استغلالها، وأن يكون لدى الناس شوقٌ واشتياقٌ إلى تحليل الحوادث والأشياء وفهمها وتفسيرها، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التوفيق بين هذه المعلومات وبين قيمنا، وجعلها -بمعنى ما- جزءًا من ذاتيتنا، ثم النظر إلى التجارب التي قام بها هؤلاء حتى اليوم، حتى نقوم بمثلها؛ بمعنى أن ننقل العلوم في مرحلة، وأن نجعلها جزءًا من ذاتيتنا في مرحلة أخرى، ثم نتناول كل شيء وفقًا لماهيته الحقيقية، ونتحرّى مراد الله من خلق كتاب الكون الكبير، وندرس حقيقة كيف أن القرآن هو القول الشارح والبرهان الواضح والدليل الساطع على هذا الكتاب.. فإذا ما تشكّلت لديكم وجهةُ نظرٍ واضحة راسخة ونظرتم إلى كتابَي الحق تعالى (القرآن والكون) استطعتم إدراك الحقيقة نفسها، ويبدو القرآنُ لكم كأنه كونٌ، والكونُ كأنه قرآنٌ، من جانب آخر سيتبدى الإنسان في نظركم وكأنه فهرست للكون، والكون كأنه إنسان كبير.. كلّ هذه المسائل ستشهدون عليها بضمائركم، وتصدّقون بها بقلوبكم.

الشعورُ بالرتابة والتنويعُ في الأسلوب

سؤال: يسيطر على الفرد أحيانًا شعورٌ بالرتابة إزاء الأعمال التي يقوم بها، فبمَ تنصحوننا حتى نتخلّص من الآثار السلبية لمثل هذا الشعور؟

الجواب: يُقبل الإنسان بدايةً على عمله بشوق كبير وحماسة بالغة، غير أن ما يقوم به من أعمال وفعاليات إذا ما جرت على نمط واحد، ولم تصطبغ بألوانٍ ونقوشٍ وزخارف جديدة أو تكتسب أبعادًا وأعماقًا أخرى فلا مناص من أن يصبح الإنسان جثة هامدة بسبب هذا الجوِّ الخانق من الإلف والتعود.. من الممكن أن تكون الأعمال التي تضطلعون بها مهمّة وحياتية جدًّا، ولكنها ستبدو أمامكم كحادثةٍ من الحوادث المطّردة المألوفة، وتغدو رتيبةً في أعينكم، بل ربما تراودكم فكرة "لأقم بهذا العمل مباشرةً، وأتخلص منه على وجه السرعة".. ومن ثمّ فلو كنا نشتغل بعملٍ جليل مثل الدعوة إلى الله ورسوله وتحبيبهما إلى القلوب؛ فعلينا أن نغيّر من منهجنا وننوّع في أسلوب عَرْضِنا على الدوام؛ حتى لا يتسلل الملل والضجر إلى مخاطبينا، ولا نشعر بالرتابة إزاء الأعمال التي نقوم بها.

تنوع الأسلوب يولِّد نشوة أخرى

وإن شئتم فاربطوا هذه المسألة بفكرةِ تنوُّع الأسلوب التي انتهجها القرآن الكريم في التنزيل والتبليغ، فإننا إذا ما نظرنا إلى

القرآن المعجز البيان بهذه النظرة فسنجد نفس المفهوم ونفس المضمون يتكرّران في مواضع أخرى ولكن بأسلوب مختلف ونمط آخر، فمثلًا تكرّرت قصة سيدنا موسى عليه السلام في كثيرٍ من المواضع في كتاب **الله** سبحانه وتعالى(٧٨) حتى تُشكّل مثالًا لشتى المشاكل، وترشد إلى سبل الانسلاخ منها، وتؤكّد على عزمٍ وجهدٍ نبويٍّ إزاءها.. ورغم هذا فلم تتكرّر القصة بعينها ألبتة في جميع المواضع، بل إنها في كلّ مرة كانت تَرِدُ بأساليب مختلفة.. كما أن الله تعالى عندما يعبّر عن الحقيقة نفسها بأساليب شتى كان يضرب المثل تارةً بموسى عليه السلام، وتارةً بعيسى عليه السلام، وتارةً أخرى بمفخرة الإنسانية محمد صلوات ربي وسلامه عليه، وهذا ما يسمّى التنويع في الأسلوب.

والحقّ أن تنوُّع الأسلوب في عرض القضية في كل مرة تصحبه نشوة مختلفة تصيب الإنسان بانشراح مغاير.

أجل، إنكم إن نوّعتم في طريقة عرض المسألة التي تتحدثون عنها لتبلورت بكلّ أعماقها وأبعادها الذاتية، وللفتُّم الأنظار إلى هذه الحقائق، وهذا من شأنه أن يُحيي في القلوب احترامًا للمسائل التي تمثّلونها. نعم، إن القيمَ التي نتمثلها قيّمة وثمينة في حدّ ذاتها؛ ولذا علينا أن نعرض بضاعتنا في سوق الذهب والفضة والزبرجد لا في أسواق النحاسين، فكم من حقيقةٍ تفقد قدرَها وقيمتها في أفواه الذين لا يستطيعون تقديم المسائل كما ينبغي! وكم من حقائق باهتة لا روح فيها تقوى وتشتدّ وتسحر الآخرين على لسان مَن يحسنون

(٧٨) ورد الحديث عن قصة موسى عليه السلام في أكثر من عشرين سورة، تارة بصورة مفصلة: كما هو في سور "البقرة"، و"الأعراف"، و"طه"، و"الشعراء"، و"القصص"، وتارة أخرى بصورة مختصرة: في سور "الروم"، و"الدخان"، و"النازعات" وغيرها، وتكرر ذكر موسى عليه السلام في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة. **(الناشر)**

صياغة المسائل والتعبير عنها! فأحيانًا ما يُرَوَّجُ الباطل بسبب اللباقة والمغالطة والديماغوجية والجدليّة، ويُحرَم الحقُّ والحقيقة من هذا الرواج نظرًا لأنهما لم يُطرحا على المخاطبين بأسلوبٍ لائقٍ جميل، ولذا فإن كان ما تمثّلونه وترعَونه وتحاولون تبليغه للآخرين هو عينُ الحقيقة -ولا ريب أنه كذلك- فعليكم أن تثيروا في الآخرين الشعور بالاحترام اللازم إزاء هذه الحقائق عن طريق التنوّع في أسلوب الخطاب.

الوعي الكامل بالوقت الذي نعيش فيه

وثمة وسيلةٌ أخرى للحفاظ على تجدّدنا، وهي أن يكون الإنسانُ على وعيٍ وشعورٍ بالزمان الذي يعيش فيه، وبما أننا "أبناء الوقت" فعلينا أن نتعرّف جيّدًا على الوقت الذي نعيش فيه وأن نتّبع منهجًا يتوافق مع متطلبات هذا الوقت، فمثلًا ليس من الصواب أن أقوم الآن وأعظ الناس بنفس الأسلوب والمنهج اللذين كنت أتبعهما قبل ٣٠-٤٠ سنة في مدينة "إِزْمِيرْ" أو مدينة "أَدْرَمِيتْ"(٧٩)؛ لأن الناس اليوم يختلفون عن الناس بالأمس، بل ربما معظمهم يعرف ويحفظُ ما يُلقَى إليه عن ظهر قلب.. أما ما يتوجّب علينا فعله الآن فهو أن نتناول الأمور التي نتحدث فيها بكل أبعادها المنطقية وأن نقف عند معقوليّتها.

فعلى سبيل المثال: إن كان للموضوع الذي نتناوله اليوم وجهةٌ فقهيّة فعليكم الرجوع فيه إلى المؤلّفات المتخصصة في هذا المجال؛ لا سيما ما قاله الشاطبي (ت: ١٣٨٨م) أو ما تناوله التفتازاني (٧٢٢هـ/١٣٢٢م-٧٩٢هـ/١٣٩٠) في كتابه "التلويح على شرح حقائق

(٧٩) عمل الأستاذ محمد فتح الله كولن واعظًا في هذه المدن في الستينات والسبعينات. (الناشر)

التنقيح"، فإن فعلتم هذا شعر الناس بقدْرِ ما تُلقونه عليهم، وإلا تعاملوا باستغناءٍ مع هذا الأمر وإن كان عينَ الحقيقة.. وما دام المعلّم الأزلي والأبديّ ﷻ قد استخدم منهج تنوّع الأسلوب في القرآن الكريم ففتح الباب لنا، وأرشدنا إلى الوظائف التي يجب أن نقوم بها فيجب علينا حينذاك أن نحسن استغلال هذا الأسلوب استغلالًا جيّدًا.

أشرنا فيما سبق إلى أهمية استيعاب فكرة أن نكون أبناءً للوقت واللحظة التي نعيشها، غير أنني أريد أن أتناول هذه النقطة بشيءٍ من الإيضاح كيلا تُفهَمَ على غيرِ وجهها الصحيح، فأقول: إن من الخطإ أن يغفل الإنسان عن ظروف الزمن الذي يعيش فيه، كما لا يصحّ أيضًا أن يقيد كلَّ شيء بالزمان وظروفه كالتاريخانيين.. وبنفسِ الوقت فإنني لا أقصد بأيّ حالٍ من الأحوال أن نُغيّرَ أو نُبدِّلَ المسلّمات والحقائق الدينية، معاذ الله؛ لأن الحقائق القرآنية أزليّة أبديّة لا تتبدل ولا تتغير.

غير أن هناك ساحات ومجالات لم يُصرَّح بها في كتاب الله تعالى ولا في سنة نبيه ﷺ وتُركت لتفسير الزمن لأن الزمان أكبر مفسِّر للحوادث، وهي ساحات سيملؤها أبناءُ الزمن باستنباطاتهم واجتهاداتهم، وعلاوة على ذلك لا بد لنا أن نتعرف على الاستنباطات والاجتهادات التي تتوافق مع متطلبات العصر، لأن هذه ساحات يؤثِّر فيها الزمن فيُثريها، ويعبر فضيلة الأستاذ النورسي رحمه الله عن هذه الحقيقة بعبارة وجيزة فيقول: "الزمان مفسر عظيم، فإذا ما أظهر حُكمه فلا اعتراض عليه"[٨٠].

---

(٨٠) بديع الزمان سعيد النورسي: **صيقل الإسلام**، المناظرات، ص ٣٧٠.

محاسبة النفس والانبعاث من جديد

وثمة وسيلةٌ مهمّة أخرى لتجديد الذات، وهي أن تخضع الفعاليات والأعمال التي نمارسها للمحاسبة والتقييم.. فقد سمعتُ أن اليابانيّين يجتمعون شهرًا أو شهرين في منطقة منعزلة، يتشاورون فيها حول الأعمال التي أنجزوها وسينجزونها.. فمثل هذه الاجتماعات من شأنها أن تقدح زناد فكرهم حول ما قاموا به من أعمال في الماضي، فيعملون على إعادة صياغتها مجدّدًا، وتهيئتها للمستقبل مرة أخرى، وتحديد أهداف جديدة للحفاظ على مثل هذا الشدّ المعنوي.. فإن كانت المؤتمرات تُعقد من أجل الحياة الصناعية والتجارية فغنيٌّ عن البيان أننا في حاجة ماسة إلى تأهيلٍ مستمرّ من أجل مسألة خاصة بالحياة الأبدية مثل الإرشاد والتبليغ.

أجل، إن كان هذا الأمر ضروريًّا في الأمور الدنيوية والمادية فالأولى أن يكون ضرورة تتجاوز كل الضروريات في مسألةٍ مثل الإرشاد والتبليغ.

وانطلاقًا من هذا نقول: إن لم يحرص رجلُ الإرشاد على المشاركة في اجتماعٍ يُثري عدّته ومعلوماته، وإن لم ينقِّ ذهنه، ويُراجع ما ارتكبه من أخطاء في الماضي، ويأخذ كلَّ التدابير من أجل المستقبل فلا شكّ أنه سيكرّر الأخطاء التي وقع فيها ولن يُفلِح في الأعمال التي يقوم بها.

إننا في أمسّ الحاجة إلى مثل هذا التأهيل، لأن المسؤوليّة المنوطة بنا عظيمة وحسّاسة جدًّا؛ فعلينا أن نعمل على الوفاءِ بحقِّ الله تعالى وحقِّ رسولِه الأكرم ﷺ؛ بمعنى أن نمثّل الأمانة التي

استأمننا عليها سيدُنا رسول الله ﷺ، ولنضرب لذلك مثالًا فنقول: كان سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لا يُقدِم على رواية شيء ذكره سيدنا رسول الله ﷺ إلا ويغشاه القلقُ والاضطراب، يقوم ويقعد، ويحوقل، وترتعدُ فرائصه وتتصلّب عضلاته؛ خشية أن ينقل شيئًا مغايرًا للفكرة الأساسية للموضوع الذي ينقله(٨١)، وهذا يعني أنه كان على وعي بالمسؤولية الملقاة على عاتقه؛ فربّ كلمةٍ تهدم كلَّ شيء، وإنك لو نظرتَ لكلام العظماء السابقين لألفيتَ لكلامِهم حلاوةً وطلاوةً، ولكن سرعان ما ينقلب كل شيء رأسًا على عقب إن اختلط صوت العقعق بأنغام البلبل.

وإن من يحملون هذه المسؤولية على عاتقهم لا يتكلّمون جزافًا أو عشوائيًّا، فربما يسرد المريضُ بعضَ أفكاره حول مرضه، لكن الطبيب الملتزِم بقواعد الطبّ إن أوفى بيمينه الذي أخذه على نفسه وأدى أخلاق المهنة فلن يتحدّث أو لن يستطيع أن يتحدّث بمعلومات اعتباطيّة، وإلا ساق مريضه إلى مضاعفات خطيرة.. وبدهيّ أن المسألة إن كانت مسألةً دينيّةً تنظِّم حياة الإنسان الدنيوية، وترشده إلى سبل السعادة الأبدية في الحياة الأخروية، وتُكسِبه مفهومًا إلهيًّا ونبويًّا صحيحًا؛ فإنها تتطلّب قدرًا كبيرًا من الجدّية، فمثل هذه المسألة لا يتسنى للإنسان حلّها اعتمادًا على المعلومات القديمة دون أن يخضَع إلى إعادة تأهيلٍ مرة أو اثنتين في السنة.

(٨١) عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، قَالَ: "مَا أَخْطَأَنِي ابْنُ مَسْعُودٍ عَشِيَّةَ خَمِيسٍ إِلَّا أَتَيْتُهُ فِيهِ، قَالَ: فَمَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لِشَيْءٍ قَطُّ "قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ"، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ عَشِيَّةٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَنَكَسَ قَالَ: "فَنَظَرْتُ إِلَيْهِ، فَهُوَ قَائِمٌ مُحَلَّلَةً أَزْرَارُ قَمِيصِهِ، قَدْ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ، وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ قَالَ: أَوْ دُونَ ذَلِكَ، أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، أَوْ شَبِيهًا بِذَلِكَ. (**سنن ابن ماجه**، النسة، ٣)

أكثر الناس خطأً

قد يعمل البعضُ عشرين أو ثلاثين سنة في دائرةٍ يحاول من خلالها خدمة الإنسانية، ولكن إن لم تعمل آلية التغذية الروحية والمعنوية بشكلٍ صحيح فقد يسبقُ المتأخرون المتقدمين ويفضُلونهم في العلم والمعرفة.. والأدهى من ذلك ألا يعي المتقدمون في الخدمة هذا الأمر، وهذا يقتضي أن نُمزِّق الكفن مرة أخرى ونلبس ثوبًا جديدًا ونشرع في الأمر بـ"اسم الله" من جديد، ونعيدَ معالجته مجدَّدًا ونفهمه ونحلله من جديد، وإلا ارتكبنا أخطاء فادحة دون وعي منا.. فأكثرُ الناس خطأً هم الذين يعتمدون على أقدميّتهم وأسبقيّتهم، فأخطاءُ المبتدئين بالنسبة لهم بسيطة؛ لأن هؤلاء يدقّقون النظر تارةً في العمل الذي سيقومون به، وينظرون تارة أخرى إلى الرواد والمرشدين الذين سبقوهم.. ولكن متى ما راودت الإنسان فكرةُ "أنا أقوم بهذا العمل منذ سنين، وأعرف كثيرًا من الأمور" فليعلم أنه قد خرج من حيّز الدائرة التي كان بها، وأنه لم يعُدْ يدرك ما يحدث أو ما يجري.. وحتى لا نتردّى إلى مثل هذا الحال فعلى الجميع أن يجتمع مرة أو مرتين كلَّ سنة، يراجعون فيها مكتسباتهم والمحطات التي توقّفوا عندها ونوعية الأخطاء التي ارتكبوها، ويأخذون التدابير اللازمة حتى يتلاشوا الوقوع في الأخطاء عينها في المستقبل، وأن يضعوا على طاولة التشاورِ الخططَ والمشاريع التي ينوُون القيام بها في المستقبل.

غاية الحياة

سؤال: كيف نجعلُ الخدمة التي تقوم على ابتغاء مرضاة اللّه غاية لحياتنا؟

الجواب: يستطيعُ الإنسانُ أن يجعل عمله غايةً لحياته إذا ما عرف بدايةً قدرَ هذا العملِ وقيمتَه الذاتية وأهميته وتبناه؛ فمثلًا لو نظر الإنسانُ إلى مسألة الإيمان على أنها مسألة حياتية بالغة الأهمية للفوز بالحياة الأبدية لَربط حياتَه ونسجَها وفقًا لهذه الغاية المثالية.

يقول الحقّ ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٦٧/٥)، وهذا التوجيهُ الإلهيّ للنبي ﷺ يسري على أمّته أيضًا، فكما لا يستطيع النبيُّ ﷺ أن يُعرض عن الوظيفة المنوط بها فكذلك لا يصحّ لأمته أن تتخلّى عن الأمانة التي استودعها اللهُ تعالى إياها.

حسنُ الظنِّ باللّه

وبما أن الله ﷻ لا يستودع أمانته إلا للأمناء عليها فلا بدّ أن نُرجع هذا إلى حسنِ ظنّ ربّنا سبحانه بنا.. فكما يكون لدى المؤمن حسنُ ظنٍّ بأخيه فكذلك الله ﷻ لديه أيضًا حسنُ ظنٍّ مبجّلٍ ومقدّسٍ ومنزّهٍ بالناس جميعهم؛ بمعنى أن الله تعالى قد اعتبرَنا أمناء وأودعنا أمانته، وعلى ذلك لا يجوز لأحدٍ أن يتخلى عن هذه الأمانة بحجة عدم الأهلية، وإلا ماذا نقول عند المثولِ بين يديه ﷻ!! ألن يُقال لنا

في الآخرة: "وثقنا بكم وعهدنا إليكم بهذه الوظيفة، وكنا ننتظر منكم أن تكونوا على قدرِ الثقة وتُؤَدّوا المسؤولية على أكمل وجه، ولكنكم ضيّعتم الأمانة التي حمّلناكم إياها"؛ وهكذا فعلى القلب المؤمن أن يضع في اعتباره أن مثل هذه الأسئلة ستُوجّه إليه في الدار الآخرة، فيقوم بوظيفته بناءً على ذلك.

علينا ألا ننسى أيضًا أن وجودنا داخل هذه الدائرة وبلوغنا هذه المنزلة إنما هو محضُ فضلٍ وإحسانٍ من الله تعالى، ولنوضح هذا الأمر بمثال: هب أن هناك بابًا عريضًا في مكانٍ ما، يمرّ من أمامه آلاف الأشخاص، وكان هذا الباب يُوارَى أحيانًا، فمَن صادف عبورُه انفتاحَ هذا الباب دُعي إلى الدخول.

أجل، عندما ينظر الإنسان إلى حياته سيجد أنه قد دُعي للدخول من هذا الباب الموارَى.

ولكن قد يسوءُ حظُّ الإنسان رغم دخوله من هذا الباب.. فمثلًا عندما كنتُ مقيمًا في مدينة "أرضروم" جاءنا الأستاذ "محمد قِرْقِنْجِي"(٨٢) -شكر الله سعيه- وقال لنا: "لقد جاء بلدتنا تلميذٌ من تلامذة الأستاذ النورسي، فهلمّ بنا نذهب إليه ونسمع منه، فربما أعجبكم شيءٌ من حديثه"، فتأثرنا بكلامه وانطلقنا معه إلى ذلك الشخص المبارك.. ولكن عندما غادرتُ "أرضروم" لم يكن فيها سوى بضعة أفراد ممن كانوا مع الأستاذ "قرقنجي" عند زيارته لتلميذ الأستاذ النورسي.. ومن ثمّ فالثبات والديمومة على الخدمة

(٨٢) "محمد قِرْقِنْجِي (*Mehmed Kırkıncı*)" (١٩٢٨-٢٠١٦م): كاتب وعالم دينيّ تركيّ، وهو من طلاب الأستاذ بديع الزمان سعيد النُّورسي رحمه الله.

بعد الدخول فيها وصرْفُ الهمة في هذا الاتجاه أمرٌ منوط بفضل الله تعالى وعنايته؛ بمعنى أن هذا الأمر لطفٌ وإحسانٌ خاص تفضّل الحق سبحانه علينا به؛ ولذا ينبغي للإنسان أن يسعى لأن يكون جديرًا وأهلًا لهذا اللطف والإحسان.

من جانب آخر فإن للخدمة في سبيل الله مذاقًا ومتعةً خاصّة بها، غير أنني لستُ ممن أدركوا مثل هذا الذوق وتلك المتعة كليّةً.. ويمكن أن أقول: إن الضجرَ كان يحيط بي من كل جانب؛ وربما راودتني أحيانًا فكرة أن أجدَ وسيلةً وأنصرف عن هذا الأمر؛ لأنني على قناعةٍ -أنا الفقير- بأنني إنسان لا نفع فيّ ولا خير يُرجى من ورائي.. لقد تعرضْتُ طوال حياتي لشتى صنوف الاضطهاد والعنت، وإنني الآن أشعر بضيق ومعاناة بسبب الظروف التي مرّت بي، ولكن رغم هذا كله أقول: مهما كانت المعاناة التي عانيتُها فهي قليلة إلى جانب هذه الخدمة العظيمة التي منّ الله تعالى علينا بها.

حتى وإن ظللنا وحدنا

وكما تعلمون تحفل الأحاديث النبوية الشريفة بكثيرٍ من مشاهد الشجاعة والبطولة؛ ومنها ذلك المشهد الذي جسده لنا الصحابيُّ الجليل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه الذي امتلأ قلبه بالإيمان؛ إنه لما كان في ساحة القتال في ميدان معركة مؤتة نظر يمينًا ويسارًا فوجد أصحابه وهم يتساقطون من حوله صرعى، وقد أرهقه القتال، فاقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها وتقدَّم إلى الأمام وأعمل في العدو سيفه حتى سقط شهيدًا هو الآخر، ولم يُفكّر في التراجع أبدًا[٨٣]..

(٨٣) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ٢/٣٠.

وهكذا يجب أن ننطلق وفقًا لهذا المفهوم وذلك المنطق؛ بمعنى أننا وإن بقينا وحدنا ووقفت كلُّ قوى العالمِ ضدّنا فعلينا أن نواصل سعينا في ثبات وإصرار، -إذ إنّ علة وجود الإصرار هي الثبات على الحقّ، والإنسان الذي ينظر إلى المسألة من هذا المفهوم عليه أن يقول: "كما أن الإسلام والإيمان حقٌّ فتبليغهما إلى العالم مسألةٌ مهمّةٌ وحياتيّة أيضًا، وإلا فلا قيمة لوجودي"، وأن ينظِّم حياته وفقًا لهذا.

أجل، من الأهمية بمكان أن يتبنّى الإنسانُ هذه المسألة ويجعلها غاية لحياته، بل يجب عليه أن يقول في يقظته ومنامه: "لا معنى لوجودي وحياتي إن لم أقم بهذه الوظيفة، ولا معنى للبقاء في الدنيا إن عجزتُ عن أدائها".. كرروا هذا الأمر كثيرًا، وصارحوا بهذا العهد زوجاتكم وأبناءكم؛ حتى يكون ملزِمًا لكم في المستقبل.. قولوا لهم: "قبض الله روحي إن عجزتُ عن القيام بهذه الوظيفة"، فإن لم تحفظوا العهد الذي أخذتموه على أنفسكم فسيرتفع من البيت صوتٌ يذكِّركم بعهدكم ويقول لكم: "أما كنتَ تقول كذا وكذا"، لأنكم بهذا العهد قد غلّلتم أنفسكم، واستوردتم الدعم والطاقة من الآخرين لإعانتكم على هذا الطريق الذي لا تستطيعون أن تصمدوا فيه أو تسيروا فيه وحدكم؛ لأن رجوعكم عن قولكم سيُصبح عيبًا وعارًا بالنسبة لكم، فتضطرون إلى مواصلة طريقكم على الأقلّ حفاظًا على كرامتكم.

ومن ثم فعلى المؤمن أن يقيّد نفسه بغايةٍ سامية كالحديث عن الله وتحبيبه إلى النفوس، وأن يتفانى في هذا الأمر حتى نهاية حياته.

أستاء لأنهم لا يقدرونني قدري

علينا ألا ننسى أبدًا أن على المسلم أن يتحمّل المسؤولية، حتى تحتفظ هذه الغاية المثالية بنضارتها وحيويتها في القلوب على الدوام.. والواقع أن الشخص قد يُعهد إليه أحيانًا بعملٍ بسيط لا يوافقه ولا يناسبه، كأن يكون الإنسان جديرًا بأن يكون قائدًا لفوجٍ ثم يُسند إليه قيادة كتيبة صغيرة، وهذا يدعونا إلى أن نقول إن الشخص وإن كان قدره أعلى مستوى من الوظيفة التي تقلّدها فعليه أن يقوم بهذه الوظيفة على أكمل وجهٍ بدلًا من أن يستاء ويمتعض ويقول: "لم يعرفوا قيمتي وقدري وجعلوني قائدًا للكتيبة الصغيرة أو السرية".

وننوه على الفور بأن على الشخص الذي يكون في موضع الإدارة أن يتخيّر الشخص الذي يعهد إليه بوظيفة ما، ويكتشف ما لديه من مواهب وقدرات، وأن يساعده على العمل في الساحة التي يتفوّق ويبرع فيها؛ بمعنى أنه يجب أن نحمّل الشخص الوظيفة التي تبعث الشوق في نفسه، فإذا ما أحرز نجاحًا تغشَّاه الحبور وامتلأ قلبُه حمدًا وشكرًا لربه ﷻ.. فإن فشل فلا بد لنا من تهيئة جوّ وإمكانيات تساعده على تصحيح أخطائه.

العمل بمنطق "لا بد من الرجوع إليّ"

ومن أسفٍ أن هذه المبادئ لم تترسخ في أمتنا بشكلٍ كامل. أجل، لقد هيمن على أعمالنا وفعالياتنا انحسارُ الفكر، وساد ذلك المنطق الإداري الذي يقول: "كان لا بد من الرجوع إليَّ في هذه المسائل، وسؤالي عنها"، بيد أن على الإداري الناجح أن يختبر مَن حوله بأن يعهد إليهم بمسؤوليات ووظائف معينة من قبل، ويساعدهم على انكشاف قدراتهم في الساحات التي يبرعون فيها.

كان النبي ﷺ يكتشف المواهب المكنونة، ويكلفها ببعض المسؤوليات ويستخدمها بشكلٍ لا يخطر على بال، ومن ذلك أنه عهد إلى سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنه بقيادة جيش يبلغ تعداده ثلاثة أو أربعة آلاف مقاتل في غزوة مؤتة، فأتى زيد بهذه الوظيفة على أكمل وجه، وقد كان هذا الأمر شيئًا غريبًا على المجتمع في ذلك الوقت؛ إذ كيف يُعهد لعتيقٍ من الموالي بقيادة جيش متكامل، لكن سيدنا رسول الله ﷺ اكتشف جوهرةً باستطاعتها القيام بهذا الأمر على أكمل وجه، فوظّفها، وألغى بذلك مفهومًا خاطئًا كان سائدًا لدى المجتمع حينذاك، وإذا ما نظرنا إلى كل حياته السنية ﷺ لألفينا أنه كان يستخدم كلَّ إنسانٍ في الموضع الذي يستطيع أن يكشف فيه استعداداته وقابلياته كلها.

وعلى ذلك يجب أن يُكلّف الإنسانُ بالعمل الذي يناسب مستواه، وبالتالي يُحمَّل المسؤولية التي تتفق مع هذا المستوى.. ويجب ألا ننسى أننا إن لم نعهد بالمسؤوليات لمن هُم جديرون بها فلن تنكشف قابلياتهم أبدًا؛ إذًا إن الأعمال إن خلت من العشق والشوق أصابت صاحبَها بالسأم والضجر مع مرور الوقت، ممّا يفضي إلى التعامل بسوء أدبٍ ووقاحةٍ مع الحق والحقيقة.

وإن من أهم المقومات التي كانت سببًا في قوتنا وازدهارنا في وقت من الأوقات هو أن الجميع كان يعمل في المجال الذي يُتقنه ويبرع فيه، واستيعاب هذه الفكرة الآن مهمٌّ جدًّا في ازدهار مستقبل أمتنا.

أبطال القلب والروح

سؤال: ذكرتم في مناسبات شتّى أن الصوفيين الحقيقيّين هم أكثر الناس معرفة بروح الإسلام، فإلامَ يهدف هذا القول، وما هي الخصائص العامة التي يتّسم بها أبطالُ القلب والروح المشار إليهم هنا؟

الجواب: أرى من المفيد قبل التطرّق للإجابة على هذا السؤال أن أنوّه هنا بهذه المسألة المهمة: لا يحق لأحدٍ أيًّا كان أن يستخف بإسلام أخيه أو يستهين به، فقد يُكتب القبول لعمل الشخص أيًّا كان مستواه طالما كان في سبيل الله.. فالشهادتان بدايةً هما بمثابة مفتاحين سرّيّين لباب الجنة؛ يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**"(٨٤)، وعندما ذكرتُ هذا الحديث من قبلُ سألني أحدُ الأصدقاء قائلًا: وإن لم يعمل؟ فأجبته بما أننا نجهل قلب الإنسان ونيته وما يدور في أعماقه فليس من الصحيح أن نجزم بشيء في هذه المسألة، ولكن اعتمادًا على قاعدة "نحن نحكم بالظاهر" فعلينا أن نحسن الظن في ذلك الشخص الذي نطق بكلمة التوحيد.

روي عن سيدنا أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه قال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً إِلَى الْحُرَقَاتِ فَنَذِرُوا بِنَا فَهَرَبُوا فَأَدْرَكْنَا رَجُلًا، فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَضَرَبْنَاهُ حَتَّى قَتَلْنَاهُ فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "**مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**" فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا قَالَهَا مَخَافَةَ

(٨٤) سنن الترمذي، الإيمان، ١٧؛ الطيالسي: المسند، ١/٣٥٦؛ ابن خزيمة: **الصحيح**، ٣/٣٠٤.

السِّلَاحِ! قَالَ: "**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَهَا أَمْ لَا؟ مَنْ لَكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟**" فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أُسْلِمْ إِلَّا يَوْمَئِذٍ"(٨٥).

أجل، من غير المحتمل أن يكون هذا الصحابي الجليل قد انساق وراء مشاعره، فقتل ذلك الشخصَ حقدًا وكرهًا له، ولكن هذا يعني أن سيدنا أسامة ربما لم يستطع أن يعي النكتة الأساسية في هذه المسألة؛ لأن كل الحقائق كانت تتنزّل غضةً طريّةً في ذلك العهد، وسرعان ما يطبقها الصحابةُ الكرام على جناح السرعة، فإن لم يبلّغهم النبي ﷺ بها فمن أين كانوا سيعلمونها! ولذا لما أُخبر النبيُّ ﷺ بصنيع قائده المغوار الحِبّ بن الحِبّ؛ أسامة بن زيد بن حارثة قال له معاتبًا: "**أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ**"، وعندئذ قال سيدنا أسامة: "وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أُسْلِمْ إِلَّا يَوْمَئِذٍ"، وهذا يعني: وددت أني لم أسلم إلا يومئذ حتى لا أتعرّض لمثل هذا العتاب من سيدنا رسول الله ﷺ.

النظر بحسن الظنّ إلى الآخرين

وإذا ما تناولنا المسألة وفقًا لهذه المعايير يمكننا أن نقول: مَن أدّى عباداته بشكلٍ أو بآخر فقد سلك بمشيئة الله سبيل السلامة والأمان؛ لأن النبي ﷺ يقول: "**مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا وَصَامَ شَهْرَنَا، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ لَهُ ذِمَّةُ اللهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ**"(٨٦).

أجل، مَن أدى ما عليه من تلك العبادات التي أشار إليها الحديثُ الشريف فليس بالشخص الذي يُستخفّ به أبدًا.

(٨٥) صحيح مسلم، الإيمان، ١٥٨؛ سنن أبي داود، الجهاد، ٩٥.
(٨٦) صحيح البخاري، الصلاة، ٢٨؛ مصنف ابن أبي شيبة، ٦/٤٢٨.

والواقع أن بعض العلماء قد توقّفوا طويلًا عند مسألة قبول إيمان المقلّد من عدمه[٨٧]، فهم يرون أن المحقق هو الذي يعالج القضايا مذعنًا إلى صوتِ ضميره، معتمدًا على الأدلة والبراهين، أو كما يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: ينظر إليها بعين حدسه ويستمع بأذنه ويتحرّك بمشاعرَ يُنشئها هذا الحدْس، ويقيّم المسائل الإيمانية بهذا الأفق.. أما المقلّد فهو الذي يكتفي بالتقليد فحسب؛ ولذا ربما وصفناه في زمن ما بالمسلم النظري لا العمليّ، ولكن علينا أن نحسن الظنّ أيضًا في مثل هذا الحال، فمثلًا إذا ما رأينا شخصًا في صلاته يحكّ رأسه أو يزيد على ثلاث حركات متواليات؛ فعلينا أن نقول: ربما تراءى لي هكذا"؛ فلعل الله يمتحننا بذلك الشخص، أو يمتحننا بأنفسنا حتى يكشف عن مستوى حسن ظنّنا.

نعم، يا تُرى هل نُمتحن حقًّا بما يقوم به ذلك الشخصُ في صلاته من شدٍّ لبنطاله أو تحريكٍ لعمامته أو غير ذلك!؟ لا ندري! وعلى ذلك ينبغي لنا أن نضع دائمًا حسن الظن في اعتبارنا وأن ننظر بهذه النظرة إلى مَن حولنا.

للصوفية مناهج شتى

ولنرجع إلى موضوعنا الأساس فنقول: إن للصوفية سبلًا ومناهج مختلفةً، ومقامات ومراتب شتى، فمثلًا قد يصل الصوفي إلى منزلةٍ معينة بعد أن يرتقي روحيًّا في مدارج حياة القلب والروح.. وأحيانًا يحدث أن يصل بعضُ العظام أمثال الإمام الرباني (٩٧١-١٠٣٤هـ) ومحي الدين بن عربي (٥٥٨هـ-٦٣٨هـ) والشيخ عبد القادر

(٨٧) التفتازاني: شرح المقاصد في علم الكلام، ٢/٢٦٥-٢٧٢.

الجيلاني (٤٧٠هـ-٥٦١هـ) إلى نقطةٍ ما، وعند ذلك يدركون ماهية أنفسهم ومكانتهم.. ولذا قد يقول بعضُهم: "قدمي هذه على رقبة كل وليّ"[٨٨] رغم أنه يُشدّد على نفسه وقت المحاسبة ويأخذها بالقسوة والتدقيق.. فمثل هذا الكلام يعبر عن وعي هذا الولي بمقامه.. بل إن العوام من أمثالنا قد تنتابه أحوال غريبة تحاكي هذا الحال، إلا أنه ليس هدفًا لنا ولا مطلوبًا، وليُعلَم أنه إن لم يوثِّق مَن هو على هذا الحال صلتَه بربِّه ﷻ فإن مِثلَ هذا الوعي قد يسوقه -نسأل الله السلامة- إلى الأنانية والنرجسية.

أجل، إن بعضَ الأولياء العظام قد يبلغون هذه الذرى وهم على وعيٍ بماهيّة أنفسهم، ويستمتعون بأنهم على وعي بالمقامات التي أحرزوها.. فإن لم يقع هؤلاء في الخطإ بأن لم يُسيؤوا الظنّ بغيرهم أو يستخفّوا بهم فبإمكانهم أن يحتفظوا بمقاماتهم التي وصلوا إليها في تلك الذرى من الحياة القلبية والروحية.

لا أمان مطلقًا لأحد

ليس بيد أحدٍ وإن كان في القمة تفويضٌ أو توكيلٌ يُغريه بعدم الخوف؛ وإذا كان الوضع هكذا فكيف لا يخاف العبد؟ فضلًا عن ذلك يقول رسول الله ﷺ: "**لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ**"[٨٩]، وعلى ذلك يجب ألا ننسى أن مَن لم يخفْ من عاقبته خيف على عاقبته..

ولكم أن تتأملوا في أحوال وأفعال مفخرة الإنسانية سيدنا ومولانا محمد ﷺ؛ الذي أُرسل لإنقاذ البشرية وانبعاثها من جديد. أجل،

(٨٨) المناوي: **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، ٦/١٦؛ ابن العماد: **شذرات الذهب**، ٦/٣٣٤.
(٨٩) **صحيح ابن حبان**، ٢/٤٠٦؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٢/٢٢٣.

لقد استطاعت البشرية أن تنبعث من جديد وتنفتح على آفاقها بفضل تشريفه ﷺ ودعوته، إنه أبٌ معنوي للبشريّة جمعاء، ولعلّ قوله ﷺ: "كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَد"(٩٠) يشير إلى هذا الأمر؛ بمعنى أن ولد آدم سبق آدمَ عليه السلام في الرتبة والمنزلة، ومع ذلك إذا ما نظرنا إلى دعاء النبي ﷺ ومناجاته لأدركنا مدى خشيته لربه سبحانه وتعالى، فرغم ما بيده من تعهّدٍ وضمانٍ بغفرانِ ذنوبه(٩١) إلا أنه كان يستعيذ بالله من كثيرٍ من الأمور، ولذا فإن احترامنا له يقتضي أن ننسب فعله هذا إلى كونه الرائدَ والمرشدَ؛ بمعنى أنه يعلّمنا ويرشدنا بهذه الأدعية إلى كيفية الدعاء، ولكن لا يعني ذلك أن أدعيته ومناجاته كانت لمجرد إرشاد أمته، بل كانت تعبر عما يشعر به من إخلاص وصدق وخشية من الله تعالى.

كُنْ بين الناس فردًا من الناس وإن كنتَ في القمة

وثمة نوعٌ آخر من الولاية، وهو أن يعتبر الإنسانُ نفسه من آحاد الناس وإن طاف بين القمم أو وصل إلى منازل تَحار لها العقول.. ومن وصلوا إلى هذه المرتبة من الولاية لا يستخفّون بأحد، ليس هذا فحسب بل يواجهون أنفسهم ويحاسبونها ويجاهدونها، وهذا النوع من الولاية يُعدّ من جهةٍ أعظمَ قيمةً وقدرًا من الولاية السابقة.

يقول سيدنا عمر رضي الله عنه: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا"(٩٢)، والحقُّ أن على الجميع أن يحاسبَ نفسه، وأن يقيّد في دفتر حافظته

(٩٠) **مسند الإمام أحمد**، ٢٠٢/٣٤؛ ابن أبي شيبة: **المصنف**، ٣٢٩/٧؛ الطبراني: **المعجم الكبير**، ٣٥٣/٢٠.

(٩١) ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (سورة الفتح: ٢/٤٨).

(٩٢) **سنن الترمذي**، القيامة، ٢٥؛ ابن المبارك: **الزهد والرقائق**، ١٠٣/١؛ ابن أبي شيبة: **المصنف**، ٩٦/٧.

ما جال بخاطره، وانغرز كالحربة في خياله من أفكارٍ قبيحة بغيضة كدَّرتْ ذهنه، وأن يقلّب النظر فيها قبل النوم، ثم يقول: كم أنا إنسان وضيع، كيف أسمح لهذه الأفكار القبيحة بأن تراود ذهني والمفترض أن يكون ذهني بمنأى عنها.

أجل، على الجميع أن ينظر إلى نفسه ويرى نفسه دون الآخرين، ولا يسيء الظنّ بأحدٍ، كأن يقول مثلًا: "لقد اكتفى هذا الشخص بالجانب النظري لا العملي من المسألة، فمعرفته لا تتعدى المسائل الفقهية البسيطة التي يعلمها الكل"؛ لأن النفس -كما يقول الأستاذ النورسي رحمه الله- أدنى من الكل والوظيفةُ أسمى وأعلى من الكل(٩٣).. وقد عبر وليّ من أولياء الله عن هذه الحقيقة نفسها قائلًا:

كلُّ عبدٍ هو مثمرٌ وَحَسَنٌ صحيح
وَوَحْدِي أَنَا العقيم وَوَحْدِيَ الْقَبِيحُ

أجل، من اشتغلَ بأخطائه لا يستخفّ بأحد، ولا يظنّ سوءًا بغيره، فإذا ما نظر إليه لا تساوره أفكارٌ وأوهام من قبيل: "لماذا لا يستغرق في الصلاة حتى ينسى القيامَ من السجود، لماذا لا ينسى أن يفطر إذا ما حلّ وقت الإفطار؟".

ولعل الأفكار التالية هي التي يجب أن يفكر فيها أصحاب الدقة العالية في معايشة الدين إذا ما فكروا في أنفسهم: "الواقع أن ما أتمتّع به من إمكانيات يوجب عليّ أن أقوم بما أقوم به، فكم من الناس لم يعطوا هذه الإمكانيات والقدرات فلم يرتبطوا بكتاب ربهم ارتباطًا وثيقًا، ولم يصلوا إلى عين ماء الحياة أو المنهل

(٩٣) بديع الزمان سعيد النورسي: **الشعاعات**، الشعاع الرابع عشر، ص ٤٥٦.

العذب المورود، ولم تتوافر لديهم الكتب النورانية التي بحوزتنا، ولم يتعرّفوا على أولياء الله من أمثال عبد القادر الجيلاني، والشاذلي، ومصطفى البكري... ومن ثمّ فعليّ أن أعبد الله تعالى بما يتوافق مع ما أسبغه عليّ من نعمٍ لا حقَّ لي فيها ولست جديرًا بها، وإن خالفتُ هذا الأمر سقطتُ في الهاوية".

فلو قرّب الله تعالى إنسانًا من باب حضرته الإلهية فهذا يعني أن ذلك الشخص تقع عليه -من حيث التكليف الشخصي الذي لا يتعدى إلى غيره- مسؤولياتٌ أكبر وأعباءٌ أعظم.. يقول فضيلة الأستاذ النورسي في رسالته "الإخلاص": "من قصّر في الإخلاص التام فقد هوى من على برجِ الخلّة العالي، ولربما يتردّى في وادٍ سحيق؛ إذ لا موضع في المنتصف"[٩٤].. بمعنى أن الغنم بالغرم، فمن أخذه الله تعالى إلى حضرته، وأطلعه على بعض الغيب ثم لم يؤدّ ذلك حقّه فلن يعامل ألبتة معاملة الذين يقفون في الدهليز أو قاعة الاستقبال العامة، بل وربما يُرمى به إلى الخارج، ومن هنا نفهم سببَ عتاب الله تعالى لسادتنا الأنبياء العظام المحفوظين بالحصانة الإلهية والعصمة الربانية؛ لأن الفضائل التي حظوا بها عظيمةٌ للغاية.

اشتهاء العبادة

يُعتَبَرُ التصوُّف مسلكًا مهمًّا للغاية، وذلك لأن أربابه راعوا الجانبَ العملي من المسألة؛ بمعنى أنهم ربطوا ما يقومون به من أعمالٍ بالحياة القلبية والروحية؛ فمثلًا إن جعلْنا العبادة جزءًا

(٩٤) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الحادية والعشرون، الدستور الرابع، ص ٢٢٤.

من طبيعتنا اشتدّت رغبتُنا في العبادة بقدر رغبتنا في الطعام والشراب، وعندئذ يتحقّق ما نُسميه بـ"التعمّق الإيماني". أجل، إن جعلْنا الأمورَ الإيمانية جزءًا من فطرتنا تشكّلَ لدينا اشتهاءٌ لهذه الأمور، وهذه هي حقيقةُ الأمر.

يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "انسلّ من الحيوانية، ودَع المادية، وادخلْ مدارجَ حياة القلب"[٩٥]؛ بمعنى أن للقلب والروح مدارجَ حياةٍ تعلو الجسمانية والنفسانية، وهذا أمرٌ لا يجوز إهماله ما دام بإمكاننا أن نحرزه بالتدبّر والتذكّر والتفكّر والعمل.

لقد بذل الملايين من الأصفياء والأولياء والأبرار والمقربين حتى الآن جهودًا عظيمة في هذا الأمر بعزمٍ وثباتٍ نبويّ، فوصلوا بفضل من الله وعنايته إلى مرتبة حقِّ اليقين -وإن كان الإمام الرباني له رأي آخر في هذا الشأن[٩٦]-، فحوّلوا النظريّ إلى عمليّ، ولم يكتفوا بسماع اسم "العسل"، بل تذوقوه، وأدركوا ماهيته، فمهما قالوا وصوروا لكم "العسل" فلن يمكنكم أن تتعرفوا على مذاقه الحقيقي دون أن تضعوه في أفواهكم وتطعمَه ألسنتكم، وكذلك الجنة إن صُوّرت لكم بشكلٍ يَخلُب الألباب أو حتى قيل لكم: "إن رؤية الجمال المقدس والكمال المنزّه للذات الجليلة سبحانه وتعالى[٩٧] تساوي ساعةٌ منها ألفَ ألفِ سنة من نعيم الجنة"[٩٨]، فلن يمكنكم أن تستوعبوا معنى هذه الأشياء إلا بمعايشتها.

(٩٥) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة السابعة عشرة، المذكرة الرابعة عشرة، ص ١٨٨.

(٩٦) انظر: الإمام الرباني: **المكتوبات**، ١/٥١٣-٥١٤ (المكتوب-٢٧٧).

(٩٧) انظر: **صحيح مسلم**، الإيمان، ٢٩٦-٢٩٨؛ **سنن الترمذي**، صفة الجنة، ١٦.

(٩٨) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة الثانية والثلاثون، الموقف الثالث، ص ٧٥٩-٧٦٠.

وهكذا المسائل المتعلقة بحياة القلب والروح لا تُفهم أبدًا إلا بمعايشتها، وقديمًا قالوا: "من لم يذق لم يعرف"؛ بمعنى أن على الإنسان أن يذوق بنفسه حياة القلب والروح ويعايشها حتى يفهم ما هي.. وعلى ذلك فالمؤمنون بالمعنى الحقيقي هم أبطال القلب والروح، ولا يُفهم من كلامي أننا نستخفّ بإيمان غيرهم من المؤمنين؛ فإنه لا ينبغي لأحد أن تساوره شبهةٌ في إيمان أيِّ مؤمن، وليس المراد هنا سوى إيضاح تعمّق الإيمان وسعته في أفق أبطال القلب والروح.

سلطان القلوب

سؤال: يُذكر في كتاب "المثنوي العربي النوري" للأستاذ النورسي رحمه الله أن سلطنة النبي ﷺ وما تتميز به من العظمة والرحابة ليست سلطنته على الظاهر فقط، بل له سلطنة باطنية أرحبُ وأعمق من ذلك تجذب القلوب وتجلب العقول له[٩٩]، فماذا تعني هذه السلطنة الباطنية؟

الجواب: استطاع النبي ﷺ بأمرِ الله تعالى له وتكليفِه إياه وما عهد إليه من رسالةٍ أن يضع نظامًا يحقِّق التوازن على الأرض ويلبي كلّ متطلبات الإنسان الفردية والأسرية والاقتصادية والإدارية، وهذا مظهرٌ لتجلّي سلطنته الظاهرية صلوات ربي وسلامه عليه، وأما سلطنته المعنوية -التي أُسستْ عليها سلطنته الظاهرية المذكورة- فلقد خصّ الله بها صاحب مقام الجمع سيد الأنام ﷺ، وأرسله إلى العالم مزوَّدًا بهذه التجهيزات، ووضع على يديه في الأرض نظامًا تنشده الطوبيا ولا تتصوّره العقولُ.

تجلّي اسم الله الباطن

وإن هذه الأعمال الظاهرية للمرشد الأكرم ﷺ تتجلّى من اسم الله الظاهر.. وما إن يُطلق اسمُ "الظاهر" حتى يرد اسم "الباطن"، والحقُّ

(٩٩) بديع الزمان سعيد النورسي: **المثنوي العربي النوري**، الرشحات، الرشحة السابعة، ص ٧٥.

أن أسماء الله تعالى الأربعة (الأول والآخر، والظاهر والباطن) بمثابة خلاصة الأسماء الحسنى كلها؛ بمعنى آخر: إن جميع أسماء الله الحسنى ترجع إلى هذه الأسماء الأربعة.

وإن للنظام الذي وضعه مفخرةُ الإنسانية ﷺ على الأرض ويغبطه عليه الجميع حتى الملائكة أبعادًا وأسسًا معنوية تُعدّ تجليًا لاسم الله "الباطن"، غير أن الحفاظ على وجود هذا النظام ودوام حيويته ووظيفته منوطٌ بمتانة الأركان الإيمانية والإسلامية، وشعورِ الإحسان، وإن أيّ نظامٍ حقوقي وإداري يُهمل هذه الأسَس، ويغفل عن الأبعاد المعنوية للإنسان، ويتناوله من النواحي الجسمية فحسب لا يمكنه أن يحقق النجاح بما وضعه من قوانين، ولا أن يحول دون وقوع الجرائم التي تهدّد أمنَ المجتمع وسكينتَه مثل السرقة واللصوصية، ولا أن يلبي متطلّبات الإنسان الفردية والأسرية والاجتماعية.

أجل، لا يمكن للبشر الوصولُ إلى الطمأنينة الحقيقية في ظلِّ نظامٍ يُنكَر فيه الله تعالى، ولا يُؤمَن فيه بالملائكة، ولا يُعترَف فيه بالبعث والنشور؛ لأن للإيمان معاني خاصة يبثّها في الأفئدة ويخاطب بها قلوب وعقول الأطفال الذين يتميّزون بالحساسية المرهفة والرقّة البالغة، وأذهانِ الشبابِ الذين يعيشون عهدًا تفور فيه نوازعُهم البشرية، والمرضى المصابين بعلل متنوّعة، والشيوخِ الذين ينتظرون على حافة القبر.. فكما نستطيع بإيماننا أن نكبح أطماعنا وأحقادنا وضغائننا يمكننا أن نسير آمنين مطمئنين في طريق الخلود دون أن نتردّى في مستنقع اليأس إزاء الفناء والزوال.. وهكذا فإن جعل كل الأركان الإيمانية روحًا للحياة وتحقيقها في إطار أفق الإحسان؛

من الأمور التي تشكّل الجانب الباطني لهذا النظام المبارك الذي جاء به ووضعه سيدنا رسول الله ﷺ.

وكما حاولتُ أن أوضح في بداية حديثي فإن سلطنة فخر الكائنات محمد ﷺ ترتكز على التأييد الإلهي؛ بمعنى أن الله تعالى قد وجّه القلوب إلى سيد السادات صلوات ربي وسلامه عليه لعدة أسباب نعلمُ بعضَها ونجهلُ بعضها الآخر، ثم شاءت إرادته سبحانه أن يستمر ويمتد هذا التوجه له ﷺ.. وإن هذه المحبة المفرطة وتلك التبعية المطلقة من سادتنا الصحابة رضي الله عنهم لسيدنا رسول الله ﷺ في عصر السعادة النبوي وتوجُّهَ المؤمنين له حتى الآن رغم كل هذه التجاوزات والاعتداءات الوحشية الغاشمة ما كان لها أن تدوم إلا بذلك التوجه والتأييد الإلهي.. بل إن معظمَنا في هذا العصر؛ عصر الكوارث والنوازل ما زالَ يحبّه ويعشقه ﷺ بفطرته حتى قبل أن يبلغَ راشدًا.

حبيب القلوب

وأريد هنا أن أنقل لكم هذه الحادثة الحيّة على سبيل الاستطراد: "قال لي أبي رحمه الله ذات يومٍ وأنا حينذاك ابن السابعة أو الثامنة من عمري: "إن قرأتَ سورة الإخلاص ألف مرة يوم الخميس استطعت أن ترى سيدنا رسول الله ﷺ في المنام".. وقد فعلت، ولا أعلم بناءً على أي فكرة أو شعور أو تصرُّف فعلتُ هذا، ولكنني أذكر أنني ظللت أقرأ حتى الصباح سورة الإخلاص حرصًا على رؤية جمال نور سيدنا رسول الله ﷺ، وظللتُ محافظًا على قراءتها على أساس أنني إن لم أره اليوم رأيته غدًا وهكذا.

نعم، لم يستطع البعض أن يتعرف عليه وعلى سماحته أو يقدِّر آثاره حقّ التقدير، لكن ورغم أنه نشأ في بيئة فاسدة جدًّا، فإنه ما زال يحمل حبًّا وانفعالًا في قلبه تجاه سيدنا رسول الله ﷺ، وسبب هذا لا يمكن أن يكون إلا امتدادًا لسلطنته ﷺ حتى اليوم. أجل، لقد جعله الله تعالى حبيبًا للأفئدة وسلطانًا للقلوب، وحبّبه إلى الأمة المحمدية كلها، وهذا أمرٌ لن يتسنى لبشر آخر، ولن يحظى به غيره.

ومن ثمّ فإن سيد الكونين ﷺ ليس "حبيبَ الله" فحسب بل "حبيب عباد الله" أيضًا.. فالناس بوعيٍ منهم وبغير وعيٍ يشعرون بالحبّ والعشق تجاهه ﷺ، بل إن التجاوزات المحتملة التي قد تُعكِّر صفوَ الذهن والقلب بسبب ما يطرحه شياطينُ الجن والإنس من كلماتٍ نابية مستهجنة في حقه ﷺ لا يمكنها أن تقف حجر عثرة أمام ذلك السيل الجارف من الحبّ لسيدنا رسول الله ﷺ، فما زالت القلوب المؤمنة تشعر بحبٍّ عميق له دون مبالاة لكل ما يُقال؛ لأن فريد الكون والزمان ﷺ قد مثّل الإيمان والعمل الصالح على أكمل وجه، وعاش حياته كلها في أفق الإحسان كبطلٍ كامل للإحسان، ووضع الله تعالى له وُدًّا تامًّا في الأرض والسماء، فليست هناك سلطنة أخرى تعادل هذه السلطنة على وجه الأرض؛ وعلى ذلك يجب أن نعلم أن هذا الوضع وذلك الحال ما كان له أن يكون إلا بتأييدٍ خاص من رب الأرض والسماء سبحانه وتعالى.

وكل السلطنات التي أقامها المحرومون من التأييد الإلهي زالتْ وانهارتْ بزوالهم، فسلطنةُ يوليوس قيصر (١٠٠-٤٤ق.م) وهتلر (١٨٨٩-١٩٤٥م) ونابليون الأول (١٧٦٩-١٨٢١م) وغيرهم

قد انهارت بانهيارهم، كما أن سلطنات المنافقين وإن دامت فترةً من الزمن فإنها ذبلت في النهاية كالشمعة وانمحت، غير أن نور فخر الكائنات ﷺ ما زال يُضيء كل الأنحاء منذ الزمن الغابر.

أجل، إن محبتنا له ﷺ ستظلّ دائمًا ولن تُطفئها بإذن الله وعنايته أيُّ ريحٍ معاكسة.

المرشد الأكمل في كلّ مجالات الحياة

سـؤال: ﴿لَقَدْ مَـنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٦٤)، **فكيف ينبغي لنا أن نفهم هذه السـمات التـي عدّدتها الآية الكريمة للنبي ﷺ؟**

الجواب: يستهلّ الله تعالى هذه الآية بقوله: "لَقَدْ مَـنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"، وهو بذلك يلفت الأنظار بدايةً إلى ذلك التفضّل العظيم والعطاء الجزيل الذي منّ به على عباده؛ بأنْ أرسل إليهم رسولًا منهم ومن أبٍ وأمٍّ مثلهم وليس مَلَكًا من السماء؛ وهذا مِن عظيم فضله وإحسانه ومنّته على الناس. أجل، لقد تفضّل الله عليهم برسولٍ منهم ومن أنفسهم يشاركهم أفكارَهم ومشاعرَهم، ويقودهم إلى طريق الخير، فإذا ما احتاجوا إلى إمام تقدّمهم، وإن احتاجوا إلى قائدٍ بيّن لهم كيف تكون القيادة النموذجية، والحاصل أنه كان رائدهم في كلّ مناحي الحياة ومرشدهم في كلِّ لحظة ينشدونه فيها، فيا له من شرفٍ عظيم بالنسبة لنا أن يرسِل لنا ربُّنا من بيننا مثل هذا النبي العظيم! فكيف لا يبالي المؤمنون بهذه النعمة الإلهية؟! وهي نعمةٌ ليست بالبسيطة، وشكرُها يكمن في أدائها بحقّها.

ثـم يقـول تعالـى: "يَتْلُـو عَلَيْهِـمْ اٰيَاتِـه"؛ أي يتلـو علـى المؤمنيـن، واللافـت هنـا أن الله تعالـى عبّـر بـ"التـلاوة" وليس القـراءة أو العرض أو التقديـم، وهـذا أمرٌ في بالـغ الأهمية؛ إذ تعني التلاوةُ القراءةَ تباعًا وعلى الـدوام، كما أنه فضّل استخدام صيغة الفعـل المضارع "يتلو" لزيـادة التأكيـد علـى الديمومـة؛ لأن صيغة المضارع تـدلّ على الزمن الواسـع، وعلى ذلك فإذا ما نظرنا إلى المسألة من حيث حياته السنية فسينكشف لنا المعنى التالي: إنه ﷺ يداوم على تلاوة آيات الله عليكم مستعينًا بتنوّع الأسـلوب فـي القرآن الكريم حتـى لا تُصابوا بالملل، ولا يسـيطر عليكـم الإلفُ والتعوّد.. فيعـرضُ عليكم القضايا مرةً تلو أخرى وبأشكالٍ مختلفة حتى تُحافظوا على نشوتكم وحيويتكم.

ولنـا أن نسـتنبط المعنـى التالـي مـن الآية: كما كان سـيد الكونين ﷺ يتلـو آيـات الله عليكـم في حياته فسـيظل يتلوها أيضًا حتى بعد أن يرحـل إلـى أفـق روحه؛ ولذا يمكن أن يُقال إن هذه إشـارة أيضًا على أن القرآن محفوظ بالنبي ﷺ في حياته وبعد رحيله إلى ربه ﷻ.

ولكـم أن تربطـوا هـذا الأمر بـ"المنّة" التي تحدثـتْ عنها الآية في البدايـة؛ بمعنـى أن الله تعالى منّ عليكم بإرسـال رسـولٍ يواظب على تـلاوة آيات ربه سـبحانه، ولا يكتفي بهذا، بـل "وَيُزَكِّيهِـم"، أي يبيّض وجوهكـم، وينقّـي سـرائركم، ويزكّـي نفوسكم، ويصفّـي قلوبكـم، فتتجولـون بارتيـاحٍ فـي تـلال القلـب الزمردية[١٠٠].. وكلّ هـذا منوطٌ بتزكيته هو ﷺ لكم؛ ولا يتأتى إلا في ظل دعوته.

(١٠٠) للمؤلف كتاب في المصطلحات الصوفية والحياة القلبية والروحية بعنوان **"التلال الزمردية نحو حياة القلب والروح"** في أربعة أجزاء. (الناشر)

مشاهدة الوجود من أفق الحكمة

ثم يقول سبحانه: "وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ"؛ أي يعلّمهم بدايةً القرآنَ المعجز البيان، أي الآيات البينات، والقول الشارح والتفسير الواضح والبرهان القاطع والترجمان الساطع للأوامر التكوينية والتشريعية وبتكراره ﷺ لهذه الآيات يمزّق -كما يقول الأستاذ النورسي رحمه الله- غطاءَ الألفة وستار العادة الملقى على موجودات الكون قاطبة، ويوجّه الأنظار إلى الحوادث والأشياء؛ بخلفياتها وجوانبها الميتافيزيقية، وأبعادها الروحية، ويعلّمكم في الوقت ذاته الحكمة.

وللحكمة معانٍ متعدّدة؛ منها الاطّلاع على باطن الأشياء وخلفيّاتها، والوقوف على المقاصد والمصالح في خلق الله للكون والإنسان، ومعرفة أن كلّ شيء في الكون موضوعٌ في نصابه، وليس فيه من عبث.

وتُطلق الحكمة أيضًا على السنة السنيّة للصادق المصدوق ﷺ؛ لأن القرآن مفعمٌ بحكمٍ تعجز أمامها العقول ولا تملك إلا أن تذعن وتُسلِس له قيادَها، فجاءت السنة الشريفة؛ ففصّلت القضايا الإجمالية في كتاب الله تعالى سواء ما يتّصل منها بالحياة الفردية أو الاجتماعية أو الأخروية، ولقد تناول شمسُ الفضيلة صلوات ربي وسلامه عليه الآيات البينات ففصّل مجملها، وقيّد مطلقها، وخصّص عامّها، ولم يدع جانبًا غامضًا فيها؛ مما دعا بعض المفسرين إلى أن يُفسّروا "الكتاب" في الآية بـ"القرآن"، و"الحكمة" بـ"السنة" الشريفة[١٠١].

(١٠١) الطبري: **جامع البيان في تأويل القرآن**، ٨٦/٣.

وفي ختام الآية يقول ﷻ: "وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ"؛ أي إنكم كنتم في ضلال مبين حتى تنزلت عليكم النعم التي منّها الله عليكم زخًّا زخًّا.. ويمكن أن نفسر "الضلال" هنا: بمعنى عدم التمسّك بالقرآن، والحرمان من التزكية والآيات البينات والحكمة، والنظر إلى الكون بنظرةٍ وضعيّة طبيعية، وردّ كل شيء إلى الطبيعة، بيد أن الذين يبحثون عن كلّ شيء في المادة قد انحدرت عقولهم إلى عيونهم، والعين لا تبصر المعنويات.

وهكذا يمزّق القرآن الحكيم هذا الحجاب؛ بمعنى أنه يكشف عن حقيقة كل شيء، أي لا يدع الأمر للبصر، بل يُحيله إلى البصيرة، ولا يقتصر على العقل، بل يجعل العقلَ محكومًا بالقلب، ثم يستأمن على العقل موازين القلب السليمة، وهكذا تُواتي الإنسانَ فرصةُ رؤية وفهم كل شيء على ماهيته الحقيقية، أي يحظى بمشاهدة الحوادث والأشياء من أفق الحكمة.

وهذا كلّه بعض قطراتٍ من سلطنته المعنوية ﷺ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه بقدر ما استوعبته العقول ووسعته القلوب، ولا تحرمنا اللهم من دائرة سلطنته لا في الدنيا ولا في الآخرة.

سلامةُ خطّ السير

سؤال: ما هي الأسس التي تنبني عليها سلامة خطّ السير بالنسبة للفرد والشخصية المعنوية؟

الجواب: نقصد بخطّ السير هنا ذلك الطريق الذي يوصّل الإنسانَ إلى المكان الذي يتوجّب عليه الذهاب إليه أو الهدف الذي ينبغي له الوصول إليه.. وقد يكون هذا الهدف دنيويًّا أو أخرويًّا، غير أن الأهداف الدنيوية لمّا لم تكن غاية وهدفًا للفرد المؤمن فإنه يستغلها لصالح الأهداف الأخروية في سيره إلى عالم الخلود.

الرضا هو الهدف الأوحد

فمثلًا إذا ما عُهد إلى القلب المؤمن بمسؤولية القيام بأمر قريةٍ من القرى فلا يكون أو لا ينبغي أن يكون مقصدُه من هذا العمل بعض الرغبات والأهواء البسيطة كأن يحوز سلطة مادية أو يُشبع رغبة حب المنصب عنده، بل على العكس فهو يسعى ويكدّ حتى يحقق السعادة الدنيوية والأخروية لأهل القرية ابتغاءً لرضا الله تعالى، فمثلًا يواصل ليله بنهاره، وينشئ المدارس والمساجد والمكتبات وغير ذلك من المؤسّسات التي تستفيد منها القرية، ويوجّه أهلها إلى الأهداف العالية السامية، وبذلك يُنشئ أفرادًا نافعين لأمتهم وللإنسانية جمعاء؛ فإذا ما اتسعت صلاحياته أوفى بحقّ منصبه، وسعى إلى إيصال مخاطبيه إلى المُثُل العليا السامية، وإلا فلا أهمية

للمقام والمنصب بالنسبة له؛ لأن الدنيا -بمحض دنيويتها- لا تعدل جناح بعوضة؛ يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**"(١٠٢)، إلا أن أهمية الدنيا تأتي من كونها مرآة للأسماء الحسنى، وطريقًا إلى الآخرة والجنة ورؤية جمال الله سبحانه وتعالى والسير في أفق الرضا الإلهي.

وعلى ذلك فإن الرضا الإلهي هو الغاية الأساسية بالنسبة للمؤمن، وأعظم الأهداف التي يبتغيها في كلِّ عملٍ أو أمرٍ يقوم به، يلي ذلك الهدفَ بعضُ الوسائل التي تبلغ مستوى الغاية مثل تعريف البشرية بمفخرة الإنسانية سيدنا محمد ﷺ، وتحبيبهم في دين الإسلام المبين، وحتى وإن لم نصل إلى الغاية بهذه الوسائل الشبيهة بها والقريبة منها فإن الأساس هو رضا الله.

وهكذا فخطّ السير هنا يعني الطريق الذي يوصّل الإنسان إلى مثل هذا الهدف السامي، فإن أراد الإنسان أن يسير في طريقه دون أن تعترضه عراقيل أو معوِّقات فعليه أن ينظر إلى كل شيء نظرةً شمولية إجمالية، وأن يحدد الأخطار والمهالك مسبقًا؛ وبذلك يؤمِّن طريق الوصول إلى ذلك الهدف، ولا يعترضه شيء.

مشكلة الحقد والحسد التي بدأت مع الشيطان

وعلى الإنسان أن يتوخّى المزيد من الحيطة والحذر إن كان عازمًا على القيام بفعاليات وأعمال خيّرة جادة، تعود بالنفع على الإنسانية، تبهر العيون ويغبطه الناس عليها، وعليه أن يضع في اعتباره أنه لا يوجد وقتٌ يخلو من الحسّاد الحاقدين الذين تفور

(١٠٢) سنن الترمذي، الزهد، ١٣؛ سنن ابن ماجه، الزهد، ٣.

صدورُهم كصهارة البركان غيظًا وحقدًا، وألا يغيب عن ذهنه أنه من الممكن أن يثير غيرة صاحبٍ له يشاركه الدرب نفسه، فيضطره إلى أن يقول في نفسه: "لماذا هو ولم أكن أنا؟".

أجل، قد يكون هناك مَن يشاركك المضمار نفسه، ويوسوس له شيطانه أحيانًا أن يحسدك على نجاحاتك، ويرى أنك تنافسه وتزاحمه في دائرته، ومن ثم يعتبر نفسه أليق بالأعمال التي يقدّرك الناس بسببها ويصفقون لك.

ولقد بدأ الحسد الأولُ لأهل الخير والجمال مع الشيطان الذي كشف عن غيظه وحقده وكرهه وغيرته وحسده لسيدنا آدم عليه السلام.. وفي هذا يقول الكاتب المسرحي الألماني "جوته (*Goethe*) (١٧٤٩-١٨٣٢م)" إن مسرحية "فاوست-مفستو" لم تنتهِ بعد؛ بمعنى أن الإنسان والشيطان سيظلان عدوين على الدوام، بل إن من شياطين الإنس مَن يُسلِس قياده لشياطين الجن، وفي هذا السياق استعمل القرآن الكريم تعبير: ﴿شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ (سورة الأَنْعَامِ: ٦/١١٢)، ويُقصد بشياطين الإنس الذين يتحركون بناءً على وساوس الشياطين، وينظمون حياتهم وفقًا لها.

والآن يجب على الأرواح التي نذرت نفسها للخدمة أن تراجع طريقها وخطَّ سيرها مرة بعد أخرى لأن الأعين الغادرة تراقبهم وترصد طريقهم؛ وبعبارة أخرى: على الإنسان أن يُعمِل فكره في بعض الأحداث التي من المحتمل أن تعترض طريقه حتى لا يتصادف بأي مشكلة في الطريق الذي يسير فيه، وأن يؤمّن الأعمال الجميلة التي يقوم أو سيقوم بها واضعًا في اعتباره الوسيلة التي سيسير بها والكيفية التي يسير عليها، وهذا يعني تحقيق سلامة الطريق.

أعظم الأمانات

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ**"(١٠٣)، والنبي ﷺ بقوله هذا يكلّف هذه القلوب المؤمنة مسؤولية مهمة، لدرجة أن فتح إسطنبول الذي بشّر به النبي ﷺ(١٠٤) يظل قطرةً من بحرٍ بالنسبة لِمثل هذا الهدف وتلك المسؤولية، وكما أن مَن يحملون مثل هذه الأمانة إن سلكوا طريقهم دون التفكير في سلامة خط السير يكونون قد خانوا الأمانة، كذلك فإن من يربطون الأمر بمصالحهم ومنافعهم الشخصية، ولا يفكرون إلا في النجاة بأنفسهم يكونون قد ضيعوا الأمانة أيضًا وإن أمّنوا خطّ سيرهم.

أحيانًا قد تثورون وتصرخون بقوة من منطلق إيمانكم أمام ما يقع من ظلم، وقد تكونون صادقين مخلصين فيما تفعلون، ولكن إن أثارت أعمالُكم الضوضاءَ وحرّكت الفتنَ فإنكم بذلك تكونون قد أضررتم بالأمانة دون وعي منكم، ولقد وردَ في الأثر: "**الْفِتْنَةُ نَائِمَةٌ لَعَنَ اللهُ مَنْ أَيْقَظَهَا**"(١٠٥).

من أجل هذا فإن لحقَ الضرر الخدمة الإيمانية والقرآنية من بعض الوجوه فعليكم بدلًا من انتقاد الآخرين واتهامهم بالظلم والجور والإجحاف أن تحاسبوا أنفسكم وتقولوا: "يا ترى ما الخطأ الذي اقترفناه؟ وما الفعل الذي ارتكبناه! أو القول الذي تلفظنا به حتى نبعث في هؤلاء الناس هذه المخاوف التي ليست في محلها؟!".. ومن هنا

(١٠٣) **مسند الإمام أحمد**، ١٥٤/٢٨.

(١٠٤) انظر: **مسند الإمام أحمد**، ٢٨٧/٣١؛ الطبراني: **المعجم الكبير**، ٣٨/٢؛ الحاكم: **المستدرك على الصحيحين**، ٤٦٨/٤.

(١٠٥) السيوطي: **الجامع الصغير**، ٨٤٥٥/١.

يتوجب على عشاق الخدمة أن يقتدوا بالرعيل الأوّل، وهم ساداتنا الصحابة الكرام ﭫ، وأن يعملوا على تمثيل الإسلام على الوجه الأكمل، وأن يُعبّروا بحقٍّ عن الحقيقة المثلى التي يمثّلونها، وأن يفتحوا قلوبهم على العالم، حتى تنفتح لهم القلوب فيتربعون فيها.

وإلا فإن استعان الإنسان بالشِّدة والغلظة في ابتغاء الحقّ فقد سلك طريق الشر دون وعي منه رغم أنه يحسب أنه يسعى في طريق الخير.. ولذا -بالله عليكم- أفيدوني هل صدر من النبي ﷺ إشارة آذى بها إنسانًا وهو الذي ذاق من العذاب والهوان ألوانًا!؟ لقد عاش مضطهدًا في مكة ثلاث عشرة سنةً كاملة وتحمل شتى صنوف العذاب والتنكيل، ومع ذلك لا يستطيع أحدٌ أن يقول: "إن رسول الله ﷺ قد وطِئ بقدمه ولو نملة".

أجل، لقد بعث الأمن والثقة في نفوس الجميع من أدناهم إلى أقصاهم، ولم يكن عاملًا في إثارة الفتنة ألبتة.

مسؤوليةٌ تصل إلى حدّ الفرض

وهكذا فعلينا مراعاة كلّ ما سبق؛ إذ يخيَّل إليّ أن تأمين خطّ السير من باب فرض العين -وإن كان من الممكن أن يعترض بعضٌ من فقهائنا الكرام في أيامنا على هذا الرأي- بمعنى أن توصيل هذه الأمانة إلى موضعها في أمنٍ وأمانٍ مهمةٌ بالغة الأهمية والخطورة؛ فإن لم نتحرَّ الدقة البالغة في كل شيء، ولم نضع حسابًا للمخاطر المحتمل أن نصادفها في كلِّ مرحلة من خطّ سيرنا، ولم نستشفّ معاني النظرات التي يرسلها إلينا مَن حولنا فهذا يعني أننا لم نقم بمسؤولية الأمانة الملقاة على عاتقنا. أجل، إن هذه المسألة تتطلّب

مثل هذا القدر من الحساسية، فلا تستقيم معها الشهرة، ولا التعبير عن النفس، ولا التشوّف لأيّ أجرٍ دنيويّ.

وكما يقول فضيلة الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي: "ففي هذا الموضوع لا وجود لسعيد، ولا وجود لقابلية سعيد وقدرته، فالحقيقة هي التي تتحدث عن نفسها.. نعم، الحقيقة الإيمانية هي التي تتحدث"[(١٠٦)].. ومن ثم فعلى الجميع أن يقول: "لا وجود لي ولا ماهية، فإن كان من المتوقع أن يضر وجودي وأفكاري ورؤيتي العامة وأنانيتي بهذه الغاية ولو مثقال ذرة فليسترد الله أمانته، ولكن إن كانت حياتي ستفيد في خدمة دين الإسلام المبين وتحقيق هذه الغاية السامية؛ فاللهم بارك لي في عمري حتى أحقق هذه الخدمة ولو بقدر ذرّة".

أجل، لا بد أن تكون لدينا الشجاعة لقول مثل هذا الكلام، ويجب أن يرتبط القلب المتفاني بهذه الفكرة بشكلٍ كامل، وأن يمحو نفسه كليّةً، ويتحرك وهو في غاية التواضع والمحو والخجل.

والحقُّ أنه لا خير يُرجى من إنسانٍ يُعلي من شأن "الأنا"، ويترنّم بها مثل طبلة المسحراتي في رمضان، ويرغب في أن يُشار إليه بالبنان، وأن يتحدّث الناسُ عنه، وأن يعتبروا برؤيته العامة وفلسفته الحياتية.. فلا مناص من أن هؤلاء سيُمنَوْن بالفشل غدًا وإن شرعوا في أعمالهم اليوم بهمّةٍ ونشاط.. ولذا فالذي يُعوّل عليه هنا هو محوُ النفس في كلِّ مرحلةٍ من مراحل هذا الأمر من مبدئه إلى منتهاه، فليس الأمر منوطًا بزمنٍ معين.

(١٠٦) بديع الزمان سعيد النورسي: **الملاحق**، ملحق أميرداغ-٢، ص ٣٣٧.

فلو أخطأنا في حقِ هذه الأمانة شعرنا بالخجل والندم في الدنيا والآخرة لأننا قد ضيعناها.

لقد عملتُ قديمًا بالإمامة وأنا ما زلت في ريعان شبابي، وهو أمرٌ يتجاوز حدّي وطاقتي، ثم منّ الله عليّ بوظيفة الوعظ، وإنني دائمًا ما أرجع بذاكرتي إلى الوراء، وأتذكّر خطّ السير الذي كنت أسلكه وما ارتكبتُه فيه من أخطاء، فأقول لنفسي موبِّخًا: "ويلٌ لك! كان الناس ينهالون على كرسي وعظك الذي تجلس عليه، ليستمعوا إليك، فلِمَ لَمْ تتعاطف معهم وتضع اعتبارًا لمشاعرهم؟ ولِمَ لَمْ تفتِّش عن سبلٍ للنفاذ إلى قلوب هؤلاء الناس كما كان يفعل سادتنا؟ لماذا كنتَ تشتدّ على الناس بكلامك وتنزله على رؤوسهم كالمطرقة؟ يا ليتك كنتَ تتحلى بأعلى درجات الرِّقة واللطافة! إلى هذا القدر كنت أوبّخ نفسي وأحاسبها وأدعو عليها بالويل والثبور؛ لأن كل هذا سيحاسبني الله عليه قائلًا: "مننتُ عليك بالإمامة والوعظ، ووجهتُ قلوبَ الناس إليك، فالتفّوا حولك صفوفًا، فلِمَ لم تنفذ إلى قلوبهم، ولم تحبّبهم في دين ربهم؟ ولم تجعلهم مولهين بحب الله ورسوله الكريم ﷺ؟

أجل، لقد ضربتُ مثالًا بشخصي، ولكن على كل مؤمنٍ يتحمّل مثل هذه الأمانة أن يشعر بقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه وقدر الأمانة التي يحملها حتى لا يقول: "لو أني فعلت كان كذا وكذا" غدًا؛ لأن "لو" كما قال مفخرة الإنسانية سيدنا محمد ﷺ: "**تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**"[١٠٧].. فـ"لو" ما هي إلا كلمة لغوٍ ولغط يلجأ إليها الضالون المضلِّون يسلّون بها أنفسهم، وعلى ذلك فهي كلمة محظورة، لا تليق بالمؤمن.

(١٠٧) صحيح مسلم، القدر، ٣٤؛ سنن ابن ماجه، المقدمة، ١٠.

وهناك "لو" الممدوحة، فلا ينبغي أن نخلط بين الأمرين، كقول سيدنا أبي بكر الصديق ﵁: "وَوَدِدْتُ أَنِّي حَيْثُ وَجَّهْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى الشَّامِ وَجَّهْتُ عُمَرَ إِلَى الْعِرَاقِ فَأَكُونُ قَدْ بَسَطْتُ يَدَيْ يَمِينِي وَشِمَالِي فِي سَبِيلِ اللهِ ﷿"(١٠٨)، وكان بعض الصحابة ﵃ يقولون: "وددت أنّي سألت النبي ﷺ عن كذا وكذا..."(١٠٩)، فـ"لو" هذه يبتغي صاحبها المعالي والغايات السامية، فهي كالنية التي يثيب الله الإنسانَ عليها.

أجل، إنّ "لو" هنا تُعبِّر عن تمني الشخص لكمالٍ وغاية سامية تعذر عليه تحقيقها، غير أن ذكر "لو" من أجل التستر على الأخطاء والدفاع عن النفس من الأمور المذمومة، لأنها من قبيل الكلمات التي يوسوس بها الشيطان لصاحبها بأن يقولها إزاء الأعمال التي أغواه بها.

وهكذا علينا أن نكون على وعيٍ وحذرٍ حتى لا نضاعف الذنبَ؛ ذنبَ الأخطاء التي ارتكبناها اليوم، وذنبَ "لو" التي سنقولها غدًا.. لا بد أن نبدأ عملنا باسم الله، مع أخذ الحيطة والحذر في كلِّ خطوة نخطوها، وأن نعمل على أن نسلك طريقًا يوصّلنا إلى مرضاة الله ﷻ.

(١٠٨) الطبراني: **المعجم الكبير**، ٦٢/١.

(١٠٩) أبو يعلى: **المسند**، ٢٠/١-٢٢؛ الطبراني: **المعجم الكبير**، ٦٢/١.

فقه السيرة وصلح الحديبية

سـؤال: ذكرتم فيما سبق أن ثمة أهميةً كبيرةً تصل إلى حدّ الضرورة في تحديدِ نقاطِ الاتفاق بين الأحداث التي حفلت بها السـيرة النبوية والأحداث الراهنة؟ فما الذي يشير إليه صلح الحديبية في يومنا الحالي؟

الجواب: السيرة النبوية مصدرٌ مهمٌّ لا بدّ من الرجوع إليه دائمًا؛ فهي الدليلُ لفهم القرآن الكريم، والتفسيرُ الحيُّ للنصوص القرآنية، وقد كشف لنا النبي ﷺ بحياته المباركة وبأقواله وأفعاله وتقريراته عن ماهية الحياة التي تتوافق مع الوحي الإلهي، كما كان الصحابةُ رضي الله عنهم فصحاءَ بلغاء؛ فأحسنوا قراءة هذين المصدرين القدسيّين الكتاب والسنة، وفهمهما، وتفسيرهما، والتعبير عنهما، وخلّفوا لنا طريقًا تسير عليه الأجيال اللاحقة بهم، وأحسبُ أن خلاصَنا يكمن في الاقتداء بهؤلاء الصحابة الكرام الذين تشرّفوا بقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**إِنَّ مَثَلَ أَصْحَابِي كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ؛ مَنْ أَخَذَ بِنَجْمٍ مِنْهَا اهْتَدَى**"(١١٠).

الزمن: مفسرٌ كبيرٌ

إن الأحداث التي وقعتْ في عصر السعادة النبوي وإن كانت وقائع جزئية فإنها تحفل بإشاراتٍ للأحداث الكلية التي يمكن

(١١٠) البيهقي: **الاعتقاد والهداية**، ٣١٨/١؛ ابن عبد البرّ: **جامع بيان العلم وفضله**، ٩٢٣/٢.

أن تقع حتى يوم القيامة، وكأن بكلِّ حادثة وقعت في هذه الأزمنة قرائنَ من شأنها حلّ جميع المشاكل التي قد تحدُث في الفترات اللاحقة.. وهكذا فمن راعى ظروف زمانه والمستوى الثقافي لمن يعيشون في عهده واستعان بهذه القرائن فمن الممكن أن يتوصّل إلى حلٍّ لمشاكل عصره، كما أن الإنسان اليوم في هذا العالم الذي أصبح كالقرية الصغيرة -بعد التطوّر السريع لوسائل الاتصال والمعلومات- يمكنه التوصل إلى حلولٍ بديلةٍ للمشاكل التي تعترضه إذا ما استطاع الأخذ بهذه القرائن التي كشفتْ عنها الأحداث التي أوردتها السيرة النبوية، ولكن حتى يمكنه القيامُ بهذا الأمر على الوجه الأكمل ينبغي له قراءة السيرة النبوية والتعرّف عليها وتقييمُ العصر الذي يعيش فيه وتحليله.. فلو شئتم ضعوا أمامكم ما تصل إليه أيديكم من كتب السيرة واقرؤوها من بدايتها إلى نهايتها، وانقلوا للآخرين ما قرأتموه، فقد تستطيعون سبر أغوار الحوادث التي جاءت بالسيرة بما حصّلتموه من معلومات، حتى إنكم قد تشعرون في وجدانكم عند حديثكم عن هذا العهد النبوي وكأنكم من أبطاله، وقد تنفعلون بما وقع فيه من أحداثٍ مفجعة، أو تغرقون في سعادةٍ عارمة بما صادفكم من أحداث مُفرحة، ولكن إن اكتفيتم بهذا فقط، ولم تستعينوا بالقرائن التي كشفت عنها أحداثُ السيرة في حلِّ مشكلات عصركم فهذا يعني أن حديثكم لا يخرج عن كونه حكاية ورواية للأحداث التاريخيّة بشكلٍ جميل.

ولا ريب أن هناك مَنْ سبَقَنا في الوقوف على بعض المسائل المتعلّقة بفقهِ السيرة في فتراتٍ مختلفة من تاريخ الإسلام، وحاول تحليلَ بعضِ الأحداث التي وقعتْ في عصرِ السعادة النبوي من وجهة

التاريـخ الاجتماعي، ولكن مِن المسلّم بـه أن هناك فروقًا جذرية من الناحيـة الاجتماعيـة بيـن ظـروف ذلك العصـر وظـروف عصرنا؛ فقد أُهملتْ المفاهيـمُ الفلسـفيةُ التـي ظهـرتْ فـي الماضي وعلـى فتراتٍ مختلفـة مـع مـرورِ الوقت، وبَلِـي بعضُها، وحلّ محلَّهـا أنماطٌ فكريةٌ جديـدة؛ ولـذا لا يمكننـا أن نقول إنّ مـا وقـع من أحداثٍ في الماضي يتوافـق تمامًا مـع أحـداث اليوم وإن كنـا اسـتفدنا مـن تحليـل هـذه الأحـداث الماضيـة؛ ومـن ثـمّ فلا يفقه السـيرةَ وفقًا للظـروف الحالية إلا أبنـاءُ الزمـان أو أبناء الوقت الذين يراعون تفسـير الزمان وهو أكبر مفسِّر، ويضعون حسابًا للتأويلات والتفسيرات التي أتى بها.

وهكذا فإذا ما نظرنا إلى السيرة بهذا المنظور لألفيناها منهلًا عذبًا مورودًا لا بدّ من الرجوع إليه.

أجـل، السـيرة هـي مَعيـنٌ لا ينفـد ولا ينضـب بالنسـبة لحياتنـا الفكريـة، ومـن يسـتطيع الاسـتفادة منهـا يحصل على الشـيء الكثير، فـإذا مـا نظرنـا أيضًـا إلى مسـألة صلـح الحديبية الـواردة في السـؤال لوجدنا هذه الواقعة تزخر بالعديد من الحِكم الصالحة ليومنا الحالي.

شمس الحِلْم تُذيب جليدَ الكُرْه

في العام السادس من الهجرة خرج النبي ﷺ بالمسلمين إلى مكة بقصد العمرة؛ حتى يعلّمهم كيف تُؤدَّى العمرة وفقًا لأسـسِ الإسـلام وروحه، غير أن قريشًـا اسـتخدمت كلَّ قوّتها وشـدتها للحيلولة دون إتمـام هـذا الأمـر، فلمـا اقتـرب النبـي ﷺ من مكة أرسـل إليهم سـيدنا عثمان بن عفان ﷺ ليخبرهم بأن المسلمين ما جاؤوا للقتال بل لأداء

العمرة، فاحتبس المشركون عثمان رضي الله عنه في مكة[١١١]، حتى أُشيع أنه قد قُتل، فما كان من النبي ﷺ إلا أن دعا المسلمين إلى البيعة[١١٢]، وإثر هذه الأحداث ارتفعت حدّة التوتر، وبلغ السيلُ الزُّبَى، ووضعَ الصحابة أياديهم على مقابضِ سيوفهم استعدادًا للمواجهة، لأن النبي ﷺ كان قد وعدهم بأداء العمرة والطواف حول الكعبة، كما أنهم قطعوا على صهوة جيادِهم طريقًا يبلغ أربعمائة كيلومتر، وكابدوا مشقّات ذلك الزمان، ووصلوا إلى مكانٍ قريبٍ من جدة، غير أنهم فوجئوا باعتراض المشركين لهم، فلو كان النبي ﷺ يفكر في نفسه وكرامته وأعطى صحابته إشارةً بالاقتحام فما كان بوسع خالد بن الوليد أو عمرو بن العاص أو جيش المشركين كله الذي يبلغ قوامه عشرةَ آلافِ شخصٍ أن يقف أو يعترض طريق هؤلاء الصحابة المغاوير؛ إذ كانوا قادرين على دحرِ المشركين والوصول إلى مكة، ولكنّ تصرُّفًا كهذا ما كان ليفيد شيئًا بالنسبة لغاياتهم العليا وأهدافهم السامية؛ لأن الطرف المقابل كان مليئًا بأولئك الذين سيكتب الله لهم الهداية لاحقًا.

وهكذا كان النبي ﷺ؛ رجلُ الحيطةِ والحذرِ يعلم جيّدًا ما يمكن أن يؤول إليه أيُّ تصرفٍ يقوم به، ولذا عقد مع المشركين صلحَ الحديبية، بعد أن بايعه الصحابة الكرام على الحرب معه حتى الموت وعلى عدم الفرار؛ وبهذا كان من الأيسر على المسلمين قبولُ الرجوع مرة أخرى إلى المدينة، وهم الذين بايعوه على أمرٍ أصعب من هذا الأمر بكثير.. وهذا التعامل الفريد من النبي ﷺ الناشئ عن فطنته وبصيرته، مصدرُه الوحي غير المتْلوّ، أو هو نتيجةٌ فاضت بها فطرته.

(١١١) مسند الإمام أحمد، ٤٦/٥-٤٧.

(١١٢) ابن هشام: السيرة النبوية، ٣١٥/٢-٣١٨.

قد تبدو للمسلمين مواد الصلح جائرة بحقّهم في الظاهر(١١٣)؛ فهؤلاء الصحابة الذين كان يُناهزُ عددهم ألفًا وخمسمائة(١١٤) كانت قلوبهم تتحرّق شوقًا واشتياقًا إلى الكعبة المشرفة، ومع ذلك اضطروا إلى الرجوع من حيث أتوا دون أن يطوفوا بالكعبة، كان هذا الأمر في الظاهر خسارة كبيرة للمسلمين، ولكن هؤلاء الصحابة الذين أَمِنوا على أنفسهم في الجزيرة العربية استطاعوا بفضل صلح الحديبية الانتشار بين العشائر والقبائل المختلفة في كلِّ مكان، وتهيَّأت لهم الفرصة لتحديث الناس عن جماليات الإسلام، وآيات القرآن، كما أن هذا الجو السلمي قد ألان قلوب المشركين الجامدة القاسية، فلم تكد تمرّ سنتان على صلح الحديبية حتى شعر بعضُ وجهاء مكة كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة بفجوةٍ كبيرة في صفوف جبهتهم وتنامي قوة المسلمين، فجاؤوا إلى المدينة المنورة وأعلنوا إسلامهم عن طيبِ نفسٍ منهم طوعًا لا كرهًا.

ولا يقتصر الأمرُ على الثلاثة الذين ذكرناهم فحسب، بل يتجاوز المئات، وربما الآلاف وفقًا لظروف هذا العصر، فبفضل حلمه ﷺ ولينه تفكّكت الجبهاتُ المعارضة على اختلاف أنواعها في هذا الجوّ السلمي المخْمَلِيّ اللطيف الذي انبثق عن صلح الحديبية، وجاءت إلى سيدنا رسول الله ﷺ وبايعته؛ جاءت بلا إكراه، ودخلت في دين الله أفواجًا.. ولقد كان النبي ﷺ يستشرف كلَّ هذه الأحداث بنظرةٍ أفقيّة ويقيّمها برؤيته الإجمالية؛ ولذا لم يكن مقصده الذهاب إلى مكة، والطواف بالكعبة، وفتح مكة فحسب، بل كان ينشد أكثر

(١١٣) صحيح البخاري، الشروط، ١٥؛ صحيح مسلم، الجهاد، ٩٠-٩٢.

(١١٤) صحيح البخاري، المغازي، ٣٥؛ صحيح مسلم، الإمارة، ٦٧-٧٢.

من ذلك؛ فتحَ القلوب، وكسبَ الناس، ورغم أن شروط الصلح كانت جائرة في الظاهر على المسلمين؛ فإن النبي ﷺ بصنيعه هذا قد فوّت الفرصة على القبائل في الجزيرة العربية بأن يقولوا: "لقد دخل محمدٌ وأصحابُه مكة وسفكوا الدماء في البيت الحرام"، كما أن مكة قد فُتحت بعد وقت يسير دون إراقة دماء، وحُفظت هيبة الحرم الشريف، والواقع أن بعض الأشخاص ممن لم يستوعبوا دقّة الامتثال لأمر النبي ﷺ قد دخلوا في نِزاعٍ وشجار مع بعض المشركين، ولكن هذا الأمر يشكّل حالة استثنائيّة.

القلوب التي انفتحتْ بفضلِ هذا المناخ السلمي

ولنقف الآن عند بعض الأمور التي من الممكن أن يستلهمها إنسانُ هذا العصر من تلك الواقعة التي تعرضنا لها بإيجاز: فمع تطور وسائل المعرفة والاتصالات تقلّصت المسافات، واختلطت وتشابكت شتى المفاهيم والثقافات، وصار أصحاب الديانات والثقافات المختلفة يتقاسمون نفس المكان، ويعيشون معًا؛ فمثلًا إن ذهبتم إلى بلدة إفريقية لألفيتم هنالك أناسًا ما زالوا يدينون بعقائد قومهم، ومنهم من تنصّر، بل إن بعضهم يكاد يكون أكثر تعصّبًا من النصارى في الغرب.. ومن بين هؤلاء أيضًا أناسٌ لديهم أحكامٌ مسبقة وأفكار سلبية عن الإسلام؛ فإذا ما كنا نريد أن نقيم علاقةً بين هؤلاء الناس فلا بدّ من تدبّر الأمور وتأملها؛ لأن الأمر لا يحتمل أي فظاظة أو غلظة؛ كما أنه من المتعذر إقامة أي علاقة وطيدة مع الناس بالإكراه والإلزام؛ وإنما يحدث ذلك بالحوار والتسامح وإنزال الناس منازلهم والنظر إليهم على أن الله تعالى خلقهم في أحسن تقويم، واعتبارهم من حيث فطرتهم واستعدادهم مرآةً لتجلي الألطاف الإلهية.

وبعد دراسة كلِّ هذه الأمور، وإدراكِ الإنسان أنه ابنُ هذا الزمان ويعيش في هذا المجتمع لا بدّ من تحديد الأسلوب وتطويره، وإنّني أظنّ أنّ عدم استطاعتنا تطوير مثل هذا الخطاب الشامل الذي يسع الجميع ويحتضنهم لَمن أعظم عيوبنا في هذا العصر، فيا ليتنا نجدُ هناك -إن جاز التعبير- مراكز لتطوير الخطاب على غرار مراكز الحوار؛ يمكنها أن تُكسبَ إنسانَ هذا العصر مثل هذا المستوى الرفيع؛ وليت هذه المؤسسات تضطلع بتوضيح كيفية التعامل مع أصحاب المفاهيم والثقافات المختلفة وإقامة حوارٍ معهم دون أن يؤدي ذلك إلى وقوع أيّ ردٍّ سلبي، والحقُّ أن لدينا مرجعَين فسيحَين قادرين على حلِّ مشكلات كلّ العصور؛ وهما الكتاب والسنة، ولكنني أرى أن ثمة حاجةً ماسة إلى لغةٍ خطابيةٍ مشتركةٍ من أجل تقديم هذين المرجعين بشكلٍ يتناسب مع أبناء الثقافات والمجتمعات المختلفة.

ونظرًا لأنّ لغةَ المجتمعاتِ وثقافاتِها وغيرها من الأمور تتّسم بحساسيةٍ مفرطةٍ فعلينا أن نتعرّف على مخاطبنا وأن نراعي مشاعره العامة، أما إن غضضنا الطرف عن كل هذا، وحملنا غيرنا على اعتناق أفكارنا فقط؛ فقد ضللنا وأخطأنا السبيل، إذ إنّ مَن يُركّز في قيادة سياراته فقط، ولا يضع في حسبانه الطرفَ المقابل أثناء السير؛ لا يمكن له أن يكون سائقًا ماهرًا، لأن السائق الماهرَ هو مَنْ يجلس على عجلة القيادة، ويضع في حسبانه مَنْ يأتون عن اليمين أو اليسار أو الأمام، أو ينحرفون فيغيّرون الحارة المرورية، وقد يخطِئُ الإنسان أخطاءً جسامًا عندما يتحدّث من غير روية، أو يتكلم بارتجالٍ عن المسألة، ولا يراعي ما يمكن أن يفضي إليه فورانُ أحاسيسه ومشاعره من أفكارٍ سلبية في ذهن المخاطب.

ولنرجع إلى موضوعنا الأصلي ونقول: علينا أن نستفيد مما وقع في صلح الحديبية، ونهتدي به في عصرنا الراهن، ولنبحث عن سبلٍ للتصالح مع الناس على اختلاف دياناتهم في هذا العالم الذي أصبح كالقرية الصغيرة.. وفي هذا الإطار يمكن لمؤسّسات المجتمع المدني أن توقِّع عددًا من الاتفاقيات بين المجتمعات؛ فإن فعلتم ذلك تلاشت الأفكار المسبقة والهجمات التي قد تعترضكم في طريقكم، وهيأتم الفرصة للآخرين ليقولوا: لا يمكن أن ينالنا ضررٌ من هؤلاء الناس"؛ لأن الواقع يقرر أنه ليس من شيمكم إلحاق السوء بأحدٍ أبدًا، ولكن لا بد أن تهيئوا الأجواء للكشف عن ماهيتكم، وإنصات الآخرين لكم؛ وأن تعلموا أنه بقدر تعرّفِ الآخرين على عالمكم الداخلي وأفقكم المعنوي بقدر ما يشعرون بالثقة فيكم.

والحاصل أنكم لو شئتم أن ينظر الآخرون إليكم نظرةً إيجابيةً في ظل الظروف الحالية فلا بدّ من تهيئة جوٍّ للتأييد والصداقة والودّ، فلو أنكم تقابلتم بأصحاب الثقافات والمفاهيم المختلفة فصافحتموهم وآكلتموهم وشاربتموهم فقد أتحْتُم لأنفسكم فرصة التعارف، كما أن تعرّف الآخرين بالعمق الروحيّ والثقافي لديكم لا يتحقق إلا في ظلِّ هذا الأمر، كما لا يمكنكم أن تتخلّصوا من الأحكام والأفكار المسبقة التي يحملها الآخرون أصحابُ الثقافات والمناطق المختلفة إلا بهذا الأمر أيضًا.

خبايا الأرض والمسؤوليات التي تقع على عاتقنا

سؤال: جاء في الحديث الشريف: "اطْلُبُوا الرِّزْقَ فِي خَبَايَا الْأَرْضِ"[115]، فما نوعية الوظائف التي يحمّلها هذا الحديث الشريف للمؤمنين؟

الجواب: بعد أن خلق اللهُ تعالى الإنسانَ لم يقلْ له: "اذهب، وحبلُك على غاربك"، بل أنزله إلى الأرضِ وسخّرها له بمثابة مركز تدريبٍ، وسخّر له كلّ شيء تحت إمرته، غير أنه ليس من الصواب أن نركن إلى الراحة في بيوتنا ونقعد عن طلب الرزق؛ لأن الحوادث التي تقع في هذه الدنيا وهي دار الحكمة، تجري ضمن دائرة الأسباب، ونحن مكلّفون ومأمورون بمراعاة هذه الأسباب، أما الآخرة فهي دار القدرة، فالحكمة هنالك تتأخر، وتتقدّم القدرة؛ إذ يجد الإنسان أمامه كلَّ ما يخطر بباله ويدور بخلده.. والواقع أن الله ﷻ قد كشف عن أمثلةٍ لذلك باستجابته الدعاء، فأحيانًا ما يدعو الإنسان بدعاء ويمنّ الله تعالى عليه باستجابة هذا الدعاء على الفور، وعلى نفس الشاكلة فما إن تحرّكوا شفاهكم بشيء في الآخرة أو يدور بعقلكم شيءٌ ما حتى تجدونه أمامكم فورًا؛ لأن القدرة القاهرة هنالك تكشف عن نفسها بتصرّفاتها وبوضوحٍ تامّ.

(١١٥) أبو يعلى: **المسند**، ٣٤٧/٧؛ الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٢٧٤/١.

المعادنُ والأرزاقُ المجهولة حتى الآن

وقد أشار الحقُّ ﷻ في كثيرٍ من آي القرآن الكريم إلى أن السماوات والأرض مسخرات بأمر الإنسان، فإذا ما نظرنا إلى الأشجار التي تتمدّد فروعُها، والمياه التي تتدفّق بغزارتها، والبحار المسخّرة لخدمتنا، وما في باطنها من كائنات حيّة، وضوء الشمس وغير ذلك لوجدنا أننا نسبح في بحارٍ من النعم.. ما أكثر النعم التي يمكننا أن نعثر عليها عند البحث والتنقيب في الأرض والبحار!، غير أن كلّ هذه النعم مستورةٌ بالأسباب من ناحية ما؛ بمعنى أن "الأسباب لا تأثير لها تأثيرًا حقيقيًّا، وإنما هي ستائر أمام عزة القدرة وعظمتها، لئلا يرى العقلُ يدَ القدرة وهي تُباشِرُ الأمورَ الخسيسةَ بنظرِه الظاهر"[116]، ولذا فالوصول إلى هذه النعم التي حجبها الله بالأسباب يتطلّب خرق وتمزيق هذه الحجب، فمثلًا إن أردتم أن تجنوا ثمرة شجرةٍ ما فلا بدّ أولًا من إلقاء البذرة في التراب أو أخذ الفسيلة وغرسها، ثم بعد ذلك تهيّئون الجو المناسب لنموّها، وفي هذا يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**اطْلُبُوا الرِّزْقَ فِي خَبَايَا الْأَرْضِ**"، وهو بذلك يوصينا بأن نجتهد ونسعى للوصول إلى النعم والأرزاق التي خلقها الله تعالى في خبايا الأرض، فلا يعزب عن علمكم اليوم مدى المكانة التي تحظى بها المعادن النفيسة ومصادر الطاقة والمشتقّات البترولية في الاقتصاد العالمي.

فثمة توقُّعات دائرة الآن حول هذه المعادن واحتياطيات مصادر الطاقة هذه، لكنها احتياطيات لم يتمّ التوصل إليها إلا في الوقت الحالي؛ بمعنى أن الإنسان كلما سبر أعماق الأرض ونقّب فيها دون

(١١٦) بديع الزمان سعيد النورسي: **المثنوي العربي النوري**، نقطة، ص ٤٢٣.

أن يضرّ بها أو يعرّض ساكنيها للمخاطر كلّما تعرّف على المخزون الموجود بباطنها، ولكنْ هناك أراض من الناحية البيولوجية يصعب سبر أغوارها في الوقت الحالي.. فمثلًا لو ضربتم بعضَ الأماكن بالمعول فربما انفجرت صهارات.

من جانب آخر، ثمة تغيرات دائمة في الكرة الأرضية مثل تعرُّض بعض الأحياء لطفرةٍ إحيائية، وكما أن الله تعالى قادرٌ على خلق هذه التغيرات فهو قادرٌ أيضًا على خلق أرزاق جديدة باطّراد تحت الأرض، فهل يستطيع أحدٌ أن يقول إن بعض الأشياء التي حسبناها قد نفدت وانتهت لن يخلقها الله مرات ومرات؟ فكم من تغيراتٍ قد طرأتْ على الكرة الأرضية، وكم من أقطابٍ بدّلت مكانها، وكم من جبالٍ وبحارٍ تبادلت أماكنها، فهناك احتمال يفيد بأن هذه الادعاءات الدائرة حول مخزون مصادر الطاقة والمعادن ما قُصد بها إلا التضليل والخداع، فربما تريد بعض مراكز القوى بذلك أن تخدّر الناس وتخدعهم في سبيل استمرارِ وضمانِ مصالحها.

الأرض كالأم تحتضن الإنسان بشفقتها

يقول الحق تعالى مشيرًا إلى أهمية الأرض بالنسبة للإنسان: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا**﴾ (سورة النَّبَأ: ٦/٧٨)، فالآية الكريمة تذكر أن الله تعالى لم يدع هذا الإنسان العاجز الضعيف الذي يشبه طفلًا حديث الولادة للشقاء على الأرض، بل جعل له الأرض "مهدًا" تهدهده بيديها كما الأمّ، وأمّن له غذاءً بجانبه، فإذا كان الإنسان يُنظر إليه بنظرة المرحمة هذه ويعيش بهذا القدر من الطمأنينة والأريحية فمن الممكن أن يستفيد من كلّ النعم التي على الأرض بعد أن يؤدي

إرادته حقها، ولكن لأن الإمكانيات الحالية قد أعمتْ عينَ الإنسان فقد أصبح لا يُبصر بشكلٍ تام النعمَ المعروضة على الكرة الأرضية، بيد أن الإنسان لو فتح عينيه والتفت حوله بمنتهى العجز والفقر وبلسان حال الاضطرار والحاجة فسيرى أن هناك الكثير من النعم لم يستطع أن يراها حوله من قبل، وأن هناك أبعادًا ومعاني في هذه النعم لم يفطن إليها من قبل أيضًا.

ومن أجل الوصول إلى النعم الموجودة بالكون أوصانا الأنبياءُ العظام عليهم السلام بالبحث عن المفتاح المشفّر لهذه النعم؛ لفتح أبوابها والاستفادة منها، وأشاروا إلينا في الوقت ذاته إلى أن الرسائل الإلهية كالقرآن والإنجيل والتوراة بمثابة مفاتيح علينا استخدامها والانتفاع بها، وعلى ذلك فالقرآن المعجز البيان مفتاحٌ وضعه الله تعالى بأيدينا للاستفادة من النعم الموجودة على الأرض، ولكننا للأسف لم نُحسن الاستفادة من هذا المفتاح وبخاصة في القرون الأخيرة، كما لم نستطع التوصل إلى طريقٍ للاستفادة من هذه النعم، وبدلًا من ذلك انتابتنا بعضُ الأمراض التي تشلّ حركة الإنسان مثل الشعور بالأفضلية على الآخرين، ونشوة النصر، والولع بالشهوات، والمنفعة والمصلحة الشخصية.

ولقد كانت الرغبة في السيطرة على العالم والاستحواذ على القوة الاقتصادية من أهم العوامل التي شحذت همم الآخرين وحركتهم، والمثير أن هؤلاء لمّا انطلقوا بدافعٍ من عشق البحث والدراسة إلى التفتيش والبحث في الطبيعة اكتشفوا أشياء جديدة باطراد، فمثلًا لما كانوا يبحثون عن معدنٍ ما تبدّى لهم معدنٌ آخر وهكذا، فكان من

نتيجة ذلك أن اكتشفوا حقولَ المعادن ومخزونات احتياطي البترول في مناطق مختلفة من العالم، فوضعوا خططًا للسيطرة عليها، ثم قرّرت هذه القوى الاستبدادية تمزيقَ الدولة العلية العثمانية، وقالت: "لو استطعنا تمزيق الدولة العثمانية لكان لكلِّ واحد منا نصيبٌ منها، ولوضع بعضُنا يدَه على "بنغازي"، والبعض على "العراق"، والبعضُ على "الجزيرة العربية"، وبذلك يمكننا أن ننتزع من أيدي العثمانيين هذه الثروات التي يتحكمون فيها"، ولكن إلى أي مدى كانت الدولة العلية على وعي بهذا الأمر؟ وإلى أي درجة قيّمت هذا الوضع؟! هذا أمرٌ يطول حوله النقاشُ والجدال، ولكن لا سبيل إلى إنكار أننا قد عانينا في فترةٍ من الفترات من قحطِ رجالِ الفكرِ والعمل والحركة في عالمنا، ولم يتوافر لدينا كادرٌ من المثقفين يستطيع التصدي لمثل هذه الأطماع.. أما الغرب فقد كان يعيش نهضةً صناعية في تلك الفترة، ونظرًا لما تعرّض له من تغيّرات مهمة دخل مرحلة اكتشاف العالم، وانطلاقًا من حبِّ البحث والدراسة أخذَ يتأمّل في الأشياء والأحداث، ولا شك أن الغربيين قد لاحت لهم حينذاك بعضُ الاكتشافات بغير قصدٍ ودونما توقّع، فعند البحث عن الفضة وجدوا الذهب، وعند البحث عن الذهب وجدوا الزبرجد، وعند البحث عن الزبرجد وجدوا الياقوت وهكذا، فاكتسبوا خبرات وتجارب جديدة.

إننا محتاجون إلى عشّاق الحقيقة

وكما كان في العصور السابقة فإننا نجد في عصرنا أيضًا أولئك الذين يحملون مفهومًا سلطويًّا استبداديًّا مثل الهيمنة على العالم، والسطوة ونفاذ الكلمة، وأن يكونوا محلّ إكبارٍ وإجلالٍ

من الجميع، وقد استباح هؤلاء كلَّ الوسائل المشروعة وغير المشروعة للاستحواذ على الثروات في باطن الأرض وخارجها في أنحاء مختلفة من العالم، فمثلًا ذكر بعض المختصِّين المعنيين في تركيا أن هناك أراضي تم الاستيلاء عليها يُتوقَّع وجودُ العديد من المعادن بها مثل البترول والذهب والفضة وغير ذلك، ومن ثمّ فإن لم نُعْطِ إرادَتَنا حقَّها في هذا الموضوع ولم نرع ثرواتنا فلا مناص من تجرّع الحسرة والهجران مرة أخرى.

لا سيما وأن مصادر الطاقة باتت في يومنا الحالي على درجة عالية من الأهمّيّة بقدر أهمية التنعّم بملذّات الحياة وإنتاج مستلزمات لاستخدامها في وسائل التنقّل المختلفة.. فكل شيءٍ مِن وإلى الطاقة؛ لأن العديد من الأشياء بدءًا من الإنارة حتى وسائل المواصلات في البر أو الجوّ في حاجةٍ إلى الطاقة، ونظرًا لهذه الأهمية الكبرى للطاقة غدت حديثَ الناسِ في معظم المنتديات.

لقد بدأ إنساننا اليوم يحرز بفضل الله وعنايته موقعًا جديرًا بالاحترام والغبطة والتقدير في محيطه؛ فأنشأ جسورًا للصداقة، وأقام علاقات تجارية واقتصادية مع شتّى الدول وفي العديد من الجغرافيات، غير أن أكثر مَن نحتاجهم بالفعل الآن هم رجال العلم وعشّاق الحقيقة الذين تجيش صدورهم بالعشق والاشتياق للبحث والدراسة، ولديهم عزمٌ ومَضَاء للوصول إلى الحقيقة وربطها بالمعنويات، فالطبيعية والمادية لا تصلان بالإنسان إلا إلى نقطةٍ معينة. أجل، لا يصل الإنسان إلا إلى المدى الذي تسمح به هذه المفاهيم؛ لأن هذه الأنظمة مقيّدةٌ بحدود المادة، ومن ثمّ فإن حدود

البحث تتوقّف عند نقطةٍ معينة، ولكنكم أنتم يا طلّاب المعالي! يا أبطال "هل من مزيد"! إن لم تكفّوا عن قول "هل من مزيد" فستصلون إلى الذروة.

نعم، بهذا المفهوم الواسع يمكن لعلمائنا وباحثينا أن يثقبوا أعماق الأرض بمختبراتهم ومراكز بحثهم التي خُصّصت لهم، حتى يسبروا صهارات البركان، ويستخرجوا من بين طبقات الأرض ما يجدونه نافعًا للإنسانية، ويستحلبون الأرض جيدًا ويحاولون نفعَ إنساننا والإنسانية بما أحرزوه من اكتشافات جديدة.

الذِّكر هو الإكسير الذي يُجلي صدأ الغفلة

سـؤال: ما هي الغفلة، وما هي أنواع الذكر التي تمزّق حجبَ الغفلة وتجلو صدأها؟

الجواب: الغفلةُ هي الذهولُ والشرودُ، والسهوُ وقلّة الاكتراث، وعدم إدراك الإنسان لما يجري حوله، والعجزُ عن معرفة الأشياء بماهيّتها الحقيقية، بلهَ عدم القدرة على رؤيتها أو الشعور بها.. وبتعبيرٍ آخر: الغفلةُ هي عدم انتباه المرء للأمور التي ينبغي له القيام بها في الطريق الذي يسير فيه، والعيشُ دون وعيٍ أو خوفٍ من عاقبته.

وثمة عوامل مهمّة تعمل على تمزيق حجاب الغفلة؛ منها التدبّر والتذكّر والتفكّر والتأمّل.. فلو أمعنتم النظر في المؤلّفات البديعة للأستاذ النورسي ﵀ لألفيتموها مشحونةً بمثل هذه العوامل التي تعمل على تمزيق حجاب الغفلة.

أجل، لو تفحّصتم في مؤلفاته لوجدتموه يَطّوّف بكم في أودية التفكّر المختلفة، وكلما قرأتم انفتحت آفاق بصركم وبصيرتكم، واستطعْتم دراسة وتقييمَ ما ترونه بشكلٍ سليم، ونفذت أحاسيسُكم ومشاعركم إلى أعماق قلوبكم، فتشعرون وكأن مشاعركم الغافية قد تيقّظت من جديد وأن آليّة وجدانكم قد أخذت تتحرك فجأة.

ومن الأمور التي تُساعد على تمزيق حجاب الغفلة أيضًا العبادات إن أُدّيت بصدقٍ وإخلاص؛ فمثلًا الأذان الذي ينطلق من أعماق

القلب يمزّق حجابَ غفلتكم ويوجّه أنظاركم نحو السماء، ويهيئكم للصلاة، وكذلك إن توجّهتم نحو المسجد سرتم إليه وقلوبكم مفعمةٌ بالحماس والانفعال، فإذا ما توضّأتم وتناهت إلى سمعكم الإقامة المشحونة بالصدق والإخلاص أو سورة الفاتحة التي يتلوها الإمام بصوتٍ ينبعث من أعماق قلبه أخذتكم نشوةٌ كبيرة وانجذبتم إلى عالمٍ مختلف عن عالمكم، حتى إنكم تشعرون وكأنكم تتجوّلون في بعدٍ آخر من عالمكم الذي تعيشون فيه، ولا شك أنّ كلّ ذلك يُزيح حجابَ الغفلة عن قلب الإنسان وعينه بقدرٍ ما، ويوحّده مع ذاتيته.

تقاسمُ الانفعالات والمشاعر الغافية

أما عن أهم العوامل التي تمزّق حجاب الغفلة فهو ذكرُ الله عَزَّ وَجَلَّ.. فمن الصوفية مَن يذكر الله تعالى عن طريق ذكرِ كلّ اسمٍ من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أو كل صفةٍ من صفاته على حدة أو يأتي بعددٍ منها ويذكرها مرة واحدة.. وكل طريقةٍ صوفية لها مناهج وأساليب خاصة بها، ويمكن أن يقال إن هذه المناهج والأساليب تُحدث تأثيرًا مختلفًا في كل شخص على حدة، فمثلًا نجد بعضهم يمسكون بأيدي بعضهم بحيث تكون الأكتاف حذو بعضها ويشكلون حلقة الذكر، ثم يأتي كبيرهم ومرشدهم فيدخل فيما بينهم، ويشرعون في الذكر، ومنهم من يتخذ الخفاء مبدأً له وإن كان يشكّل مثل هذه الحلقات، فإذا ما أخذت الألسن تردِّد "لا إله إلا الله، سبحان الله، الحمد لله، والله أكبر"، وأمسكت الأيدي ببعضها تحقق حينذاك تقاسُم الانفعالات والمشاعر على نحو ما.

ومن المفيد هنا أن أُذكّر بأمرٍ يتعلق بالصلاة ذكرتُه من قبل في مناسباتٍ مختلفة: لو أن الإمام حين يتلو القرآن في الصلاة يُغمض عينيه عن كلّ ما سوى الله تعالى، ويُسلِم نفسه لشلالات العشق والهيجان فسرعان ما يسري ما لديه من انفعالٍ إلى المأمومين خلفه بقدرٍ ما، وعلى نفس الشاكلة فإن الخشوع والبكاء الذي يصدر من أحد المأمومين الذين ارتبطت قلوبهم بالله سرعانَ ما يسري صداه إلى غيره من المأمومين وتتحرك اليقظة لديه؛ لأن هذا البكاء الذي تجهش به تلك الروح المنفعلة إلى هذا الحد كأنه يقول: تيقَّظوا وعوا، وانسلّوا من الغفلة".

لكن المهمّ هو الكيفية التي يجري الذكر من خلالها. أجل، إذا ما كان الذكر ناشئًا عن صدقٍ وإخلاص سرى هذا الأمر إلى الأفراد الآخرين، وأخذ الذاكرين من هذا العالم ثلاثي الأبعاد الذي نعيش فيه وذهب بهم إلى عالم آخر، وكأنهم يتجولون دون وعي منهم في أزقّة الجنة، فيشاهدون الحقّ تعالى ويتنزّهون في ربوع الفردوس؛ فإذا ما قال لهم ربهم: "**أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي**"(١١٧) يشعرون بأنهم قد حازوا الرضوان الأكبر.. وكل هذا يمزق حجابَ الغفلة ويكشف عن الأشياء التي لا بد للإنسان من رؤيتها، ويُشعر بالأشياء التي لا بدّ من الشعور بها، ويفرّج الباب أمام تعرُّف الإنسان على نفسه ووصوله إلى جوهره.

ولا شكَّ أن الذكر لا يعني ترديدَ اللسان بعض الكلمات، إنما هو عمليّة تفكّرية تنشأ عن ذكر بعض الأمور والتذكير بها، فمن الذكر

(١١٧) صحيح البخاري، الرقاق، ٥١؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٣٠٢.

مثلًا الحديث عن بعض الصحابة الكرام كمصعب بن عمير وسعد ابن معاذ رضي الله عنهما، والتذكير ببطولتهما ورحلتهما إلى ربهما سبحانه وتعالى، فمثل هذا التذكّر يمزق حجاب غفلة الإنسان الغافل، ويُساعده على التيقظ واستطلاع نفسه، وتحرّي موقفها وتفسير حالها؛ وبذلك يستقيم سير الإنسان إلى معرفة الله سبحانه وتعالى.

ويندرج في قائمة الذكر أيضًا كل تذكّر وتدبّر وتفكّر في الأنفس مثل تأمُّل الإنسان في نفسه بشكلٍ صحيح، وتحري موقفها، والنظر إلى ما هي عليه وما يلزم أن تكون عليه، وتقدير المسافة بين هذا وذاك.

التذكير والجلسات الإيمانية

وأذكر هنا على سبيل المثال قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا أبي ذر رضي الله عنه:

"يَا أَبَا ذَر جدد السَّفِينَة فَإِن الْبَحْر عميق
وخفف الْحمل فَإِن السّفر بعيد
واحمل الزَّاد فَإِن الْعقبَة طَوِيلَة
وأخلص الْعَمَل فَإِن النَّاقِد بَصِير"(١١٨)

وبما أن الله تعالى يرانا ويطّلع على حالنا فعلى الإنسان أن يفعل ما يفعله من أجل الله تعالى.

أجل، لا يليق بإنسانٍ يطّلع الله على كل أفعاله ويعامله على أساس ذلك في الآخرة أن يتردى في مثل هذه الغفلة، وعلى الإنسان

(١١٨) الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب، ٣٣٩/٥.

ألا ينسى مطلقًا أن الموت "كَأْسٌ على كل الناس"، وأنه سيفٌ على رقاب كل العباد، فلا خلود لأحدٍ في الدنيا، فأمام الإنسان رحلة تبدأ من بطن الأم، وتستمر مع طفولته وشبابه وكهولته وشيخوخته وقبره، ثم ينتهي به الصراط إلى الجنة -جعلها الله مثوانا- أو إلى النار -حفظنا الله منها- ولا يمكن لإنسانٍ سلك هذه الرحلة العسيرةَ أن يسقطَ في الغفلة.

وفي القرآن الكريم يقول ربنا ﷻ مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ٥١/٥٥)، والذكر الوارد هنا لا يعني الذكر الذي يجري على اللسان فقط؛ إذ إن الآية تأمر زيادة على قول "لا إله إلا الله" باتباع شتى الأساليب والطرق للتذكير بهذه الحقيقة الكبرى، كما تفيد الآية أيضًا أن مثل هذه الذكرى تنفع المؤمنين؛ بمعنى أننا في حاجة ماسة إلى مثل هذه الذكرى دائمًا، وإن شئتم فاربطوا هذا الموضوع بالجلسات الإيمانية، وحينها ستصلون إلى نتيجةٍ مفادها أن تذكير بعضنا البعض بشيءٍ من الحقائق أمرٌ يقع في إطار مسؤوليتنا، وبأداء هذه المسؤولية نصلُ إلى نتائج رائعة.

أجل، إن هذه الذكرى مهمة ونافعة للإنسان حيث تساعده على أن يظلّ بعيدًا عن الطيش ولغوِ الكلام، ولا تأخذه أحداث الساعة؛ لأن الأحداث الراهنة والموضوعات غير المجدية التي تستهويها النفسُ تبتلعُ الإنسانَ داخلها وتغرقه في ثناياها وكأنها الدوامة، فإذا ما أسلمتم أنفسكم إليها أخذَتْكم وأبعدتكم عن أنفسكم، فإن وقع ذلك تعرَّضتم لوعيد الآية الكريمة: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ (سورة الْحَشْرِ: ٥٩/١٩)؛ بمعنى أن الآية تقول: إن أنفسهم كانت بمثابة مرصد

ومسرح ومشهد بالنسبة لهم، ولو أنهم استعملوها منظارًا ومجهرًا لشاهدوا بديع صنع الله ﷻ والمرايا الخاصة بأسمائه ومظاهر تجلياته، ولكنهم استغرقوا في الغفلة فنسوا الله، فأنساهم أنفسهم، وحكم عليهم بأن يحبسوا أنفسهم داخل إطارهم الفكري والمنطق والجسمانية والبدن.

ومن هنا يجب على المؤمنين أن يحملوا على عاتقهم مهمة تذكير بعضهم بعضًا، ولو لاحظنا جاءت آية ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ٥٦/٥١) بعد آية "وَذَكِّرْ" مما يوحي بأهمية الأمر الذي ينبغي التذكير به، بمعنى أنه يجب على الأنظار أن تتوجَّه دائمًا إلى العبودية والمعرفة، كما لا بدّ من إفساح المجال أمام كلِّ فرد لأن يكون عارفًا بالله وفقًا لقابلياته واستعداداته، وأن ينظر ويرى ويفكر في الحوادث والأشياء بشكل مختلف، كل حسب درجته، والأحرى أن يُهيَّأ الفرد للسير إلى أفق التخلّص من الأمور التي حبس نفسه فيها، فيرى ما يُريه الله له، ويسمع ما يُسمعه الله له، ويشعر بما يُشعره الله له.

أنواع الغفلة التي تحول دون خدمة الحقّ

سؤال: ما هي أنواع الغفلة التي تحول دون قيام رجلِ الخدمة بخدماتِه الإيمانية؟

الجواب: إن إيصالَ الحقّ والحقيقة إلى القلوب، ونشر الاسم الجليل المحمدي في كلِّ الأصقاع، وبذل الجهد لتصحيح المفاهيم الإسلامية التي أخطأ بعضُ رجالِ عصرنا في التعريف بها وتبليغها؛ كلّ ذلك أمورٌ يقتضيها إيماننا، فضلًا عن أنها وفاءُ دينٍ معلَّقٍ في رقابنا، وأعظم مسؤولية يحتّمها علينا ديننا الذي ننتمي إليه؛ وبعبارةٍ أخرى يجب أن تكون غايةُ حياتنا تمثيلَ الإسلام على الوجهِ الأكمل، وعلى النحو الذي كان عليه في عصر صدر الإسلام، وإبراز صورته الحقيقية وتقديمه للإنسانية من جديدٍ وفقًا للصورة التي جاء عليها من الله تعالى ورسوله ﷺ، وعلى النحو الذي عاشه الصحابة الكرام رضي الله عنهم؛ لأن النار مشتعلةٌ في كلِّ مكانٍ بالعالم حتى كدنا نقول مثل الشاعر الصوفي "سوزي" (١٧٦٥-١٨٣٠م):

أيها الحبيب! لقد ألقيتَ جمرة ملتهبة بسفينة قلبي ومركبِ جَنانِي

ثم رفعتَ عقيرتك بالصياح قائلًا: انظروا البحر كله يموج بالنيران

فإن كان البحر يضطرم بالنيران، فهذا يعني أن كل الأماكن قد أصابتها النيران؛ والعالم الإسلامي كله والدنيا بأسرها قد اندلعت

فيها النيران.. وعلى ذلك فإن عدمَ إدراك هذه الحال البائسة التي تعيشها الإنسانية بسبب تلك النيران التي تسري في أوصالها، وعدم الشعور بها في النفس، وعدم معالجة المسألة بهذا القدر من الدقة والحساسية هو غفلة بالنسبة لمن يسعون في سبيل خدمة الحقّ والحقيقة..

بيد أن على رجال الخدمة هؤلاء أن يكونوا حيث تحطّ النيران رِحالَها أو حيث يوجد البؤسُ والشقاء، وأن يتعاملوا بدقّة وحذر شديدين وكأن تلك النيران قد أصابت ذويهم وعوائلهم، أو أن هذا البؤس والشقاء قد أصابا أولادهم؛ وهذا بالطبع لا يتأتى إلا لمن حمل روحًا نبويّة، وتبنى القضية بعزم وتصميم وهمٍّ وإيثارٍ نبوي، وبما أن عهد النبوة قد انتهى بتاتًا فإن مَن يتّسم بهذه الصفات لا يمكن أن يكون نبيًّا، -ويا ليت الأنبياء يرضون باعتبارنا مطايا لهم، فهذا بمثابة تاجٍ فوق رؤوسنا- ولكن لا بد أن ينشد الإنسان الأوصاف العالية التي يتحلى بها الأنبياء، وبما أن الله تعالى اصطفى الأنبياء من بين البشر فلا سبيل إلى هزيمة أو شقاء أحدٍ يسير في طريق الخدمة ويحاول أن يتحلى بأوصاف الأنبياء، ومن ثم فلا بد من التحلّي بالأوصاف النبوية وجعلِها وسيلة للقرب منه ﷻ؛ لأن من صفات مفخرة الإنسانية سيدنا محمد ﷺ أنه كان ذا خلق عظيم، ولقد كان "خُلقُه القرآن" الذي أُنزِلَ من قِبَلِه تعالى[119]؛ أي إنه متخلِّقٌ بأخلاق الله ﷻ، وبهذا السبيل فقط يمكنكم الوصول إلى قيمكم الحقيقية، وسبر أعماقكم، والشعور بذاتيتكم.

(١١٩) انظر: صحيح مسلم، صلوات المسافرين، ١٣٩؛ سنن أبي داود، التطوع، ٢٦.

وأعتقد أنه لا يمكن الإبحار إلى أفق نبينا محمد ﷺ، ومشاطرته المشاعر نفسها في هذا الأفق إلا بهذه الأوصاف النبوية فقط، كلٌّ حسب مستواه، والذين يشاركونه هذه المشاعر في سبيل خدمة الدين لا يمكن أن يتخلى عنهم رسولنا ﷺ.

أجل، لن يتخلى رسول الله ﷺ عمّن يهتمّ بأمر العالم الإسلامي، ويقوم ويقعد، وينقصم ظهره من كثرة التفكير في الخدمة، ويضع الخطط والمشاريع دائمًا حتى يصل إلى كلِّ القلوب، فإن أحسستم بانقطاع السبل فأيمُ الله إن رسول الله ﷺ سيمدّ يده النورانية إليكم، وربما يزوركم في منامكم، ويحثّكم على المسير، وربما يتمثل بروحانيته المباركة، ويطوف بينكم ليرفع من طاقتكم المعنوية، وإذا كان الرسول الأكرم ﷺ معكم فاعلموا أن كل الصالحين الذين أتوا من بعده لا سيما أهل البيت رضي الله عنهم سيكونون معكم أيضًا.

حب المغامرة

ولنرجع إلى موضوعنا الرئيس ونقول: إن من أنواع الغفلة التي تشكل خطرًا داهمًا بالنسبة لأرباب الحق والحقيقة في أيامنا هو عدم المبالاة بالوظيفة، وهذا النوع أيضًا له تفرعات أخرى؛ مثل: التحرك عشوائيًّا، وعدم استخدام الدبلوماسية عند الاحتياج إليها، والتحرّك دون وضع حسابٍ للجبهات المعارضة المفطورة على الشرّ، والتورّط في أعمال خاطئة حبًّا في المغامرة، وحبّ الشهرة، واللهث وراء رفع الأرصدة لدى الناس على حساب الرصيد عند الله، والشروع في شيء دون إخضاعه للتجارب والتأكد من إحرازه للأهداف المرجوة... وكل هذه الأنواع من الغفلة كفيلةٌ بأن تخسف

بالإنسان الأرض، بل إن من يتردَّون في هذه الأنواع من الغفلة لا يخسفون بأنفسهم الأرض فقط، بل هم كالربّان الغافل الذي لا يكتفي بإهلاكِ نفسِه فقط، بل يُهلِك من معه على متن السفينة أيضًا؛ لأن خط سير السفينة التي تقع تحت إمرة ربّان غافل هو قاع البحر.

من جانب آخر فالمهم بالنسبة لمسلكنا إذا كنا نقوم بعملٍ أو نبلِّغ حقيقةً ما هو تجنّب أذى الآخرين وجرحِ مشاعرهم، ومعاملتُهم بالشفقة والمرحمة، والهرولةُ لإغاثتهم دائمًا كعامل الإطفاء، ورؤيةُ الجفاءِ الذي هو من جلال الله والوفاءِ الذي هو من جمال الله سواء، ومعاملة الناس بالحسنى دائمًا، والاعتراف بعجزنا وفقرنا، والمحافظة على الشوق والشكر والشدّ المعنوي، والتفكر الدائم.. من أجل ذلك يجب الالتزام بكل هذه الأسس والتحلّي بالفطنة واحتساب النتيجة عند القيام بأي أمر، وسؤال أنفسنا: هل هذا العمل الذي نقوم به سيخلِّف وراءه الحقدَ والغلّ والغضب أو الحبَّ والودَّ والعطف؟! علينا أن نقيّم كل هذه الأمور مسبقًا.

والخلاصةُ أن تعاملاتنا وحركاتنا كلّها يجب أن تتحلّى بالدقّة والبصيرة؛ حتى لا يصيبنا الخزي والهوان أمام مَن يعلّقون الآمال علينا.

من الغفلة ربطُ النتيجة بالأسباب

ومن الغفلة إبداءُ العناية الكاملة بالأسباب، وربطُ كلِّ شيءٍ بهذه الأسباب، ونسيانُ مسبّب الأسباب أو عدم القدرة على رؤيته أو تعاميه.. ولقد حاول الأستاذ النورسي رحمه الله في رسائله أن يفرّج

الأبواب على مسبب الأسباب، ويوجّهَ الأنظار إليه تعالى؛ فعلى سبيل المثال يقول في موضعٍ ما من رسائل النور عن الحكمة من وجود الأسباب: "إن العزّة والعظمة تستدعيان وضع الأسباب الظاهرية أمام نظر العقل، إلّا أن التوحيد والجلال يردّان أيدي الأسباب عن التأثير الحقيقي"(١٢٠)..

وفي موضع آخر يقول: "لئلا يُرى في ظاهر نظر العقل مباشرةُ يد القدرة بالأمور الخسيسة في جهة مُلك الأشياء"(١٢١).. وهذا يعني أن الأسباب ليست المؤثر الحقيقي، لكن ربما تكمن قيمتُها في أنها تجلّ من تجلياتِ أسماءِ اللهِ تعالى التي اخترقت كثيرًا من الحجب، ولذا فإن كان لا بدّ من إعطاء قيمة للأسباب فينبغي النظر إليها على أنها من خلق الله تعالى، ومع ذلك فالتقليل كليةً من قدرها يُعتبر نوعًا من الجبر، أمّا مَنْ يعتبر الأسباب كلَّ شيء فقد وقع دون أن يدري في غفلةٍ عن مسبّب الأسباب ﷻ.

ولتوضيح هذا إليكم هذا المثال: هبْ أن صديقًا لكم سافر للمرة الأولى إلى مكانٍ ما، فأجرى اللهُ على يديه كثيرًا من النتائج المثمرة، لدرجة أنّ الزهور قد بدأت تتفتح والبلابل تغرّد في كل حقول الشوك الموجودة هنالك، حتى تحوّل المكانُ إلى حديقة غنّاء.. فلما رأى صديق هذا الشخص الجماليات التي تحققت على يد صديقه أخذ يمتدحه وينسب الجماليّات إليه ويقول: "ما كان لهذه الجماليات أن تكون لولا وجود صديقي فلان"، فمثل هذا القول قد يسوق الشخص الممدوح إلى غفلةٍ كالتي تردى فيها المادح، لأن المخاطبَ الممدوح

(١٢٠) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة الثانية والعشرون، المقام الثاني، ص ٣٢٥.

(١٢١) بديع الزمان سعيد النورسي: **إشارات الإعجاز**، ص ٢٦.

إن لـم يكـن فـي حالـةٍ تسـمح بتحمّل عبء هـذا المديـح الثقيل فقد قطع صديقُه المادحُ عنقَه كما بيّن رسول الله ﷺ(١٢٢).

ومـن الغفلـة أيضًـا نسـبةُ الخدمـات التـي تقـوم بها الجماعـةُ إلى الشـخص الذي يبدو بارزًا فيها، لأن إعطاء القائد كلَّ غنيمةِ الجيش، يعني غمطَ حقوقِ جميع الجنود.

أجـل، لا يصـحّ أن تُنسـب الثمرات التي جناهـا الكثيرُ من الناس بسـبب غيرتهـم وهمتهـم إلـى القائـم علـى الأمر فحسـب، فضلًا عن ذلك لا بدّ ألا ننسـى أن السـبب في توفيق الله تعالى لهؤلاء هو وفاق هـؤلاء النـاس واتفاقهـم؛ بمعنـى أن الحـق تعالـى قـد تفضـل عليهـم بالوفـاق والاتفـاق وعـدم نشـوب الخـلاف رغـم أن كل واحـد منهم يحمل غرورًا وأنانية خاصة به.

ولـذا فـإن تجاهـل كلّ هـذا ونسـبة النجاحـات والتوفيقـات إلـى شـخصٍ أو عـدةِ أشـخاص يقومون علـى الأمر، والاعتبار بالأسـباب فقط لهو عينُ الغفلة عن مسبِّبِ الأسباب سبحانه وتعالى.

وقاحة من لا يعرف حده

فإذا ما تناولتم المسألة على نطاقٍ أوسـع فقد تجدون هذا الخطر محدقًـا بهيئـةٍ أو مجموعـة معينة؛ فمثلًا إن اعتبرت جماعةٌ أن جهدها وسعيها في خدمة الدين والإنسانية كانا السبب في تحقيق النجاحات التـي أحرزتهـا فقـد تردّت في الغفلـة أيضًا؛ لأنه لا بدّ مـن توافر عدد

(١٢٢) صحيح البخاري، الشهادات، ١٦؛ صحيح مسلم، الزهد والرقاق، ٦٥. ["عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: "وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ" مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: "مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلَانًا، وَاللهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ"].

كبير من العوامل حتى يتحقق مثل هذا الوضع، نحو: "تهيئة المناخ، وعجز أهل الضلالة والغفلة عن الإضرار بكم رغم ما يحملونه لكم من حسد وحقد ومشاعر مقيتة، وانفتاح القلوب بالحب لكم، وإبداء الحفاوة بكم في كل مكان تهاجرون إليه، وتهيئة المناخ العالمي لهذا الأمر"؛ وهذا أمرٌ إن وقع فلربما يحدث مرة واحدة في المليون، فإذا كان الأمر هكذا فكيف تُرجعون العديدَ من هذه الجماليات في الوقت الحاضر إلى الأسباب البسيطة، إنّ عليكم إذا ما لاحتْ لكم هذه الفكرة كالبرق الخاطف أن تتجهوا على الفور بالاستغفار إلى ربكم.

كنت مرَّة أكتب نظمًا من سطرين على غلاف مجلة "سيزنتي (الرشحة)"(١٢٣) فوقع في نفسي أن هذا النظم يوافق هذه الصورة بالتمام والكمال، وسرعان ما رجعت إلى ربي تائبًا مستغفرًا وكأنني قد أشركتُ، وقلتُ: "أستغفر الله، اللهم خذْ روحي ولا تغرني في نفسي"، وعلى ذلك فإن راودت الشخصَ فكرةُ أن حديثه هو الذي أثّر في قلوب الناس، وأثار الحماسة فيهم، فهذا يعني أن ذلك الشخص قد جهِل ماهيةَ نفسِه، وهذا يدلّ على وقاحته وعدم معرفته لحدّه؛ لأنه بهذه الفكرة قد نسب لوحةً ربما تقع احتمالًا بنسبة واحدٍ في الألف إلى سببٍ بسيط.

ثمة جانب آخر للمسألة وهو أنه من الغفلة تجاهُل مسبِّب الأسباب في الخدمات المبذولة، لكن من الخطإ أيضًا أن نكون

(١٢٣) بدأ الأستاذ فتح الله كُولَنْ في كتابة مثل هذه التعليقات منذ أن نشر العدد الأول منِ مجلة "سِزِنْتِي (*Sızıntı*) الرشحة" التركية وهي مجلّة علمية أدبية أخلاقية، بدأت تصدر منذ الأول من شهر يناير/كانون الثاني عام (١٩٧٩م). **(الناشر)**

سببًا في تثبيط همم مَن يسعون في سبيل الخدمة وتحطيم شوقهم واشتياقهم، وبدلًا من هذا علينا أن نقوّي من عزيمتهم دون أن نفتح بابًا للشرك، وندعو الله لهم قائلين: "جزاكم الله خيرًا دائمًا، فلو لم يكن لكم قدرٌ عند ربكم ما أسند لكم هذا الدور، فهذا تفضُّلٌ منه تعالى، أدامه الله تعالى عليكم".. أما عن المعيار الذي ينبغي مراعاته هنا فهو: علينا أن نعبّر عن حبّنا وحسن ظنّنا بهؤلاء الطليعة الذين يعملون في الخدمة منذ ثلاثين أو أربعين عامًا بدلًا من أن نُنْزلهم منازل تتجاوز أعناقهم، أو ننعتهم بالغوثية والقطبية، فإذا ما زلّت أقدامُهم يومًا فعلينا أن نمسك بأيديهم ونحتضنهم ونرفعهم من حيث زلّوا ونزيل النجاسةَ عنهم ونعانقهم.. ومن ثم فإن مراعاة ومراقبة مسبب الأسباب لا يعني التغاضي كليّةً عن هؤلاء الذين تفانوا في الخدمة، ولكن لا بدّ من مراعاة ذلك في إطار الصدق والوفاء لهم.

ومن الغفلة الكبيرة عدم القدرة على النظر إلى الآيات التكوينية وتأملها واستخراج ما بها من معانٍ، والسير إلى الله من خلالها، وفي هذا الصدد يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**﴾ (سورة يُوسُفَ: ١٢/١٠٥).

وقد نرى نوعًا من أنواع الغفلة التي تناولناها منذ البداية يتقدّمُ أو يتأخر على الأنواع الأخرى؛ وبأسلوبٍ آخر: قد تختلفُ درجةُ عمقِ هذه الأنواع للغفلة حسب قابلية واستعداد كلّ شخص؛ فقد يكون أحدُ هذه الأنواع ابتلاءً للبعض، والآخر ابتلاءً للآخرين، ولكن إذا ما نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر دينِنا وإسلامِنا يمكننا أن نقول باطمئنان: إن كلّ نوعٍ من أنواع الغفلة بمثابة حسٍّ وفكر شيطاني

لا بدّ من دفعه وإزاحته، والخلاصُ منه منوطٌ بتحقيق بعض الأعمال القلبيـة والفكريـة والروحيـة مثل: السير على وعي وبصيـرة، وإظهار مزيـدٍ مـن الحساسـية والدقـة، ومحاولـة رؤيـة الأشـياء والأحـداث علـى ماهيتهـا الحقيقية، والرؤية عند النظر، والإنصات عند السـمـع، والشعور عند اللمس، وإعلام القلب بكل هذا...

المحافظة على المستوى إزاء التغيرات الاجتماعية

سؤال: يذكر "أحمد جودت باشا"[١٢٤] في كتابه الموسوم بـ"تاريخ جودتْ" أن فترة الرقي والازدهار التي عاشتها الدولة العثمانية حتى عهد السلطان سليمان القانوني (١٤٩٤-١٥٦٦م) تعرف بعهد البداوة، وتسمى الفترة التي تليها بعهد التحضر أو عهد التمدّن، أما بالنسبة للتفسخ والانحلال الذي أصاب الدولة العثمانية في النهاية فهي مرحلةٌ طبيعية تمرّ بها كلّ المجتمعات؟ فما رأيكم في هذا التقسيم؟ وكيف يمكننا أن نفهمه؟

الجواب: الحقّ أن هذا الرأي الذي ذكره "أحمد جودت باشا" كأنه قد أجمع عليه كلٌّ من المؤرخين وعلماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ، حتى إن المعاصرين من أمثال "جيب (*Gibb*) (١٨٩٥-

(١٢٤) **أحمد جودت باشا** (١٢٣٧-١٣١٢هـ/١٨٢٢-١٨٩٥م): رجل دولة عثماني، ومؤرخ شهير، وأديب، من القرن التاسع عشر للميلاد، وُلد في "لوفجة (*Lofea*)" شمالي بلغارية، حيث كان والده "حاجي إِسماعيل آغا" عضوًا في المجلس الإِداري للمدينة، وتلقى أحمد مبادئ العلوم الإِسلامية في مسقط رأسه، وتابعها وتعمق فيها في إِحدى مدارس إسطنبول، عاصمة الدولة العثمانية، مضيفًا إِليها بعض العلوم العصرية، كالرياضيات والفلك والجيولوجيا والفلسفة، وسعى وهو في العاصمة لإِجادة اللغتين العربية والفارسية، حتى نظم الشعر بهما كما نظمه بالتركية، فأُعطِي اسم "المخلص جودت" الذي عُرف به، ونال نتيجة دراساته الإِجازة التي تسمح له بالانخراط في سلك القضاء، شغلَ منصب ناظر الحقّانية (وزير العدل) خمس مرات، ومنصب ناظر المعارف (وزير التربية) ثلاث مرات، ومنصب ناظر الداخلية مرة واحدة، والأوقاف والتجارة مثلها، كما شغل منصب الصدر الأعظم مدة عشرة أيام عام (١٨٧٩م)، بعد عزل خير الدين باشا، وله أعمال علمية كثيرة منها "تاريخ جودت"، وعلى رأسها إنجازه لـ"مجلّة الأحكام العدلية" الشهيرة. **(الناشر)**

١٩٧١م)" و"رينان (*Renan*) (١٨٢٣-١٨٩٢م)" قد أفصحوا عن هذه الفكرة، وأعتقد أن أول مَن جهر بهذا الرأي الذي ينطوي على تقسيم الحضارة إلى مراحل هو ابن خلدون (٧٣٢هـ/١٣٣٢م-٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، والمعنى المجمل من أقوال هؤلاء أن المجتمعات كالأفراد تمامًا؛ تولد، ثم تنضج وتبلغ مرحلة الرشد والبلوغ، ثم تشيخ، وبعد ذلك تموت وتفنى؛ بمعنى أن ثمة هوّة سحيقة تقف أمام كل المجتمعات، والكل مكتوبٌ عليه التردي في هذه الهوّة والسقوط فيها.

وزيادة في الإيضاح نقول: إننا إذا ما نظرْنا إلى وضع الدولة العثمانية فربما نسمي العهد الأول فيها بعهد البداوة، ولكن إذا ما وضعنا في الاعتبار الخصائص التي تميّزها فسنجد أنه من الأنسب أن نطلق على هذه الفترة "عهد المدنية شبه الحضارية" بدلًا من استخدام عهد البداوة الذي يوحي بمعنًى سلبيّ.. والمعنى الذي نقصده هنا هو: أن هذا العهد هو عهد الإيمان الخالص، وكانت تسيطر على الناس الذين يعيشون فيه بعض المشاعر والأفكار مثل: الصفاء والطهارة والنقاء، وعدم التشوف لأي أجر من وراء الخدمات المبذولة.

لقد سار هؤلاء في الطريق الذي دلّتهم عليه مثالياتهم، وسعوا بكلِّ عزمٍ وجهدٍ للوصول إلى أهدافهم.. كانوا يتسمون بالطهر والنقاء، ولا يتشوفون لأي غرض دنيوي، إذ ركّزوا اهتمامهم في الهدف الأسمى وهو رضا الله تعالى، وأيًّا كانت المثالية التي يصْبون إليها والغاية التي يرتبطون بها فقد سعوا بهمةٍ ونشاطٍ إلى تحقيقها.

الحفاظ على المستوى

ولـكل أمـة عهود مجيدة تعيشـها خلال أزمنة مختلفـة، ولقد كان العهـد العثمانـي فـي حياة الأمـة التركيـة عَلمًـا علـى مثل هـذه الفترة الأسطورية التي توافق المائة والخمسين عامًا الأولى في عمر الدولة العثمانيـة؛ حيث بزغ السيد "عثمان غـازي (عثمان الأول)" (١٢٥٨-١٣٢٦م) من صدر "سُوغُوتْ"، وقضى عمره في خيمة، وأسلم روحه إلـى بارئهـا فـي خيمة أيضًا، ورغم أنه كان بإمكانه أن يعيش في راحة ورفاهيـة فإنـه كان يؤثـر حياة البسـاطة وشـظف العيـش دائمًـا، ومـن الممكـن أن يُقـال إنـه كان يعيـش علـى نمط حيـاة الخلفاء الراشـدين أسيادِنا أبـي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، فلما كان المنهج واحدًا كانـت النتيجـة واحـدةً أيضًـا؛ ولا يختلـف السيد "أورخـان غـازي" (١٢٨١-١٣٦٢م) عـن أبيـه مـن حيث عشـق الحـق والحقيقة، وروح الجهاد، والبساطة والنقاء، فقد قضى معظم عمره على صهوة جواده.. أمـا السـيد "مـراد خداونـدكار" (١٣٢٦-١٣٨٩م) الـذي استشـهد في حرب "كوسوفا الأولى (١٣٨٩م)"، فما زالت كلمته التي ذكرها حين وافتـه المنيـة "إياكـم أن تنزلـوا عن خيلكـم" صوتًا ونفسًـا أطلقته هذه الفكرة وانفعل به ذلك الشعور، حتى نُقشتْ في سجل التاريخ.. لقد كان هـذا الحاكـم العظيم سياسـيًّا محنكًا، وأركانَ حربٍ عظيمًا، كما كان في الوقت ذاته وليًّا من الأولياء مطّلعًا على عالم المعنويات.

فـي عهـد هؤلاء القامات العظام الذين أشـرنا إلى بعضهم بجملة أو اثنتيـن رسَـمَ العثمانيـون لوحة باهـرة لامعـة في تاريخ الإنسـانية، واسـتمر هـذا العهـد الذي يمكننا أن نسميه "عهد الشـبيبة" حتى فتح إسـطنبول علـى يـد السـلطان محمـد الفاتـح (١٤٣٢-١٤٨١م)..

ومـع الفتـح بـدأ الغـرب يطلق علـى الدولـة العثمانيـة "الإمبراطورية العثمانيـة"، ولا يمكـن أن نقـول إن مشـاعر الصفاء والبسـاطة والطهر والنقاء التي كانت مهيمنة على الدولة في بداية هذا العهد قد ضاعت تمامًـا اعتبـارًا مـن هـذا التاريـخ، ولكـن لا يمكننـا أن نقـول أيضًـا إن الرؤوس لم تدر والبصائر لم تتكدّرْ بسبب ما تحقّق من نصرٍ وغلبة.

كان مـن بيـن مـن اعتلى العـرش بعد فتح القسـطنطينية السـلطانُ بايزيـد الثانـي (١٤٤٧-١٥١٢م) الـذي كان يعيش حيـاة رجال التكايا والزوايا، وكان يبذل كلَّ ما في وسعه لمواصلة الأمر بما فيه من صفاءٍ وصدقٍ كما كان الحال في بداية الأمر، ثـم جاء فيما بعد السـلطان "سـليم الأول (يـاووز) (١٤٧٠-١٥٢٠م)" جعـل اللهُ الجنة مثواه؛ كان مثالًا للعزم والتصميم والحسـبيّة والتضحية، وغير ذلك من الخصال التي تسـتلزمها غايته السـامية، فسـعى جاهدًا لإقامة الحق والحقيقة، والعمـل على أن تأخـذ الدولـة موقعهـا فـي التـوازن الدولـي، وبعـد هـذا البطـل العظيم تولى عرش السـلطنة السـلطان القانوني (١٤٩٤-١٥٦٦م) الـذي حمـى الدولـة العليـة لمـدة ستة وأربعين عامًا بالقوة التي استمدها من المصدر الأول لسلفه، ولكن إن أخضعنا كل هذه الفترات للتدقيق والفحص، وراقبناها عن قرب أكثر من حيث الحياة الاجتماعية فسنجد أن الدولة قد بدأت تفقد قوامها في هذا العهد.

ربمـا وصلـت الدولـة إلى وضـع مهيب بسـبب الصفـاء والصدق اللذيـن كانـا يُخَيّمـان علـى الصـدر الأول منهـا، وبدأ الملـوك يجثون كالعامة على أبوابها، لأنها أصبحت محطَّ أنظارهم وتقديرهم، ولكن مـن المؤكـد أن الدولـة كانـت تتفحّم من الداخل رويـدًا رويدًا، إذ لم يَعُد السـلاطين بعد السـلطان القانوني جعل الله الجنة مثواه -باستثناء

القليل- يخرجون للغزو على رأس الجيش.. لكم أن تتخيلوا مدى الفرحة التي غمرت شعب البلقان عندما زار دولتهم السلطان العثماني الخامس والثلاثين محمد رشاد (١٨٤٤-١٩١٨م)، وكأن حدثًا غير عادي قد وقع بهم، والحال أن وجود السلاطين بين الناس وقيادتهم للجيش كان يقوي الروح المعنوية لأفراده، كما كان هذا الفعل يعني بعث الخوف في صدور الأعداء الذين يُضمرون كل عداء وسوء للدولة ورجالها.

غير أن الخروج للغزو كان أمرًا عسيرًا على إنسانٍ يهرول إلى النوم بمجرد أن يداعب عينيه، ويضع رأسه على الوسادة في راحة وخلوِّ بال فيغطّ في النوم غارقًا، فإذا ما استيقظ جاؤوا له بالفطور، وبين الفطور والغداء يأتون له بوجبة خفيفة، ثم يلي بعد ذلك الغداء، ويرغب دائمًا في أن يظلّ مع أسرته... فمثلُ هذا يصعبُ عليه امتطاء صهوة الجياد للغزوِ في سبيل الله وذلك لأن الإنسان يصبح مع الوقت أسيرًا لهذه العادات ومدمنًا لها، والخروج للغزو وامتطاء صهوة الجواد يجبره على التخلي عن هذه العادات، ولذا يفضل ملذّات نفسه على الخروج للجهاد، وهذا كله يعني الدخول شيئًا فشيئًا في مرحلة التراخي، ومن الصعب جدًّا الحفاظ على المستوى في مثل هذا العهد الذي تبتسم فيه الدنيا بكل جمالياتها الفاتنة، وربما كان أسمى إنجاز حققه العثمانيون للحفاظ على هذا المستوى هو تنشئة رجال الروح والمعنى في التكايا والزوايا، ولا يخفى ما بذله شيوخ الإسلام الأقوياء الذين أنشأتهم الدولة في الوقت ذاته للحفاظ على هذا المستوى، وهذا يعني أنه إن لم يكن هؤلاء لبدأ هذا التفحم منذ فترة طويلة.

جهود لإطالة عمر الدولة

ولا يفهم مما ذكرته آنفًا أنني أهدف إلى النيل من هؤلاء السلاطين العظام وتشويه صورتهم؛ فهذه المرحلة الأخيرة التي مرّت بهم لا نرى بأسًا في تفهّمها والإقرار بها، حتى إننا يمكن أن نسميها: "حتمية إلى حد ما" أو "حتمية مقيّدة"، وبدهي أن مثل هذه المرحلة الطبيعية من التفحّم لا مناص للمجتمعات منها، ولكن قد تتأتى مسألة العلاج دائمًا على أيدي الأطباء الحاذقين، وعلى ذلك قد يتغير قضاء الله في هذا الأمر وفقًا لأساليب العلاج، ولعل هذه هي النقطة التي غابتْ عن ابن خلدون وغيره من المؤرخين الاجتماعيين الغربيين.

ولزيادة الإيضاح نقول: إن الله تعالى قدّر في علمه الأزلي وقتًا معيّنًا لفترات الانبعاث والرقي والانهيار التي تصيب المجتمعات، ونحن لا علم لنا بهذا الوقت، فمثلًا يمكننا أن نطلق "العهد الأول" على ذلك العهد الذي عاشه أبطالُ الإيمان والعشق والشوق الذين أوقفوا حياتهم على إحياء الآخرين وارتبطت أذهانهم بفكرة: "إن لم نحيِ العالم فلا حظَّ لنا أيضًا من هذا الإحياء".. ونظرًا لأننا لا نعلم الوقت الذي قدّره الله تعالى أزلًا لهذا العهد فلا يمكننا أن نقدّره بخمسين سنة أو مائة سنة؛ لأن القدَر هو تجلٍّ من تجليات العلم الإلهي، ولا قِبل لنا بمعرفته، وعلى ذلك فما يقع على عاتقنا هو أن نعطي إرادتنا حقها وأن نحاول مدّ عمر الخيرات والجماليات التي كانت في ذلك العهد أيًّا كان، سواء أكان الأول أو الثاني أو الثالث.

فلو قُدّر لكم أنكم "إن تصرفتم على هذا النحو ستتعرضون للتعثر والانكسار، وستعجزون عن النهوض مرة أخرى"، ثم بدأت تظهر

الإرهاصات الأولى لهذا الأمر، ولكنكم رغم كل شيء بلغتم مستوى رفيعًا في هذا الشأن؛ كأن أقبلتْ عليكم الدنيا بكل مفاتنها وأغدقت عليكم بمناصبها كالإدارة والوزارة وغير ذلك، وابتسمت لكم، ولكن رغم هذا حرصتم على رضا ربكم وقلتم: "ما هذا الذي يعرضه علي هؤلاء الناس بينما أنا أقوم بإقامة صرح هذا الرضا!"، وتصرفتم باستغناء مع كل هذه الأشياء على اعتبار أن هذا من مستلزمات صدقكم وإخلاصكم؛ فمن المحتمل حينذاك أن يتحول قضاء الله إلى عطاء بفضل دأبكم في الحفاظ على مستواكم وقوامكم، وأن تعيشوا فترة جديدة من الانبعاث في خضم هذا العهد من التفسخ والانهيار.

ولا يظنن أحدٌ أنني أستخفّ بالوظائف التي ذكرت أمثلة لها آنفًا، فلا شك أن هذه المناصب لها أهمية بالغة في الحياة الاجتماعية، وأي أمة في حاجة ماسة بالتأكيد إليها في حياتها السياسية والإدارية، ولكن على مَنْ تعلقت نفوسهم بهذه الغاية السامية ألا تتعلّق أذهانهم ألبتة بهذه المقامات والمناصب في مقابل الخدمات التي يبذلونها، وألا يتشوفوا إلى أي غرض دنيوي أو أخروي، وألا يعرِّضوا أنفسهم للذلة والمهانة في سبيل هذه الرغبات مطلقًا.

أجل، متى ما حافظ الناس على مستواهم واصلوا حياتهم وتجددهم، ومدّوا في عمر مجتمعاتهم؛ فمثلًا لو أنكم شاهدتم هذه الأرواح المتفانية وهي تفرّ من مكانها وتبدأ نشاطها لقلتم: "إن هؤلاء بنشاطهم هذا سيواصلون هذا العمل لمدة خمسين عامًا"، ولكن لمّا حافظ هؤلاء على مستواهم، وتغذوا تغذية روحية سليمة، وهيمنت روح الإيمان على حياتهم، وحرصوا على رضا ربهم، وحافظوا

على ولائهم وتبعيتهم له ﷻ غدت هذه الفترة التي قدرتموها بالخمسين عامًا مائةَ عام، بل لو دام هذا الحماس والانفعال، وسيطر الشدّ المعنوي على حياتهم الاجتماعية فقد تصل هذه الفترة إلى مائة وخمسين عامًا، وفوق ذلك إذا ما ظلت هذه الأرواح تحافظ على مستواها إلى حد ما في ذلك العهد الذي نشطت فيه الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، وسيطرت عليه المادية بكل وجوهها، واصطبغ بالفنون والأنشطة الثقافية؛ فقد يعيشون مائة وخمسين سنة أخرى، ولكن يتعرضون فيها أحيانًا إلى السقوط والنهوض، أو يوضعون في خيمة الأكسجين أو يدخلون العناية المركزة.. وقد تكون هذه الحملة الجديدة وهذا التوجّه الجديد في هذه الفترة وسيلتين لعطاءٍ آخر من الله تعالى ومزيدٍ من لطفه.

ولنرجع إلى موضوعنا الرئيس وهو الدولة العثمانية ونقول: لا بدّ أن تأخذنا الدهشة والحيرة من كيفية حفاظ الدولة العثمانية على وجودها هذه المدة الطويلة، وليس من انهيارها، وهي التي كانت محاطةً بهذا القدر من الخصوم؛ لأننا منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا وإلى الآن ما زلنا نحارب حفنةً من الإرهابيين في الجبال ولم نستطع التغلّب عليهم.. ولكم أن تتصوروا كيف كانت الدولة العثمانية محاصرةً من جهاتها الأربع بما في ذلك البحار بالخصوم والأعداء؛ ولذا كان وقوفُها من جديد على قدميها بينما هي في صراعٍ مع هؤلاء الخصوم أمرًا جدّ عسير، ولكن رغم كلّ شيء حافظت على وجودها، وأدّت مهمّتها التاريخية بقدر ما، ومن ثمّ فعلينا أن نأخذ كل هذا بعين الاعتبار، وأن نعلن ونعترف بفضائل ومزايا الدولة العثمانية، ونذكرها بمحاسنها، ونستغفر الله لها على مساوئها.

وقلّما نجد إمبراطورية أخرى استطاعت الحفاظ على وجودها مدة ستة قرون غير الدولة العثمانية، يمكن أن نجد الإمبراطورية الرومانية قد عمّرتْ مثل هذه الفترة الطويلة، ولكن كما تعلمون فقد تعاقب على عرشها ستٌّ أو سبع أسر، فعاشوا فترات مختلفة، بل إن الفراعنة في مصر لم يكونوا أسرة واحدة أيضًا، بل تغيروا خلال قرنين أو ثلاثة، ولذا فرغم ما تعرضتْ له الدولة العثمانية من هجوم واعتداءات دائمة من الجبهات المعادية في الشرق والغرب، ورغم وجودها في موقع خطِرٍ للغاية، لكنها حافظت على وجودها مدة ستة قرون، وهذا أمر -حسب قناعتي القاصرة- لا بد من الاندهاش والعجب له.

الظَّرافة ودماثة الخُلُق في المعاملات الإنسانية

سؤال: نلاحظ اليوم انعدامًا لآداب السلوك والمعاشرة بدايةً من قيامنا وقعودِنا حتى أسلوب خطابنا، فهل تُستفاد هذه الآدابُ من الكتب، وما الذي توصوننا به حتى يمكننا أن نتزود ونتجمّل بهذه الآداب، ونجعلها جزءًا من طبيعتنا؟

الجواب: آداب السلوك والمعاشرة هي أن يتحلى الإنسان عند معاملته للآخرين بالعفة والحياء والظُّرف والاحترام، وأن يتجنب بقدر الإمكان السلوكيات الجارحة اللاذعة حتى إزاء المعاملات السيئة أو الحوادث المريرة، وأن يحرص على أن يكون كلامُه وتصرّفاته قائمَين على الظرف والرقة والإخلاص.

لقد أقام العالم الإسلامي حضارةً من الأدب ودماثة الخلق يغبطه عليها حتى الملائكة، ومع الأسف فقَدَ تلك الخاصيةَ بعد فترةٍ معينة، وكأنه بدأ يعيش عهدًا جاهليًا جديدًا كذلك العهد الذي عاشته الإنسانية قبل عصر السعادة، لأن كل القيم التي نتبنّاها في هذا العهد قد أصيبت -كما يقول الشاعر الإسلامي التركي نجيب فاضل- بضربات متلاحقة حتى تهاوت وانهارت.

أجل، إن القرن العشرين قد شهد على انهيار كلِّ قيمِنا الذاتية؛ بدايةً من المنظومة العقدية التي قامت على جذورنا الروحية

والمعنوية حتى حياتنا التعبدية وصولًا إلى مفهومنا حول آداب السلوك والمعاشرة، فإننا لمّا قطعنا صلتَنا بديننا أضعنا قيمنا الخاصة بآداب السلوك والمعاشرة وفقدنا انضباطنا ومصطلحاتنا، فقدناها وصرنا غرباء على عالمنا الثقافي والفكري في تعاملاتنا مع الآخرين بدايةً من قيامنا وقعودنا حتى أسلوب حديثنا وخطابنا.

فمثلًا كان الإنسان في العهد العثماني إذا ما أراد تقديم ابنه لمخاطَبِه يحرص على أن يقول: "نجلكم"، فإن كان الولد بنتًا قال: "كريمتكم"، فإن اضطر إلى التعريف بنفسه استهلَّ حديثه بقوله: "خادمكم"، أما الأفراد فعند مخاطبة بعضهم بعضًا يستخدمون كل الألقاب التي تنمّ عن الاحترام والتوقير مثل: "جنابكم، سيدي،... إلخ". لم يكن هذا الأسلوب تصنّعًا أو تكلفًا، بل كان هذا هو ما تقتضيه التربية التي نشأنا عليها، أما في أيامنا فقد رأينا مَنْ يستخدم تعبيرات الاحترام في الماضي بهذا الشكل: "نجلي!، كريمتي!"، بل إنني لا أنسى ذلك البروفيسور الذي حاز على أعلى الدرجات العلمية، وقوله: "إن جنابي وسيادتي يفكر في الأمر على هذا النحو!"، فلما سمعته اندهشتُ متعجّبًا ولم أدرِ ما أقول، إذْ من المفترض أن تنمّ هذه التعبيرات عن التواضع وشفافية الروح، فكيف تصل إلى هذا الحد من سوء الأدب!؟ لأننا منذ عدة قرون لم نتعامل بآداب السلوك والمعاشرة، ولم نفعّلها في حياتنا.

وإنكم إن تخليتم عن هذه الآداب وعن القيم والأخلاق التي تقوم عليها وأقصيتموها عن حياتكم لبليتْ الكلماتُ المعبِّرة عن الاحترام والتقدير مع مرور الوقت وتهلهلتْ واندثرت، فإن أهملتم

هـذه الكلمـات ولـم تسـتخدموها إلا على سـبيل التـرف والولـع فلا مناص من الإخفاق والفشل.

جوهر المسألة: احترام الإنسان

إذًا فمـا الـذي لا بـدّ مـن القيـام بـه؟ أولًا علينا أن نبـدي الاحترام اللائق بماهية الإنسـان؛ لأن الإنسـان مخلوقٌ كريمٌ لا بدّ من احترامه وتقديره، يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾ (سورة التِّينِ: ٩٥/٤)، وهنا يبين ربنا ﷻ أن الإنسان مخلوق كريم محظي بقيمةٍ فـوق القيـم، وهـو فـي طبيعتـه يعبّر عن مثـل هذه القيمـة.. ولا يخفى عليكم أن رَسُولَ اللهِ ﷺ لما مُرَّ عَلَيهِ بِجِنَازَةٍ قَامَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّهُ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: "**أَلَيْسَتْ نَفْسًا**"(١٢٥)، ومن ثم فعليكم ألا تتخلوا عن احترامكم لهـذا الإنسـان الـذي خلقه الله مكرَّمًا وإن أسـاء معاملتـه معكم، حتى وإن اسـتخفّ البعضُ بقيمكم وأسـاء الأدب مع الله ورسـوله فعليكم أن تحافظوا على أسلوبكم معهم محافظتكم على شرفكم وعرضكم، ويجب ألا تنسـوا أنكم مسـلمون مزوَّدون بالأدب المحمدي والخلق القرآنـي؛ بمعنـى أن أخلاقكـم هـي أخـلاق القـرآن، فكيـف لكـم أن تتصرفـوا مثـل الآخرين؟! قد يُفلت لسـان الآخريـن، وبعضهم يدنّس المـكان الـذي يمـرّ بـه، ولكنكم لستم مثلهم، إنكـم مضطرون إلى أن تعبروا عما تتميزون به وتختلفون فيه عنهم حتى في أسوإ الظروف.

فـي الواقـع إن المؤمـن الحقيقـي يـكاد يتوقّـف قلبـه إذا تطـاول أحدهـم بالـكلام على الـذات الإلهيـة أو الرسـول الأكـرم ﷺ، ولكنه رغـم كل شـيء يتعامـل بـأدبٍ ولطف، ويقـول: "علـيّ أن أتعامل هنا

(١٢٥) متفق عليه.

بمقتضى الأدب الذي علّمنيه ربي ورسولي، وأن أردّ دون خروجٍ عن هذا الإطار"، ليس هذا فقط، بل يتحمّل كلَّ أنواعِ السلبيات ابتغاءَ مرضاة الله ورسوله، يتحمّل ولكن لا يتوانى في شرح حقيقة المسألة لمخاطبه بأسلوبٍ ليّنٍ رقيق مفعم بالحبِّ والشفقة.

أجل، لا بدّ أن يجعل الإنسان من احترامه لغيره قاعدةً أساسيةً في حياته، ويحترم الجميع وفقًا لمستواهم وميزاتهم التي يتحلّون بها؛ فمثلًا عليه أن يتحرك في احترامه انطلاقًا من حقيقة أن هذا الإنسان هو "عبدٌ لله" وإن لم يكن مؤمنًا، أو أنه "عبد مؤمن بالله"، أو أنه "عبدٌ مؤمن بالله حقًّا"، أو أنه "عبدٌ مؤمن بالله حقًّا ويشاركه المصير نفسه، أو يهرول للهدف نفسه معكم...، وبذلك يتضاعف احترام الإنسان لغيره حسب درجته، ويصل إلى قيمةٍ تفوق جميع القيم.

أجل، بداية يجب أن يتبدّى مثل هذا الشعور بالاحترام في داخلنا، فيصبح صوتُنا ونفَسُنا صوتَ هذا الشعور ونفَسَه.. إنني أعرف أُسَرًا يتخاطب فيها الإخوة مع بعضهم بـ"السيد فلان، والسيدة فلانة"، وهذا نابعٌ من التربية التي استقرت داخل هذه الأسر، وأيًّا كان ذلك الأخ كبيرًا كان أم صغيرًا فمن حقه ومن مقتضى احترام الإنسان للإنسان أن يُخاطب بهذه النوعية من الألقاب.. وهكذا عليكم أن تؤمنوا بهذه الحقيقة أولًا ثم تتلفظوا بها.

فمثلًا إذا ما حرص المراسلون الذين يعملون في قناة تلفزيونية على مخاطبة بعضهم بـ"السيد فلان" (ليس اسمه فقط) مثلًا بشكل يختلف عن أسلوب الخطاب العادي، فسيستقر هذا الأسلوب من الاحترام بينهم بمرور الوقت، وبعد مدة يصير لا غرابة فيه، ربما يبدو

هـذا الخطابُ في البداية فيه شيءٌ من التصنـع والتكلّف، ولكن مـع الوقـت تـزول هـذه الشبهة، ولذا فأيًّا كان نمطُ الأسـلوب الذي نعبر بـه عـن احترامنـا الذاتي فينبغي أن نحيي مثل هذه الأسـاليب ونفعّلها في حياتنا، فالأصل هو أن نشعر في أنفسنا بقيمنا الذاتية، ونعبّر عن أنفسـنا فـي جوٍّ مـن الاحترام والتقديـر؛ وعلى ذلك فـلا يصحّ لأحدٍ أن يتلفّظَ بكلماتٍ بذيئةٍ قبيحةٍ تؤذي الآخرين وتزعج أسماعَهم.

الشروع في العمل ولو بفئةٍ قليلة من الناس

والتحلّي بهـذه الأخلاق والآداب مرهونٌ بزمنٍ معين؛ فمنذ زمن طويـل ومجتمعُنـا يتعرض لعـددٍ كبير من الحماقـات والبذاءات، كما خـلا كلامنـا في هـذه الأيام من النظـام والاعتدال، ويمكـن القول إن اللهجة العامية سيطرت على المجتمع بأسره، ووسائلُ الإعلام أسوأ حـالًا مـن حـال المجتمـع، حتى إنـكَ لو اسـتعنتَ بالمعاجم للتعرّف على معاني بعض الكلمات التي تستخدمها وسائلُ الإعلام لوجدتَها مفردات من اللغة البذيئة الفظة التي يتكلم بها الصعاليك والمتشردون؛ وهذا ما يدفعنا إلى البدء بمعالجة جانبٍ من هذا الأمر، وإحياء شعور الاحترام من جديد.. قد يراعي هذا القدرَ من الحساسية بعضُ الناس في البداية، فهؤلاء وإن كانوا يعملون ضمن دائرة ضيقة فباستطاعتهم أن يكشفوا في كلِّ منتدى عن اختلافهم وتميّزهم من خلال أسلوبهم ومواقفهم وتصرّفاتهم، وأن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم.

ثمـة كتـبٌ كثيـرة قـد حُـرّرت حـول الآداب والأخـلاق العامـة، لا بـدّ مـن الاطلاع عليها والاسـتفادة منها، ولكن يجب ألا ننسـى أن الاعتـداد بمـا ورد فـي هـذه الكتـب من موضوعـات إنما هـو مرهونٌ باستخدامها وتفعيلها في المحافل الخاصة.

لقد كانت تصرّفاتُ الأئمة والمؤذنين وأفعالُهم في المساجد في فترةٍ ما تُكسب الناس كثيرًا من الجماليات الخاصة، فما أكثر الجماليات التي استلهمها المجتمعُ من المسجد! كما كان رجال التكايا والزوايا يُقدمون دروسًا متميزة في الآداب والأخلاق، وكانت العلاقات بينهم تجري دائمًا في أفق عظيمٍ من الاحترام والتقدير، ونظرًا لسير الحياة على هذا المنوال فقد غدا الاحترامُ بُعدًا كبيرًا من الطبيعة الإنسانية، وأضحى الناس طوعًا ودون تكلُّف أو تصنّع طبيعيين للغاية في تصرّفاتهم وأفعالهم وكلامهم.

لقد كانت مثل هذه المراكز النورانية تشع بأنوارها في الشوارع، وكان الحكماء يزينونها وينشرون الجماليات فيمَن حولهم، فكان كلُّ من يمرّ بهم يصطبغ بألوانٍ مختلفة من المشاعر والانفعالات، ولا يرجع على الحال التي كان عليها.

أما الآن فإنّ الشارعَ يُعاني من قحطٍ وحرمان شديدٍ، وبعض المؤسّسات أصيبت بِعُقْم في هذه المسألة، بل قد حُرمنا من أغلبها، وكما حُرِمنا منها حُرمنا ممن يعلمون فيها الأخلاق العالية الإسلامية، وهو ما يتطلّب منا السعي لإعادة إحياء هذه القيم الخاصة بآداب السلوك والمعاشرة في المحافلِ الخاصة ولو بحفنةٍ قليلة من الناس، فلو أقمتم مع بعض أصدقائكم في بيتٍ ما فعليكم أن تشرعوا في الأمر باسم الله، وتحاولوا إحياء روح الاحترام فيما بينكم من جديد، بل عليكم أن تُكثفوا جهودكم حول هذا الأمر وتجعلوه جزءًا من طبيعتكم؛ لأن بعض الخصوصيات المتعلّقة بالآداب وإن كانت تبدو مسائل فرعية بجانب بعض المسائل الحياتية المهمة التي تعمّر دنيانا

وأخرانا مثل الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر فإنها ضوابط لا ينبغي إهمالها والتغافل عنها، يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً: أَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْعَظْمِ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**"(١٢٦)، ويقول ﷺ في حديث آخر: "**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ البَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**"(١٢٧)، ومن ثمّ فعلينا ألا نستخف بمثل هذه الأمور مطلقًا وإن بدت صغيرةً في أعيننا.

وهنا أذكّر بأمرٍ آخر وهو أن كلّ هذه الأنواع من شُعَب الإيمان وما يترتب عليها من أعمال إنما هي مكملةٌ لبعضها البعض، فالتخلّق بهذه الآداب ابتغاء مرضاة الله فيه تذكيرٌ بالله ورسوله واليوم الآخر، ولا شكّ أن ذكره ﷻ لحظة ومعيته برهة يعادل آلاف اللحظات ممّا سواه، وعلى ذلك فمهما بدتْ هذه الأمور صغيرة فإنها كبيرةٌ للغاية باعتبار المعاني التي تستدعيها، وانطلاقًا من هذا نقول: ليفعل الآخرون ما شاؤوا، فعلينا أن نحيي فيما بيننا المسائل التي وصفها السابقون بالآداب الإسلامية والآداب القرآنية، وأن نكشف في الوقت ذاته عن مفهومنا الأخلاقي وظُرْفنا ودماثة أخلاقنا في معاملاتنا الإنسانية.

---

(١٢٦) صحيح مسلم، الإيمان، ٥٨؛ سنن الترمذي، الإيمان، ٦.

(١٢٧) صحيح مسلم، البر، ١٤٤؛ سنن الترمذي، البر، ٣٦، ٤٥.

طلب العناية

سؤال: ذكرتم فيما سبق أن المؤمن الحقيقي يسعى بجهدٍ وعزمٍ نبويّ بغية الفوز برضا الله تعالى وإحراز النجاح في خدماته، ورغم ذلك يَعتبر ذلك الجهد والسعي جهدًا ضئيلًا وسعيًا نسبيًّا وطلبًا للعناية من الله تعالى؟ فماذا تقصدون من وراء هذه القيود: "الجهد الضئيل" و"السعي النسبي" و"طلب العناية"؟

الجواب: على الإنسان أن يربط نيته وسعيه وجهده وخططه ومشاريعه بغايةٍ سامية، وأن يقتفي أثر هذه الغاية على الدوام، وأن يكون على استعدادٍ لأن يضحّي في سبيلها بكل ما يملك إن لزم الأمر، ولكم أن تصفوا هذا الجهد الذي تضطلعون به في هذه السبيل بالجهد النبوي؛ لأن سبيل التأثير الإيجابي في القلوب هو التحلي بالأوصاف العالية للمرشدين الحقيقيين من الأنبياء العظام عليهم السلام، فما يحمله هؤلاء الأنبياء الذين هم نجومُ سماءِ الإنسانية من صفات مثل العصمة والصدق والأمانة والفطنة والتبليغ إنما هي أبعادٌ مختلفة لحياتهمِ القلبية والروحية، ولقد اختصهم الله تعالى مع كل هذه الصفات بالأتمية والأكملية؛ لأنه لا يمكن لدينٍ أتمّ وأكمل أن يقوم إلا على يد أناسٍ يحملون هذه الصفات، وبما أن الله تعالى أقام هذا الدين -إن جاز التعبير- على أيدي رسله بمقتضى

قوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٥/٣) فعلى سالكي طريق هؤلاء الرسل أن ينشدوا الأتمية والأكملية في الإيمان والإسلام والإخلاص والعشق والشوق.

العمل من منطلق الأنانية

قبل أن يرتحل الرسولُ الأكرم ﷺ إلى أفق روحه، وقبل أن يُغادر الدنيا بليلة واحدة أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يؤمّ المسلمين في الصلاة[١٢٨]، فكان هذا شرفًا عظيمًا وأفضليةً كبيرةً لسيدنا أبي بكر رضي الله عنه، كما أن تقبّل المسلمين لإمامة الصّدّيق رضي الله عنه يعدّ شرفًا آخر.

أجل، لقد تقبّل الصحابة الكرام رضي الله عنهم هذا الموقف بفهمٍ عميق وصدرٍ رحب، واقتدوا بمن اختاره لهم رسول الله ﷺ إمامًا.. في تلك الأثناء كشف سيدُنا رسولُ الله ﷺ سترَ حجرته المباركة فرأى أداء جماعة المسلمين لعبوديتهم في طمأنينة وراء هذا الإمام المبارك، فتبسم سرورًا بأداء رسالته، ثم أرخى الستر[١٢٩]، أرخاه في الوقت ذاته على الدنيا كلها، غير أن مفخرة الإنسانية صلوات ربي وسلامه عليه كان مسرورًا وهو يرتحل إلى أفق روحه؛ لأنه رأى تلك النخبة التي ستتحمل أعباء دعوة الإيمان واقفةً في خضوع واستسلام أمام الله تعالى تجمعها روحُ الوحدة والإخاء.. في الواقع كانت هذه هي غاية حياةِ سيد الكونين ﷺ، ولذا أرخى الستر المبارك في سكينةٍ وطمأنينة.

(١٢٨) صحيح البخاري، الأذان، ٥١؛ صحيح مسلم، الصلاة، ٩٠-٩٧.
(١٢٩) صحيح البخاري، الأذان، ٩٤؛ صحيح مسلم، الصلاة، ٩٨.

ويمكننا أن نلمح مثل هذه الرؤية السامية وتلك الفكرة العالية عقب حادثة لقاء الرسول الأكرم ﷺ بالجن وتبليغه دين الإسلام لهم، فكما جاء في الرواية التي ذكرها سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قد أومأ إلى قرب أجله بقوله بعد تلك الحادثة: "**إِنِّي وُعِدْتُ أَنْ يُؤْمِنَ بِيَ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ، فَأَمَّا الْإِنْسُ فَقَدْ آمَنَتْ بِي، وَأَمَّا الْجِنُّ فَقَدْ رَأَيْتَ**"، قَالَ: "**وَمَا أَظُنُّ أَجَلِي إِلَّا قَدِ اقْتَرَبَ**"(١٣٠).

أجل، لقد ربط سيدُ الكونين ﷺ غايةَ وجوده في الدنيا بدعوته ورسالته، فلما انتهت رغبَ في الخلاص من ضيق جسده واللحاق بالرفيق الأعلى على وجه السرعة.

يجب على كل فردٍ يعشق القرآن الكريم، ويسعى عالميًّا إلى تحقيق مهمة "البعث بعد الموت" من جديد.. يجب عليه أن يضعَ هذه الفكرة نصبَ عينيه فيتخذها غاية له، بل عليه أن يقول..."اللهم إني عبدك، سخَّرْتَني وسيلةً للوفاق والاتفاق، واستخدمتَني في طريق الحق، اللهم إن كنتُ سأعمل بعد اليوم من منطلق أنانيتي، أو لو كانت أنانيتي ستخالط عملي فاسلُبني روحي، وخلّصني من الشقاء والتعاسة والتردّي إلى أسفل سافلين".

على الإنسان أن يتعامل مع هذا الموضوع بجرأة وشجاعة، فإذا ما دخل إلى فراشه ليلًا ووضع رأسه على وسادته ساورته هذه الفكرة: "لا معنى ولا مغزى لحياتي إن لم أكن نافعًا لديني".

وعلى الإنسان أن يزين هذه الفكرة بجهدٍ وعزم نبوي، وأن يعلي من همته، وينشد من الصفات ما كان الأنبياء قد تحلّوا به.. ينبغي

(١٣٠) الطبراني: المعجم الكبير، ٦٧/١٠.

له أن يقول: "اللهم نمِّ استعداداتي أكثر وأكثر، القدرُ قدرُكَ والقضاءُ قضاؤك، والعطاء عطاؤك، فحوّل اللهم ما قضيتَه عليّ إلى عطية تهبها لي، وتفضّلْ علينا باستعدادات لا نهاية لها، وأدِم علينا تنامي قابلياتنا، ووفِّقْنا إلى حسنِ تأمُّل الأشياء وتقويمها".

ومَن لا حظّ له من النبوة لا يستطيع أن يبلغ أفق الأنبياء ألبتة؛ لأن هؤلاء أرسلوا بتجهيزٍ خاص لإرشاد الإنسانية، بل إنه من الصعب على الإنسان أن يبلغ حتى أفق أمثال الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل والإمام الأوزاعي والإمام الثوري رحمهم الله، لا سيما الأئمة الأربعة العظام فهم رجال أفقٍ عظيم أعلى حتى من الأقطاب؛ لأنهم بما حرّروا من مؤلفات وعلّموا من طلاب قد قاموا بحركة إحياء مهمة، وعملوا على استقامة فكرة الإحياء هذه على الدوام.

المهم أن نمحو ذاتيتنا

أجل، إنّ طاقتنا لا ترقى حتى إلى مستوى الظلية، ناهيك عن الأصلية لذلك المقام الذي أحرزه الأنبياء عليهم السلام، ولكن رغم كل هذا فعلى الإنسان أن يكون عالي الهمة في علاقته بربه سبحانه وتعالى وخدمته لدينه، وأن ينشد دائمًا الغايات السامية، وأن يُقبل على الأمر في صفاء وصدق ووفاء وهو يرجو الله أن يهبه هذه الصفات العالية.

إن الشخصيّات الشامخة التي جاءت من بعد الأنبياء وأتباعهم قد بذلت جهدًا مُضْنِيًا في هذا السبيل، ومع ذلك اعتبروا جهدهم هذا "جهدًا ضئيلًا" و"سعيًا نسبيًّا" و"طلبًا للمعونة".. ولتوضيح هذا الأمر نذكر المثال التالي: إن الجهد الذي نبذله في هذا الموضوع يشبه

حالَ مَن ألقى بنفسه في البحر ولا يعرف السباحة، فظل يتخبّط هنا وهنالك حتى يستطيع أن يعوم، فلما شاهده الناس قالوا: "إن هذا الرجل لا يعرف السباحة فهلمّ بنا لننقذه"، وهكذا حال مَن يحاول السير في طريق العظماء يقول: "اللهم لا طاقة لي على السير في هذا الطريق، ولكنني وهبت نفسي لهذا الأمر، ولقد نظرتُ إلى الأنبياء العظام والأولياء الفخام والأبرار الكرام فوجدتهم جميعهم يسبحون في هذا البحر، فكل أملي يا ربي أن أسير على منوالهم وإن كنتُ لا أتمكن من السباحة مثلهم"، ثم يلقي بنفسه في هذا البحر، وهكذا فإن مثل هذا القول وذلك الفعل يُعدّان طلبًا للمعونة، ولا جرم أن الله تعالى لن يسمح بغرق عبدٍ توجَّه إليه، وسيأخذ بيده وينقذه مما هو فيه، وبعد ذلك يفتح له آفاقًا جديدةً، فيجعل من اللمعة شمسًا، ومن القطرة بحرًا، ومما لا شيء كلَّ شيء، المهم هو أن نتبنى هذا المفهوم ونمحو ذاتيتنا؛ وأن ننسلخ من موجوديتنا ودعوى الأنانية، فكما تعلمون لا قيمة للصفر مطلقًا، ولكن إن وضعنا بجانبه رقمًا واحدًا زادت قيمته أضعافًا مضاعفة.

ومن ثم فعلى الإنسان أن يبذل في هذا السبيل كلَّ ما أوتي من جهد وسعي، ولكن عليه أن يلزم حدّه على الدوام، وأن يعيَ منزلته، ويكون في تيقُّظ وحذر دائمين.. يجب ألا يَنسب الجمال إلى نفسه ألبتة، بل عليه أن يستحضر دائمًا دون نسيانٍ أنه ليس مظهرًا للجمال بل ممرًّا له -على الأكثر-؛ لأن الجمال ليس ملازمًا لذاتيتنا، فأحيانًا يظهر وأحيانًا لا يظهر، مثل فقاعات الماء التي تعكس أشعة الشمس، فكل الجماليات لا تليق إلا بصاحب الجمال ﷻ. أجل، ليس هذا

الجمال خاصًّا بنا ولا نابعًا من لدنّا، وهكذا فمن يفكر بهذه الشاكلة يبارك الله له في أعماله ومجهوداته، ويصبح بطلَ الآية التي تقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (سورة إِبْرَاهِيمَ: ١٤/٧)، ويفيض الله عليه بمزيد من النعم باستمرار.

الحسد وسوء الظن

سؤال: ذكرتم أن الحسد وسوء الظن من الأمراض النفسية، فما أسباب وجود مثل هذه الأمراض، وهل هناك من وسائل للعلاج؟

الجواب: الحسدُ وسوءُ الظنّ كلٌّ منهما ذنبٌ قائم بذاته، وبينهما تلازم؛ بمعنى أن كلًّا منهما يترتب على الآخر، فمثلًا من يسيء الظن فيمن حوله يحمل مشاعر العداء في داخله لغيره دون وعي منه؛ لأنه يسيء التفكير دائمًا في أفعالِ وتصرّفات ذلك الغير دائمًا، بل ويُؤوّل كل هذه الأفعال والتصرفات البريئة على نحوٍ سيّئ؛ فعلى سبيل المثال الشخص المحسود يسعى ويجتهد في الحقيقة لنيل رضا الله تعالى، غير أن الحاسد يعتبره شخصًا يسعى إلى إظهار نفسه وتزكيتها، ويظن به الظنون.

حمادى القول: إن سوء الظن يؤدّي إلى الحسد أحيانًا، والحسدُ يؤدي إلى سوء الظن أحيانًا أخرى، ومن ثمّ فإن كلا الذنبين يُدخل المرءَ في محيط دائرة فاسدة، أما المؤمن فعليه أن يتتبع الدائرة الصالحة لا الفاسدة؛ بمعنى أن على المؤمن أن ينشد أعمالًا تكون مصدرًا لأعمال خيّرة أخرى، فما إن ينتهي من عملٍ خيّر حتى يشرع في آخر.

الشرارة والحريق

يبدأ الحسد وسوء الظن في البداية كميلٍ طفيفٍ، ولكن إن لم تُوفّ الإرادة حقها وتُتخذ التدابير اللازمة، فقد تتحول هذه الميول مع الوقت إلى أمراض نفسية؛ وبتعبير آخر: إنّ انحرافًا صغيرًا في مركز الدائرة يُشكل زاوية كبيرة في محيطها؛ فالحاسد مثلًا يغار مما يقوم به المحسود حتى من العبادات الأخروية كالصلاة والحج، ومع الوقت تتحوّل هذه الغيرة إلى حالة مَرَضية، وإلى حسدٍ يعادل الكفر والعياذ بالله، ثم لا يلبث إلا أن يقول عن أخيه المؤمن كلامًا يتنافى مع الإيمان من قبيل: "ليت قدمه تنكسر أو تسقط الطائرة التي يركبها ولا يستطيع الحج!".. ومن ثم فعلى الإنسان منذ البداية ألا يعترف بحقّ الحياة لهذه المشاعر التي تبدو في القلب صغيرة للغاية، وألا يسمح لها باستدعاء الذنوب الكبيرة؛ لأن الإنسان قد يتغلّب بسهولة أكبر على هذه الذنوب في صغرها، ولكن إن لم يتعهد نفسه بالتوبة والاستغفار حينما تطلّ هذه الأمراض برأسها فإنها تتعاظم بمرور الوقت ويسودّ القلبُ كليةً ويُطبع عليه، وقد عبر الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله في مؤلفه "اللمعات" عن خاصية هذه الذنوب بقوله: "كل ما تكسبه أيدينا من إثم، وكل ما يلج إلى أذهاننا من شبهة، يشق جروحًا غائرة في قلوبنا، ويفجر قروحًا دامية في أرواحنا..."[١٣١]، وهذه الحقيقة يؤكدها سيدنا رسول الله ﷺ فيقول: "**إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** (سورة الْمُطَفِّفِينَ: ١٤/٨٣)"[١٣٢]،

---

(١٣١) بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الثانية، النكتة الأولى، ص ١١.

(١٣٢) **سنن ابن ماجه**، الزهد، ٢٩؛ **سنن الترمذي**، التفسير، ٧٤.

فكما رأينا في الحديث الشريف فإن كل ذنب ينكتُ نكتة سوداء في حياتنا القلبية، وكل نكتة تستدعي نكتة أخرى كما تفعل الجراثيم التي تنخر الأسنان تستدعي أخواتها قائلة: "تعالوا فالطريق هنا ممهدة، لننخر الأسنان ونصيب جرحًا في اللثة"، وكذلك الحال بالنسبة للنكتة التي تتشكل في القلب تستدعي النكات الأخرى قائلة: "لا تدعوني وحدي!"، وبذلك تتعاقب النكات تلو بعضها، وعند ذلك تتجلى الحقيقة التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (سورة الْمُطَفِّفِينَ: ١٤/٨٣)، ونتيجة لهذا يتشكل في القلب مناخٌ قاتم السواد، لدرجة أن الإنسان لا يمكنه أن يرى الصواب صوابًا والمعوج معوجًّا، وبسبب عدم تمييزه بين المستقيم والمعوج تراه يسير دائمًا في طرق معوجة وهو يحسبها مستقيمة.

الحرص على تتبّع الجلسات الإيمانية

أما عن أهم وأنجع السبل للنجاة من مثل هذا الخطر فهو تجديد الإيمان من خلال إقامة جلسةٍ إيمانية دائمة كل يوم وإن ببضعة أشخاص.

أجل، لا يمكن معالجة هذه النوعية من الأمراض إلا بتشبّع الوجدان بالحقائق الإيمانية الغضة المتجددة على الدوام؛ ولذا يجب على الإنسان أن ينظر إلى الإيمان كل يوم بنظرة أخرى، وأن يسعى على الدوام للوصول إلى أفق إيماني ومعرفي جديد قائلًا: إلهي ما استطعتُ أن أعرفك بالأمس كما أعرفك اليوم؛ ففوّتُّ على نفسي الكثير، أما اليوم فقد اختلف شعوري ومعرفتي بك في وجداني اختلافًا كبيرًا"، وهكذا علينا أن ننظر إلى عقيدة الحشر والنشر على هذا النحو، وأن يضطلع الحذرُ من الآخرة والخوف من الحساب

بـدورٍ مهـمٍ في توجيه أفعالنا وتصرفاتنا، فالفـوزُ بالجنة منوطٌ بالنجاة مـن القبـر واجتياز الصراط ورجاحة كفة الحسـنات فـي الميزان على كفّة السـيئات، فإن لـم نسـتطـع ذلك -نسـأل الله السـلامة- فهذا يعني أن عاقبتنا وخيمةٌ قاتمةُ السواد..

ومن ثمّ فعلينا أن نعرف قضايا الإيمان بالآخرة معرفتَنا بالحروف الهجائيـة، وأن نعمـل علـى الشـعور بهـا مـرة أخـرى فـي أفئدتنـا بـأن ندرسها كل يوم بشكلٍ وأسلوب ونمطٍ مختلف..

وعلى غرار مسألة الإيمان بالآخرة علينا أن نتناول مسألة الإيمان بالنبـوة بمثـل هذا الأسـلوب فـإذا ما تبادر إلى العقل مفخرة الإنسـاية محمد ﷺ تحرّقتْ القلوبُ شوقًا وحنينًا إليه..

وهكذا علينا أن نفعل بمسـألة الإيمان بالقدر حتى إذا ما داهمتنا أشد المصائب قلنا "الخير فيما قدّره الله" أو "الحمد لله على كل حال سـوى الكفـر والضـلال".. أجـل، علينا عند أيّ مصيبـة أو ابتلاء قاسٍ أن نستجمـع قوانا ونقول: "في كلٍّ خير، لا بد أنه إنذار من الله تعالى".

وكمـا أنـه مـن المهـم التركيـز علـى حقائـق الإيمـان كلهـا فمـن المهم أيضًا أداء أركان الإسـلام بروحٍ تعبّدية مثالية دقيقة كاملة؛ لأن استيعاب الدقـة فـي امتثـال الأمر أهم مـن إجـراء آلاف المحاكمات المنطقية العقلية.. فلقد اسـتخدم الشـيطان عقله الفذَّ فخسـر، أما آدم عليه السلام فقـد اسـتوعب دقـة الامتثـال للأمر بعد زلته من ناحية ما، فرسـم قوسًا وارتقى عموديًّا حتى فَاقَ الملائكة.

ولتحقيـق كل هـذا يجـب علـى كل من لديه قدرٌ مـن المعلومات ويسـتطيـع التعبير عنها أن يشـمّر عن سـاعديه ويسـرِّع من وتيرة هذا

الأمر، ويهرول من درس إلى آخر، ويجعل من القضايا المطروحة موضوعًا لجلساته الإيمانية، وكما تُتَّخذ بعض التدابير للوقاية من نزلات البرد التي قد تتسلّط على الناس في الخريف فكذلك علينا أن نتّخذ التدابير اللازمة للتغلّب على الأمراض المعنوية التي تعد أشدّ من الأمراض الجسمانية والبدنية؛ لأن الأمراض المعنوية هي أخطر وأعظم من الأمراض المادية لدرجةٍ لا يمكن مقارنتها، فالأمراض المادية تؤلم الإنسان، وأكثر ما تفعله هو أن تقضي على حياته الفانية، أما الأمراض المعنوية فتقضي على الحياة الروحية والقلبيّة في هذه الدنيا كما أنها تتسبب في الآخرة في محو حياته الأبدية.. ومن ثم فلا بدّ من التغلّب على هذه المشكلة وحلّها منذ البداية وعدم إتاحة الفرصة لتفاقمها.

والواقع أنني لا أدري أباستطاعة المرشدين أن ينجحوا دائمًا في معالجة الأمراض المعنوية مثل الغيرة والحسد أو لا!! لأن مسألة إزالة القيح والصديد والرّان الذي على القلب أمرٌ يدخل ضمن مشيئة الله، ولكن على كل حال على الإنسان أن يسعى بمقتضى قول الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (سورة النَّجْمِ: ٥٣/٣٩).

أجل، على القلب المؤمن أن يسعى إلى تعمير التصدّعات التي تشكّلت في حياة الفرد والمجتمع، وأن يعالج المصابين، وأن يأخذ بأيدي المرتجفين والمترنّحين، وأن يسعى إلى دحض الأفكار السلبية التي تتبادر إلى الذهن وتُراود الخيال، فتكدر التصوّرات، وهذا هو الوفاء والمروءة المتوقّعة من المؤمن، وغير ذلك يعتبر ضياعًا للوفاء وتبلُّدًا للشعور.

الاستفادة من النصيحة والجلسات الإيمانية

سؤال: ما هي الأمور التي يترتب عليها تمام الاستفادة من النصيحة؟ وما الذي يجب مراعاته حتى تكون جلسة النصيحة الإيمانية مثمرةً ونافعةً للمتحدّث والمتلقّي على السواء؟

الجواب: النصيحة هي إرادة الخير للمنصوح له، والاشتغال بأمر الإحسان إليه، وإسداء المعروف له.. ويختلف أسلوب النصيحة من شخصٍ لآخر ومن مجتمع لآخر وفقًا للعلاقة بين الناصح والمنصوح له، فقد يكون النصحُ بالموعظة أو الكتاب أو الكتيّب أو من خلال اتباع سبلٍ مختلفة للنفوذ إلى أرواح الذين يعملون معه في مجال واحد، بالقدر الذي تسمح به وظائفهم ومهامهم.

والنصيحة هي حاجةٌ ملحّة وضرورية دائمًا للإنسان على كافة المستويات، والقرآن الكريم يلفتُ أنظارنا إلى هذه المسألة المهمة بقوله: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الذَّارِيَاتِ: ٥١/٥٥)، و"الذِّكْرَى" الواردة في الآية لها درجاتٌ متفاوتة مثل الدعوة إلى الإيمان والإسلام والإحسان، أو الدعوة إلى التعمق في الإيمان، واستيعاب الإسلام بشكلٍ كلي.. ومما يسترعي انتباهنا أيضًا أن مجيء كلمة "ذَكِّرْ" من باب "التفعيل" يدل على أهمية الذكرى وديمومتها؛ لأن معنى الآية الكريمة: واظِبْ على الذكر والنصيحة دائمًا

وإلى الأبد.. بمعنى أن الآية الكريمة ترشد إلى المواظبة على النصيحة وعدم الإعراض عنها بحجّة عدم استجابة المنصوحين وتمرّدِهم، ويشير سيدنا رسول الله ﷺ إلى هذه الحقيقة بكلامه النفيس: "**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**"(١٣٣). أجل، النصيحة هي روح الدين، وهي حاجةٌ ضرورية لمعايشة الدين وإحيائه على المستوى الفردي والاجتماعي، فإن أُهملت هذه الوظيفة فلا مفرَّ من انهدام بنية الإسلام إن عاجلًا أو آجلًا، وفي الواقع كانت الحياة المباركة للنبي ﷺ تجري دائمًا في إطار النصيحة.. فقد كان ﷺ يجلس في المسجد النبوي في ساعات معينة من اليوم، فيأتيه الصحابة رضي الله عنهم ويتحلّقون حوله، فكان بعضهم يسأله عن العبادات، وبعضهم يستوضح منه شيئًا مما سمعه منه سابقًا، وبعضهم يسأله عن معنى بعض الآيات القرآنية، ولا أذكر مطلقًا أن النبي ﷺ تفوّه إزاء هذا كله بكلمةٍ تشير إلى امتناعه عن الحديث أو عدم إجابته على السؤال، غير مرة واحدة فقط آلى فيها من نسائه، وانزوى بنفسه، غير هذا لم تُحدِّثنا كتب السير عن أنه اختلى خلوة أخرى.

أجل، كان مفخرة الإنسانية ﷺ مع أصحابه دائمًا، يفسر لهم آيات كتاب الله تعالى، ويجيب على أسئلتهم واستفساراتهم، ويحلّ لهم المشاكل التي تَعرِض لهم، وبذلك تَشكَّل الجزء "القولي" من السنة الصحيحة التي حفظَته لنا الكتب الصحاح، أما أفعاله المباركة فكانت تُشكِّل الجزء "الفعلي" من السنة الصحيحة، كما أن سكوته ﷺ عن بعض الأعمال التي تقع أمام ناظريه كان يمثّل الجزء "التقريري"

(١٣٣) صحيح مسلم، الإيمان، ٢٣.

من السنة الصحيحة؛ لأن سكوته ﷺ عن فِعْلٍ قام به أحدُ الصحابةِ رضي الله عنهم كان يدلّ على إباحته؛ وبمعنى آخر فإن سكوت النبي ﷺ كان يقوم بوظيفة المصفاة في تحديد الأمور التي يمكن القيام بها في إطار الشرع، فكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون وفقًا لهذه المصفاة: "إذًا هذا صحيح من ناحية الشرع".. وهكذا كان النبي ﷺ يستخدم هذه الأساليب الثلاثة في تعليم الصحابة رضي الله عنهم.

الحديث حسب الحاجة

إن جريان الجلسات الإيمانية على صورة السؤال والجواب يُسهم في الاستفادة الأكبر منها بشرط أن يتحلى كلٌّ من المتحدث والمتلقّي بالإخلاص؛ بمعنى أن سؤال المتلقي عما يعِنّ له من أمور وإجابة المتحدّث عن ذلك يجعل الجلسةَ أكثر نفعًا وفعالية، أما إن لم يراعِ المتحدِّثُ مشاعر المستمعين ولم يعبأ بما هم في حاجةٍ إليه تَحوّلَ على منبره إلى خطيب حماسي يطرَبُ المستمعون لحديثه لدقائق معدودة، غير أنه لا أحد يستفيد من هذا الحديث الاستفادة الإيجابية الكاملة.

وكما يجب على المعلِّم في المدرسة أن يتدرّج مع طلابه في شرحه للدروس، فيقسمها حسب مستواهم على أسابيع أو شهور أو أعوام حتى يضمن استيعابهم لها فكذلك يجب على الواعظ أو الناصح أن يراعي أفق مخاطبيه وإدراكهم ومكتسباتهم، ويتّخذ التدرّج منهجًا له في عرضه لموضوعاته حتى يضمن استيعاب مخاطبيه له، وتشبُّعَ روحه للموضوعات التي يطرحها، غير أن طريقة العرض لا يستطيع أن يقوم بها إلا من ينظر إلى المسألة نظرة شاملة كلية،

أما مَن كان همُّه قضاء يومه على أي وجه كان، ولا يكثّف همَّه في موضوعٍ واحد؛ فلن يحقق الاستفادة المرجوة لدى مخاطبيه؛ لعدم الانسجام والتوافق بين ما يطرحه من موضوعات، من أجل ذلك لا بد من تحديد القضايا التي يحتاجها المجتمع تحديدًا جيّدًا منذ البداية، فمثلًا إن كان هناك قصورٌ في الصلاة فلا بد أن يدور الحديث حول حقيقة الصلاة وروحها وجوهرها وأركانها، وإن كان ثمة جهلٌ مثلًا بقدر وقيمة سيدنا رسول الله ﷺ فيجب أن يتمركز الكلامُ بكل جوانبه حول مفخرة الإنسانية محمد ﷺ، في محاولةٍ لنقش حبه في أرواح المخاطبين.. ومن أجل تحقيق الاستفادة القصوى من المسائل المطروحة لا بد من إتاحة الفرصة للأسئلة التي تعلق بأذهان المخاطبين، فكما أننا إن أدلينا دلوًا في بئر ماء وسحبنا منه الماء تفتحت فيه ينابيع مياه أخرى فكذلك الأسئلة تساعد المتحدثَ في شرح الموضوع بشكلٍ أفضل.

أجل، يجب على المستمع استحلاب المتحدث بما يلقيه عليه من أسئلة حتى تؤتي الجلسة الإيمانية ثمارها.

الفناء في النصيحة والجلسة الإيمانية

من ناحية أخرى فإن الاستفادة من النصيحة منوطةٌ بإخلاص المتحدث واستعداد المتلقّي للاستفادة مما يُقال. أجل، يجب أن يتحلى المتحدث بالإخلاص التام، وتكون لدى المستمع نية الاستفادة، وبما أن الدين نظامٌ إلهي أنزله الله فينبغي أن يوجَّه الحديث إلى العلاقة مع الله سبحانه وتعالى.. زد على ذلك أن المتحدث لا بد وأن يسبر أغوار موضوعه الذي يتحدث فيه، لدرجة أن ينسى نفسه، ويصير

بطلًا من أبطال الحَدَث الذي يتحدث عنه، فمثلًا إن كان يتحدث عن سيدنا حمزة أو سيدنا أنس بن النضر رضي الله عنهما فعليه أن يعتبر نفسه ذلك البطل الذي يتكلم عنه، ويغيب عن وعيه، ويفنى في موضوعه تمامًا، ولكم أن تطلقوا على هذه الحالة: "الفناء في الجلسة الإيمانية، أو الفناء في الوعظ"، فلا بد أن يَعملَ الموضوع على تشكيل نوعية انفعال المتحدث الذي اندمج مع موضوعه، فأحيانًا يبتسم، وأحيانًا يبكي، وأحيانًا أخرى تطرب روحُه فيرفع صوته وهكذا.. وبلوغ هذا الأفق مرتبطٌ بإيمان الإنسان قلبيًّا بما يقول.

كما يقع على عاتق المستمع أيضًا أن يشارك المتحدث انفعالاته في هذه العملية التقابلية، فمثلًا إن كان المتحدث يصول ويجول في ساحة الحرب، ويحلّق نحو الآفاق، ويتجول بين مراتب السير والسلوك فيجب على المتلقي أن يتَتَبّعه بخياله وتصوراته ويشاركه فيها.

الأحكام المسبقة عوائق تحول دون الاستفادة

وحتى تكمُل الاستفادة من الجلسة الإيمانية لا بدّ ألا يُسيء المتلقي الظنّ بمحدّثه، وأن يكون مستعدًّا لقبولِ ما يُلقى إليه، فلا تحصل الاستفادة بدخول الكلام للآذان فقط، بل بتأثيره في القلب واستيعابه بآليات الحس المختلفة.. ومن أجل تحقّق الاستفادة الكاملة أيضًا يجب أن يتجنّب المتلقي أيَّ نوعٍ من أنواع الغيرة والحسد، وأن يتخلى عن الأنانية والحذلقة.. فإن اعترضت المستمعَ مشكلةٌ في فهم بعض الأمور فعلى المتحدث أن يستمر في إلقاء السمع والإصغاءِ للمتحدث على أن يقابله بعد انتهاء الدرس ويناقشه فيما لم يفهمه، وأن يفتح ذهنه وقلبه دائمًا لكل ما يُلقى.

فإن اختلَّ شيء مما سبق فلا مناص من وقوع شيء من الخسوف والكسوف بين المتلقي والمتحدّث.

نعم، إن لم نتخلّ عن أغراضنا وحقدنا وكراهيتنا وأنانيتنا وحذلقتنا عند سماع الدرس أو الموعظة فإنّ شيئًا من التصادم سيحدث داخلنا، وسيُشكِّل سدًّا منيعًا دون استفادتِنا.. ومثل هؤلاء الناس حتى وإن كانوا يستمعون للأئمة العظام كأمثال الإمام الغزالي والأستاذ النورسي، بل وإن تشرفوا بالجلوس بين يدي سيدنا رسول الله ﷺ فلن يحققوا أي استفادة لأن حقدهم وكراهيتهم وأنانيتهم ستحول دون ذلك؛ فالكثير مثل أبي جهل وأبي لهب استمعوا له ﷺ لكنهم عجزوا عن الاستفادة، وكما نشاهد نحن أيضًا في أيامنا هناك الكثير من أمثال أبي لهب يستمعون إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويحضرون مجالس المشايخ العظام، ومع ذلك لا يستفيدون شيئًا أبدًا.

وتجدر الإشارة أخيرًا إلى نقطة ما، وهي أنه كما يُعَدُّ النجاح والتوفيق والمقام والمنصب نوعًا من الابتلاء فكذلك العلم أيضًا فيه ابتلاء، وقد يخسر الكثيرون في هذا الابتلاء.

أجل، إن ادّعاء العلم يمثل عائقًا دون استفادة الإنسان من النصيحة أو الموعظة، وقد يبعده عن الدين وعن الله تعالى ورسوله ﷺ.. وينبّه القرآن الكريم إلى هذا الأمر قائلًا: ﴿**فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة الزُّمَرِ: ٣٩/٤٩).

والواقـع أن النعمـة التي تُبعد العبدَ عن ربه ﷻ ما هي إلا مصيبة في ثوب النعمة. أجل، إن كانت النعم التي أنعمها الله تعالى علينا مثل المقام والمنصب والمكانة والرتبة والألقاب في الجامعات والأنظمة المختلفة تتسبب في نسيانا إياه ﷻ وتغذِّي شعورَ الغفلة في داخلنا فهي نقمةٌ بالنسبة لنا، ومصيبةٌ كبيرة في صورة النعمة.. أما سبيل النجاة من هذا الخطر فيعتمد على ربط كلٍّ من المتحدِّث والمتلقّي المسألةَ برضا الله تعالى، وإشارةِ بوصلةِ القلبِ إلى مرضاة الله تعالى دائمًا.

ولذا لا بد أن يأخذ المتحدّث والمتلقي بمثل هذا التهيُّؤ وأن يزكّيا نفسيهما ويطهراها بعدم مدحِها وتبجيلِها، وأن يحطما رأسها بآلاف المطارق، فإن حدث هذا وعُولِجت المسألة بنيّةٍ خالصةٍ وصفاءِ قلبٍ ونقاءِ روحٍ فستؤتي النصيحةُ بإذن الله ثمارها وتكون أكثر نفعًا وبركة.

الغاية الأسمى والشعور بالشغف

سؤال: لدى الإنسان اليوم شعورٌ بالشغف كثيرًا إزاء الأخبار اليومية والجدالات السياسية وحياة المشاهير؛ فما هو الشغف؟ وما حكمة وجوده لدى الإنسان؟ وكيف يُستخدم هذا الشعور بما يخدم الغاية من الخلق؟

الجواب: الشعور بالشغف هو عاملٌ مهمّ يثير لدى الإنسان الرغبةَ في الوصول إلى الحقيقة، ويُشعل في نفسه جذوة العشق والشوق إلى البحث والدراسة.. ولذا يجب على الإنسان أن يستخدم مثل هذا الشعور المهم في سبيل غايةٍ سامية، وفي رأيي أن هذه الغاية هي معرفة الله (الذات الأجلّ الأعلى) الذي خلق الإنسان من عدم، وشرّفه وكرمه على سائر مخلوقاته، وجعل الدنيا ممرًّا إلى الجنة ومزرعة إلى الآخرة، وزيّن الكون بأسمائه الحسنى، وأرسل رسلًا هادين غير مضلِّين؛ أزالوا الغشاوة عن الأعين حتى أبصرت كلّ شيء على حقيقته.. ومن ثمّ يجب على الإنسان أن يثير شعور الشغف لديه طوال عمره، وأن يسعى إلى معرفة الذات الإلهية المنزّهة عن الكمّ والكيف على قدر استطاعته.

"لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ"

جاء في الأثر: "**تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ، وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي اللهِ**"(١٣٤)، فهذا البيان النبوي يُعدّ معيارًا لنا في هذا السياق.. قد يشعر البعض بسبب سعة صدورهم وعمق مشاعرهم وأفكارهم ببعض الأمور المنزهة عن الكم والكيف فيما يتعلق بالذات البحت (الذات الإلهية)، ولكن هذه الحقائق التي يشعرون بها لا تتيسّر للجميع، من أجل ذلك علينا مراعاة الحد الذي وضعه مفخرة الإنسانية ﷺ وأن ندور في مدار الأسماء والصفات؛ لأنه سبحانه ﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾ (سورة الأَنْعَامِ: ١٠٣/٦)، لا تدركه الأبصار لأنه يتجاوز حدود كل شيء، فهو المحيط، والمحيط لا سبيل إلى الإحاطة به من قبل المُحَاط بهم في الوقت ذاته.. ولذا على الإنسان أن يعي أن لمعرفته حدًّا وماهيةً محددة، وأن يتعرّف على ما هو مرخّص به للجميع.

كلّما عرفه الإنسان أحبه، وكلما أحبه طلب المزيد من المعرفة

ويلفت الأستاذ النورسي رحمه الله انتباهنا إلى هذه الحقيقة السامية أي الغاية من خلق الإنسان بقوله: "اِعلمْ يقينًا أن أسمى غاية للخلق، وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية.. هو الإيمان بالله.. واعلم أن أعلى مرتبة للإنسانية، وأفضل مقام للبشرية.. هو معرفة الله التي في ذلك الإيمان.. واعلم أن أزهى سعادة للإنس والجن، وأحلى نعمة.. هي محبة الله النابعة من تلك المعرفة.. واعلم أن أصفى سرور لروح الإنسان، وأنقى بهجة لقلبه.. هو اللذة الروحية المترشحة من تلك المحبة"(١٣٥).. وهكذا جعل فضيلة الأستاذ النورسي الذوق الروحاني

(١٣٤) الطبراني: **المعجم الأوسط**، ٢٥٠/٦؛ البيهقي: **شعب الإيمان**، ٢٦٢/١.

(١٣٥) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب العشرون، المقدمة، ص ٢٧١.

غاية إلى جانب الإيمان بالله، ومعرفة الله، ومحبة الله، ولكم إن شئتم أن تسألوا هذا في الدنيا أو تؤخّروه إلى الآخرة، ولكن يجب أن نعرف أنّ تجلِّي الذوق الروحاني في نفوسكم قد يدفعكم إلى المزيد من البحث والدراسة انطلاقًا من فكرة "هل من مزيد؟".

إننا إذا عرفنا الله تعالى بمثل هذا التعمّق المعرفي حقّ معرفته فأحسب أننا سنُحسن تخطيط حياتنا، وسنسعى للسير في هذا السبيل، وسيُسيطر علينا شعورٌ بتبليغ ما عرفناه وشعرنا به للآخرين.. وأغلب الظنّ أن مثل هذا التعمّق المعرفي يقف وراء عشق سادتنا من الصحابة الكرام والحواريين الفخام لهذه المسألة.

أجل، كانوا يعرفون الله تعالى جيّدًا، ويشعرون به يقينًا، وبذلك تعمّق الإيمان في قلوبهم، فكان من نتيجة هذا أن أَثارَ هذا الإيمانُ شدًّا معنويًّا في داخلهم جعلهم يقولون: "كيف يمكننا أن نحدِّث الناس عن الذات الإلهية التي تتجلى وتدوِّي بتجلياتها المختلفة في داخلنا".

وكلما استوعب الإنسان مع الإيمان بالله الأركانَ الإيمانية والأسسَ الإسلامية على ماهيتها الحقيقية شعر بعلاقة حميمة تجاهها.. فمثلًا إذا شعر الإنسان بالشغف إلى معرفة قدر سيد العالمين صلوات ربي وسلامه عليه لدى ربه ﷻ، وإلى سبر أغوار الماهية الحقيقية التي تعبر عنها الرسالة المحمدية من أجل الإنسانية فإنّه يسعى إلى معرفته ﷺ معرفة تليق بماهيته الحقيقية، ومع الوقت يشعر الإنسان بأن النبي ﷺ صار مرشدًا يوجّهه في كل أحواله وتصرفاته.

أجل، بقدر معرفتنا أركان الإيمان والإسلام يزداد فهمنا للانسجام والتناغم بين طبيعتنا وجماليات هذه الأركان.. ومَن شعر بكل هذا في وجدانه توجه إلى ربه قائلًا: "إلهي فداك نفسي وروحي، لقد أحسنتَ إلينا بأن عرَّفتنا بك وبرسولك وإن كان بهذا القدر المعين، فلك الحمد آلاف المرات على كل هذا!"، ثمّ يعمل على التنقيب أكثر فأكثر في أرض المعرفة حتى تزداد معرفته.. هب أنكم أدليتم دلوكم في بئر ما وأخذتم في سحب الماء، فإنكم كلما سحبتم من البئر تفجرت به ينابيع أخرى، وكلما فار الماء انتابكم شعور بالطرب والمرح، وهكذا يثور لديكم شعور غامر بالشوق والاشتياق، وتصبحون من أبطال: "هل من مزيد؟".

الشغف أستاذ العلم

والشغف يُعدّ عنصرًا مهمًّا في مسألة قراءة كتاب الكون، وكما ذكرَ الأستاذ النورسي ﵀: "الشغفُ أستاذ العلم"[١٣٦].. والمقصود من العلم هنا ليس العلم (*Science*) بضيق معناه الذي يستخدم في أيامنا الحالية، بل العلم الذي ظاهره المعلومات النظرية وباطنه المعرفة الحقيقية وما يتبع ذلك من محبة واشتياق إلى الله ﷻ؛ ولذا يقول الحق ﷻ مخاطبًا سيدنا رسول الله ﷺ ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (سورة طَهَ: ٢٠/١١٤)، فالعلم الوارد هنا ليس معرفة ماهية الأشياء بشكل مجرد، ولكنه مفهومٌ يتحوّل إلى عرفان ومعرفة فعّالة تصل بالإنسان إلى محبة الله والتعمق في العشق والشوق، وهكذا يجب أن نفهم معنى أن الشغف هو أستاذ العلم.

(١٣٦) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، نوى الحقيقة، ص ٥٨١.

والواقـع أن بعضًـا مـن أهـل الدنيا لديهـم نوع من الشـغف بقراءة كتاب الكون، وعلينا أن نقابلَ هذا الشغفَ بكلِّ احترام وتقدير.. ولكن لما كان هؤلاء ينظرون إلى المسـألة في إطار قوانين الطبيعة فحسـب وبملاحاظاتهـم الطبيعيـة والمادية لم تُتَح لهـم الفرصة للانفتاح على الأفكار الماورائية، ربما كان من بين هؤلاء أناسٌ منفتحون على الروح والمعنـى، بـل إن بعضهم قد ركن إلى الاشـتغال بعلم النفس الغيبي، فمثلًا لما طغت المادية على الغرب في وقت ما انتشرت بكثرة فكرةُ تسخير الجن وتحضير الأرواح، وقد أظهر الأديب والشاعر الفرنسي "فكتور هوجو (١٨٠٢-١٨٨٥م)" ولعًا كبيرًا بهذه المسألة، وأظن أننا إذا ما درسنا روايته "البؤساء" دراسة متعمقة فسنجدها مليئةً بمثل هذا النـوع مـن الميـول.. وليس "فكتور هوجو" فحسـب، بـل إن كثيرًا من أنصار الفكر الماديّ قد اشتغلوا بهذه الأمور، لكن معظم من اشتغلوا بالعلـوم الطبيعية توقّفـوا عند نقطة معينة ولم يتجاوزوها؛ إما لانعدام المرشد، أو لقصور معارف الدين الذي ينتسبون إليه.

ورغـم كل شـيء ليس بالإمكان إنكار سـعي هـؤلاء لأنهم فعلوا كل مـا باسـتطاعتهم مـن التأمّـل في كتـاب الكون.. وكمـا ذكرتُ من قبل فإن هناك الكثير من هؤلاء قد نذروا أنفسـهم للتعرف على حياة حيوان واحد فقط، فمثلًا ذكر أحدهم أنه اشتغل عشرين عامًا بدراسة حياة العقارب، وقال آخر إنه قد قضى عمره في التعرّف على معيشة الأفعـى.. وهـذا بالطبـع نتيجة طبيعيـة للشـغف، ولكـن لمّا لَـمْ تكن الأمـور الميتافيزيقيـة (كالوحـي والغيب) مصدرَ إلهام لهم كما ذكرتُ قبل قليل فقد واصل هؤلاء سعيهم دون أن يتجاوزوا حدود الطبيعة.. فقـد عجـزوا عـن الوصـول إلى مـا وراء الأشـياء، ولم يكن بوسـعهم

الانفتاح على الأفكار الميتافيزيقية.. كما أنهم لم يقدروا على سبر أغوار الروح والمعنى، بل لم يفتشوا في أنفسهم ويتأملوا في ذلك النظام العجيب الذي يجري في اتّساق وتكامل، ولذا لم يَصِلوا إلى الفاعل الحقيقي والمؤثّر الحقيقي وهو الله ﷻ.. فضلًا عن ذلك ليس بالإمكان الاعتماد على العالم المادي في إدراكِ ما يحمله الإنسان من رغبةٍ في الخلود، وآمالٍ منعقدة على الأبدية، وغير ذلك من أبعاد إنسانية.. بمعنى أن كل هذا قد جاء من عالم آخر، ووُهب إلى الإنسان من أجل عالم آخر، وهكذا أُصيب العلماء والباحثون المنغلقون على الميتافيزيقا بشيء من العمى وكأنهم لا يبصرون كل هذا، أو بنوع من الصمم وكأنهم لا يسمعون الرسالات المتعلقة بكل هذا، وبسبب بُعْدهم عن التفكر والتذكّر والتدبّر توقفوا عند نقطة معينة ولم يتجاوزوها.

ولكن إن كان هؤلاء قد توقّفوا عند نقطة معينة بسبب أفكارهم الوضعية والمادية فعلى المؤمن ألا يكون كذلك، لأنه مطالَبٌ بتعميقِ أفكاره المتعلقة بالإنسان والكون والحوادث والأشياء في ظلّ ما تلقاه من معطيات خاصة بالحقائق الإيمانية، وأن يستعين بالتفكر والتدبر والتذكر والتفقّه للانفتاح على أفكار أخرى.

ولا جرم أن لكل إنسانٍ إحاطةً ومفهومًا وأفقًا معرفيًّا خاصًّا به.. والصوفية يلفتون الانتباه إلى هذا الاختلاف بتقسيمهم العلم إلى ثلاثة أنواع: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.. ولكن يجب على الإنسان وهو يسير بقدم العلم ليقرأ الأوامر التكوينية ويفسّرها أن يرجع دائمًا إلى القرآن الكريم القولِ الشارح والتفسيرِ

الواضح والبرهانِ القاطع والترجمانِ الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه[137]، وبذلك يستطيع أن يفسر تفسيرًا صحيحًا تلكَ المواضعَ التي تبدو مبهمةً ومغلقةً في الأوامر التكوينية.

أجل، يجب على الإنسان عند اشتغاله بالفيزياء والكيمياء والفلك والإنثربولوجيا والزولوجيا أن يرجع إلى القرآن الكريم المعجز البيان؛ لأنه بمثابة المرشد الهادي غير المضِلّ.. وبذلك تُفهم لغة هذه العلوم بشكل صحيح، ويكون هذا سببًا في التعرف على الذات الإلهية التي تشير إليها وتعبر عنها تلك العلوم، ومن ثمّ حُبّها والتعلق بها أكثر وأكثر.

(١٣٧) بديع الزمان سعيد النورسي: **الكلمات**، الكلمة الخامسة والعشرون، المقدمة، ص ٤١٧.

الدعاء معونة عظمى من المؤمن لأخيه

سؤال: انتشر فيما بيننا طلبُ الدعاء من بعضنا، ولكن مع مرور الوقت أصبح هذا الطلب عاديًّا، فما الحالة الروحية التي يجب أن يكون عليها كلٌّ من الطالبِ والمطلوبِ منه؟

الجواب: الدعاء له أهمية بالغة من بين سائر العبادات؛ إذ إنه يوطِّد العلاقة والصلةَ بين العبد وخالقه ﷻ، ومن خلاله تتحدّد ماهيّة المعاملة من الله لعبده.. فالشخص الداعي هو الذي يشعر بدايةً بعلاقته وارتباطه بربه ﷻ، حتى إنه يصل إلى شعورٍ بأنه في صلةٍ مع الحضرة الإلهية، من خلالها تتحدّد ماهيّة معاملة الله له؛ حيث إن الله تعالى يجعل من توجُّه العبدِ إليه بالدعاء وسيلةً للقبول، ويعامله سبحانه بما يليق بجلاله وعظمته.

عبودية ثرية صافية

والدعاء من جانب آخر هو عنوانٌ للتضرّع إلى الله تعالى بشيء يتجاوز حدود الأسباب، ومن ثم فالدعاء هو عبوديّة صادقة خفيّة بين العبد وربه، وهو يختلف عن العبادات والطاعات الأخرى التي يمكن القيام بها ضمن دائرة الأسباب، فمثلًا الصلاة يصاحبُها شيء من المشقة، وكذلك الصوم والحجّ تلحقهما بعضُ المكاره، من أجل

ذلك قد تكون هذه المشقات المصاحبة لأداء العبادات بمثابة المسوغ للتشوّف إلى أجر وثواب من الله تعالى، غير أن رفع العبد يديه بالدعاء وهو في غاية الفقر والعجز وتوجُّهه إلى ربه ﷻ في صدقٍ وإخلاص كاملٍ وتوقع الإجابة منه سبحانه هو نوع من العبادة الخفية الخالصة.. وعلى ذلك فللدعاء خصوصية تميزه عن سائر العبادات.

وإننا إذا ما نظرنا إلى الحياة السنية لمفخرة الإنسانية سيدنا رسول الله ﷺ لوجدنا أن الدعاء كان يهيمن على كل حياته، فقد كان الدعاء والتضرّع والتوسل إلى الله تعالى الشغلَ الشاغلَ له ﷺ في ليله ونهاره؛ عندما كان يأوي إلى فراشه(١٣٨) وينهض منه(١٣٩)، أو يركب دابته(١٤٠)، أو يخرج إلى الغزو(١٤١)، أو يستقبل الناس(١٤٢)، بل إنه كان يلتمس الدعاء أيضًا حينما يتعرّض للبلاء(١٤٣)، وكأنه نسج كل حياته بحريرِ الدعاء.. وإذا ما نظرنا إلى الأقوال النيرة التي صدرت عنه ﷺ لوجدنا أن هذه الأقوال كانت في نصابها ومكانِها المناسب، وأنها تليق تمامًا بالعلاقة بين العبد وربه؛ ونظرًا لأن سلطان الأنبياء كان أكثر الناس دقّة وحذرًا ومعرفة بالله تعالى فهو على درايةٍ تامة بكيفية الطلب والدعاء لله تعالى على الوجه الأكمل.

أجل، لقد كان النبي ﷺ يراعي الدقّة البالغة في اختيار كلماته، لدرجة أننا لا يمكننا أن نتردّد فيما بين صواب هذه الكلمات

(١٣٨) انظر: **صحيح مسلم**، الذكر،٦٠؛ **مسند الإمام أحمد**، ٧٩/٢.
(١٣٩) انظر: **صحيح البخاري**، الدعوات، ٧، ٨، ١٦؛ **صحيح مسلم**، الذكر، ٥٩.
(١٤٠) انظر: **صحيح مسلم**، الحج، ٤٢٥؛ **سنن الترمذي**، الدعوات، ٤٦.
(١٤١) انظر: **سنن الترمذي**، الدعوات، ٤١؛ **مسند الإمام أحمد**، ٨٣/٥.
(١٤٢) انظر: النووي: **الأذكار**، ١٨٠.
(١٤٣) انظر: **سنن أبي داود**، الوتر، ٢٦؛ **سنن ابن ماجه**، الدعاء، ١٧.

أو خطئها.. ولما كان التوجّه إلى الله تعالى بكلمات تليق بكماله من الأهمية بمكان فالأولى لنا أن نتوجه إلى ربنا بالأقوال النيرة المأثورة عن سيد السادات ﷺ، ولذا إن ذكر الإنسان في دعائه ألف مرة: "**اللّٰهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبِيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ**"(١٤٤)؛ فعليه أن يعتبر هذا قليلاً بالنسبة إلى شخصه ويزيد على هذه المرات؛ لأن النبي ﷺ لا يطلب شيئًا لا يحبه الله أو لا يرتضيه الله.

طلب سيد السادات ﷺ الدعاء من صحابته رضي الله عنهم

وطلب الدعاء كما ورد بالسؤال له أهميةٌ بالغة بالنسبة لنا، فكم من المرات طلبَ سيدُ الكونين ﷺ الدعاء من صحابته رضي الله عنهم؛ فعلى سبيل المثال لمّا كان يشتكي طلبَ الدعاء من أمنا عائشة رضي الله عنها، لقد عانى نبيُّنا ﷺ معاناة بالغة كأمته قبل أن يرحل إلى أفق روحه؛ وذلك حتى تعلو درجته، ويحظى بالمقام المحمود، وتتسع دائرة شفاعته، وتوهب له إمكانيات وصلاحيات تؤهله لاحتضان أمته كلها.. فكما ورد بالحديث الشريف أنه صلوات الله عليه قال: "**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الْأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**"(١٤٥)، لقد امتدّت يد المرضِ إلى جسدِ سلطان الأنبياء ﷺ في لحظاته الأخيرة؛ فـ"قَدْ عَصَبَ رَأْسَهُ بِعِصَابَةٍ دَسِمَةٍ"(١٤٦) حتى يهدّئ من وجع رأسه الشريف، وكانت أمنا عائشة رضي الله عنها تمسك

(١٤٤) سنن الترمذي، الدعوات، ٨٨.

(١٤٥) مسند الإمام أحمد، ٤٥/١٠.

(١٤٦) صحيح البخاري، الجمعة، ٢٩.

بيديه وتمسح بهما وجهه رجاء بركتهما[147]، فلما أرادت أن تفعل ذلك في اللحظات الأخيرة جذب ﷺ يديه وقال: "**اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى**"[148]؛ بمعنى أنه قد فهم أن مراد الله له أن يتوجه إلى الآخرة، ولذا جذب يده ولم يطلب الدعاء وهو يرحل إلى أفق روحه.

وذات يوم جاء عمر رضي الله عنه يستأذنه في الخروج إلى العمرة فأذن له ثم قال: "**لَا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ**"[149].. وطلبُ النبيِّ ﷺ الدعاءَ من عمر وغيره من الصحابة رضي الله عنهم رغم أنه عاش في كنف الله تعالى في حالة استغناء عن الآخرين ورغمَ أن الله تعالى يستجيب له كلَّ أدعيته لَيُعَدُّ مؤشِّرًا على أهمية مسألة الدعاء وضرورةِ عدم الاستخفاف بها.

أَسْرَعُ الدُّعَاءِ إِجَابَةً

وفي هذا الصدد يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**إِنَّ أَسْرَعَ الدُّعَاءِ إِجَابَةً دَعْوَةُ غَائِبٍ لِغَائِبٍ**"[150]، وبعد أن ذكر الأستاذ النورسي رحمه الله الشروط التي لا بدّ من توافرها لإجابة الدعاء أضاف شرطًا آخر وهو الدعاء بظهر الغيب، مبينًا أن الدعاء بهذه الشروط يُرجى من رحمته تعالى أن يكون مقرونًا بالاستجابة[151].. ويقول الأستاذ النورسي في بعض المواضع من مؤلفاته: "لا أكفّ عن الدعاء لكم صباح مساء، فاذكروني أنتم أيضًا في دعائكم، فإنّ أعظم معونةٍ من المؤمن لأخيه المؤمن هو الدعاء"، ويقول في موضع آخر: "أما "سعيد" الذي هو أخوكم في الآخرة، فهو معكم صباح مساء في الدعاء والتضرع

(147) **صحيح البخاري**، فضائل القرآن، ١٤؛ **صحيح مسلم**، السلام، ٥١.

(148) **صحيح البخاري**، الدعوات، ٢٨؛ **صحيح مسلم**، فضائل الصحابة، ٨٧.

(149) **سنن أبي داود**، الوتر، ٢٣؛ **مسند الإمام أحمد**، ٢٩/١.

(150) **سنن أبي داود**، الوتر، ٢٩.

(151) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب الثالث والعشرون، السؤال الأول، ص ٣٤٠-٣٤١.

إلى المولى الكريم"، "لا تنسني من دعائك أنت وكذلكَ أنتِ يا أختي في الآخرة ويا أمي الثانية ويا والدة أخي العزيزة، إنني دائمًا أشرككم في دعائي، فاجعلوا من دعائكم لي تأمينًا على دعائي"، وهو بذلك يشير إلى مَغبّة الاستخفاف بهذه المسألة.

وأريد هنا أن أنبه إلى مسألة أخرى تناولَها السؤال وهي: أن مسألة طلب الدعاء من بعضنا قد شاعت بيننا حتى إننا غضضنا الطرف عن روحها ومعناها، ومن ثم صار هذا الطلبُ قولًا مبتذلًا، وفقدَ روحَه وشعورَه، وأصبح لا طعم له إن جاز التعبير.. فمثلًا أصبحت عبارة "ادع لنا يا أخي" من قبيل الأقوال المستهلكة.. ومن ثم يجب على من يرجو الدعاء من أخيه أن يكون صادقًا مخلصًا في طلبه؛ بمعنى ألا يكون هذا الطلب كالقول المبتذل الذي تلوكه الألسنة ولا يقترن به الشعور، وأن يكون مصحوبًا برغبةٍ وشوقٍ عارم وحسن ظنٍّ بمن نطلب منه الدعاء.. كما لا بد عند طلب الدعاء أن تحدونا الأملُ العارمُ في أن يدعو هذا الشخصُ لنا ويُستجاب له دعاؤه، وأن نؤمن يقينًا بأن الله تعالى يقبل الدعاء بظهر الغيب.

أجل، يجب أن تسيطر على عالمنا الداخلي عند طلب الدعاء أفكارٌ من قبيل: "لولا عناية الله ودعاء المخلصين من عباده المؤمنين الذين هم سببٌ لتجلّي هذه العناية لكنت على شفا خطر عظيم، ولمتُّ -حَفِظَنا الله- على ضلالة".

ولا بد أن تغمرنا المشاعر والأفكار التالية عند طلب الدعاء: "أخي، ناشدتُك الله.. إذا لم يكن الأمرُ فيه ثِقَلٌ عليك فاذكرني في دعائك وأنت تدعو لإخوانك المؤمنين".

أجل، على من يسأل أخاه الدعاء أن يتزيّن بالعجز والفقر والضعف، وأن يعتقد أنه لولا عناية الله ما استطاع أن يواصل حياته، وأن يعتبر أن دعاء أخيه له هو أعظم وسيلة لجلب العناية الإلهية.

الدعاء والوفاء

وكما أنّ على مَن يسأل غيره الدعاء أن يفكر على هذه الشاكلة فكذلك على مَنْ استؤمن الدعاء ألا يهمل الدعاء لأخيه وفاءً لحقِّه عليه؛ إذ يجب عليه إن اقتضت الضرورة عند قيامه لصلاة التهجد أو الوتر أو الحاجة أو أي صلاةٍ كانت؛ أن يرفع يديه ويدعو لمن شاء، ثم يخصص بضع دقائق على الأقل للدعاء لصديقه الذي طلب منه الدعاء، وبذلك يكون قد أعرب عن مروءته ووفائه لأخيه؛ لأنه كان بمقدوره أن يخصص هذه الدقائق لنفسه، وبدلًا من أن يقول مرة واحدة: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهِ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ" يكرر هذا الدعاء عدة مرات، غير أنه بعد أن دعا لنفسه مرة بهذه الدعاء اتجه كي يدعو لهذا وذاك، وللطائفة الفلانية وللجماعة الفلانية وهكذا، فكان بذكره هؤلاء في دعائه قد وفى بِدَينه لإخوانه، وكأنه يقول: "اللهم إني فتحتُ لك قلبي وبَثَثت همومي ولُذتُ بوفائك من أجل أخي الذي يؤمن بك ويشاركني نفس دربي"؛ لأنه يجب ألا ننسى أنه لا أحد أوفى من الله.

هب أنهم قد جاؤوا لكم بقائمة تحتوي على مائة اسم من أتباع حركةٍ نماذجُها من ذاتِها، وقالوا: "إن هؤلاء يطوفون بكل أرجاء العالم، ويعملون هنالك بأجر زهيد، ولم يسببوا لنا الخزي والعار، فنسألكم أن تدعوا لهم بأن يصمدوا في مكانهم، وتُيسَّر لهم خدماتهم،

ويمنع الله عنهم البلايا والمصائب"؛ فالحقُّ أن مقتضى الوفاء لهؤلاء الناس الذين أحسنوا الظن فيكم هو أن تستغلّوا أشرف الساعات التي يتنزل الله تعالى فيها بلطفِه ورحمته ويقول: "**مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟**"[١٥٢]، وأن ترفعوا أيديكم بالدعاء للأشخاص الواردة أسماؤهم بهذه القائمة سواء كنتم على معرفة بهم أو لا.

الدعاء المقرون بالشعور والوعي

ومن الأهمية بمكان أن تكون كلُّ كلمة يدعو بها الداعي نابعةً من شعوره. أجل، يجب أن يطبع الشعورُ كلَّ كلمةٍ تخرج من فم الإنسان؛ لأن سيّد السادات ﷺ يقول: "**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**"[١٥٣].. ومن ثمّ يجب على الإنسان أن يشعر بعمقٍ في وجدانه بكل كلمةٍ تخرج من فيه، وأن يكون على وعي بما يَسأل، وفي هذا الصدد يجب أن ننبّه إلى أن خطرًا ما قد يحيق بالشخص الذي يُطلَب منه الدعاء، وهو أن البعضَ قد يطلب الدعاء من شخصٍ يحسنون الظن به كثيرًا لأنهم عرفوا عنه أنه يعمل في سبيل الله منذ حوالي أربعين أو خمسين عامًا، ولا جرم أن حسن الظن بمثل هذا الإنسان الذي يعيش على هذا الخط المستقيم منذ حوالي أربعين أو خمسين عامًا أمرٌ عادي في حدّ ذاته، فينبغي عدم الاستهانة به مطلقًا، لأن الاستخفاف بمثل هذا الوفاء والولاء يُعد من ناحيةٍ ما استهانةً بمرضاة الله تعالى، وسوءَ أدبٍ معه ﷻ، بل عليّ ألا أنظر إلى إخلاص هذا الشخص لغايته من عدمه، ولا إلى مدى استيعابه

(١٥٢) صحيح البخاري، التوحيد، ٣٥؛ صحيح مسلم، صلاة المسافرين، ١٦٦.
(١٥٣) سنن الترمذي، الدعوات، ٦٥؛ الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ١/٦٧٠.

لهذه الغاية بكل محاورها الرئيسة، ولا إلى قدْرِ الأعمال التي قام بها لتحقيق هذه الغاية؛ وإنما عليّ أن أجرّد الأمر من كل هذا، وأن أنظر إلى أن ذلك الشخص وقفَ أمام الباب الذي كان عليه أن يقف عنده، وأنه ظل طوال عمره واضعًا رأسه على عتبتِه؛ فعلى سبيل المثال فضيلة الأستاذ النورسي رحمه الله ظل من مبتدإ حياته إلى منتهاها ثابتًا على موقفه لم يغيره قط، فكان موقفُه ذلك أعظم من أدعية كثيرة تلهجون بها طوال ساعات؛ ولذا قد يأتي البعض إلى شخصٍ يحسنون الظن به، ويسألونه الدعاء لهم، ومثل هذا الموقف يقتضي من ذلك الشخص الذي يُطلب منه الدعاء أن يعيَ بأنه في مقام العبودية، فيَلزم حدّه.

أجل، قد يوفي الآخرون حقّ إرادتهم وبعد ذلك يتّجهون إلى ذلك الشخص ويطلبون منه الدعاء، وإزاء هذا الموقف يجب على ذلك الشخص أن يلزم التواضع والمحو وألا يخرج عن حدّه، ويسأل الله ما يريد قائلًا: "اللهم لا تكذّب ظنهم فيّ، فأنا أخجل من اللامبالاة بالناس، والإعراض عنهم"، فإن حدث واستجيب دعاء هذا الشخص فينبغي له ألا ينسى أن الأمر كله بيد الله تعالى، ويُرجع الاستجابة إلى حسن ظن الناس به، وتوجّههم الصادق إلى ربهم سبحانه وتعالى.. فإنْ نظر الإنسان إلى الأمر على هذه الشاكلة فلن يتلطّخ بالشرك ولن تُداخله الأنانية.. فيجب على الجميع أن يتحرك بحيطةٍ وحذر، فإن أجرى الله تعالى الشفاء على يد أحدٍ، فليعترف بالفضل في ذلك إلى الله جل جلاله، فمثلًا على الإنسان إذا ما وضع يده على المريض أن يقول: "اللهم اجعل يد سيد السادات صلى الله عليه وسلم فوق يدي، وخلّص هذا الإنسانَ مما يشكو منه، فأنا لا حول لي ولا قوة ولا أملك من الأمر

شيئًا، ولكن ما دام هذا الإنسان قد توجه بحسن ظنه إلي فلا تردّه يا رب خائبًا، وأنعم عليه بالشفاء برعايتك وكلاءتك وعنايتك".. عليه أن ينسب الأمر إلى صاحبه الحقيقي، وينجو بنفسه منه.

ويجب أن ننوّه أن قيام البعض بفتح بيوتٍ خاصة للدعاء والكهانة، وكتابة الأحجبة للغادي والرائح، وامتهان هذه الوظيفة ليس من الإسلام في شيء، فقد بين الإسلام أماكن الدعاء وكيفيته، غير أن امتهان هذا العمل والزعم بأن الشفاء لا يتأتى إلا بهذه الوسيلة لهو خطرٌ عظيم وجرمٌ كبير؛ حيث يجعل الشخصَ ينسب إلى نفسه أشياء لا تليق إلا بربه سبحانه وتعالى.. من أجل ذلك يجب على المؤمن أن يكون حذرًا على الدوام، وأن يعتبر نفسه إنسانًا عاديًّا، وأن يتحرّى مثل هذا الوعي والحساسية البالغة في جميع حياته.

الضعف البشري وسيلةٌ لرقيّ الإنسان

سؤال: بم توصون الإنسان الذي يقول: "تكمن في فطرتي بعض الخصال الذميمة والأخلاق السيئة مثل الطمع والعداوة والعناد"، فما السبيل إلى التخلص من هذه الخصال؟

الجواب: الإنسان مخلوقٌ له استعدادٌ جامع، ولذا يتمتّع بقدراتٍ خاصة بالعالم العلوي والسفلي؛ بمعنى أن الإنسان يتسم بمميزات ملكية وملكوتية، وجسمانية وروحانية، وبدنية وقلبية؛ ومن ثمّ فقد كان السبيل إلى ارتقائه ونجاته منوطًا باستخدام جميع تلك القوى المكنونة في طبيعته بما يتوافق مع الغاية من خلقته.

أجل، خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم، فإذا ما عبّر هذا الإنسان عن ماهيته الملكوتية والروحانية بشكلٍ تام، وتغلّب على المشاعر السلبية المكنونة في ماهيته لحكمٍ ما، وأعطى إرادته حقها، ومارس حياته في إطار دائرة الشرع؛ صار كفرسي رهان مع الملائكة.. وكما يقول مولانا جلال الدين الرومي ﵁: "وصلَ إلى مقامٍ أحيانًا ما يغبطه عليه الملائكة بسبب ما يقوم به من أعمالٍ جميلة رغم ما رُكّب فيه من مشاعر جسمانية ونفسانية وشهوانية، وأحيانًا أخرى يخجل منه حتى الشياطين".

أيها الإنسان "تأمّلْ في نفسك"

وهذا الأمر يقتضي من الإنسان أن يتأمل في نفسه جيّدًا ويتعرّف عليها بكل ما لها من قدرات ونقاط ضعفٍ ومزايا وعيوب، وأن يعتبرَ ما لديه من مشاعر سلبية سبيلًا إلى سموّه ورقيّه؛ لأن الإنسان إذا ما استطاع أن يتحكّم فيما لديه من مشاعر سلبية ووجّهها إلى الخير نمت نوى الجنة التي في داخله، وتشكّلت في القلب حياةٌ زاهرة تجعل هذه الدنيا دهليزًا إلى الجنة.. وعلى ذلك يمكنكم أن تشعروا بهذه الجنة مرة أخرى في كلّ جزء وكل لحظة من الدنيا، وأن تتلذّذوا وأنتم ما زلتم بها بجماليات الجنة الخالدة..

ويمكننا أن نقول تعبيرًا عن هذه الحقيقة: إن تفعيل المشاعر الإيجابية الموجودة في طبيعة الإنسان يُعدّ وسيلةً لرقيّ الإنسان مباشرة، أما النوى التي تبدو سلبية فإن استطاع الإنسان أن يقمعها عن طريق الحيطة والحذر ومراعاة أوامر الله تعالى ونواهيه، وأن يتجنّبَ تأثيراتها السلبية أصبحت هذه المشاعر أيضًا وسيلة لإحسانٍ آخر من الله تعالى. وبتعبير آخر؛ إن تصدّيكم لهذه المشاعر وثباتكم وصمودكم سيُصبح بمثابة عبادة لله تعالى.. فمثلًا الصلاة عبادة مهمة للغاية تنهض بالإنسان وترقى به إلى عرش الكمالات الإنسانية، وعلى نفس الشاكلة أيضًا فإن التصدّي للأهواء الجسمانية يُعتبر عبادة تكاد أن تبلغ أهمية الصلاة، ويشير الحق سبحانه وتعالى إلى هذه الحقيقة قائلًا: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ (سورة النَّازِعَاتِ: ٧٩/٤٠-٤١).. ولذا أنبه مرة أخرى إلى أن هذه المشاعر التي تبدو سلبية من نواحيها الظاهرية إن استطاع الإنسان أن يتحكم فيها ويوجهها إلى الخير أصبحت من أهم الوسائل التي تساعده على دخول الجنة.

الإنسانُ إنسانٌ بإرادته

لم يخلق اللهُ تعالى الإنسانَ مقيدًا كالحيوان؛ بمعنى أن الإنسان ليس عبدًا لغرائزه، فقد منح الله الإنسان الإرادة، وقيّد ما سيسبغه عليه من نعم بإعطائه إرداته حقها في إطار الشرط العادي والأخذ بالأسباب.

والواقع أنه ليس ثمة علاقةٌ من حيث قانون السبب والنتيجة بين ما يصنعه الإنسان وبين النعم التي يمنّها الله تعالى عليه، أما الألطاف السبحانية فقد ربطها الله ﷻ بتلك الأعمال.. فمثلًا كان للحق سبحانه أن يقول: "لو دعوتموني لأنزلت عليكم النجوم من السماء"، وحينذاك لا يصح أن نفتش عن أيّ علاقة بين رفع الأيدي بالدعاء وإنزال النجوم من السماء، وعلى نفس الشاكلة لا ينبغي لنا أن نفتش عن العلاقة في إطار قانون السبب والنتيجة بين ما يقوم به العبد من عبادات ويتكبده من مشقات وبين ألطاف الله تعالى وفيوضاته؛ حيث إن الثانية تفوق الأولى أضعافًا مضاعفة؛ بمعنى أن الله تعالى قد اعتبر الأعمال التي يقوم بها العبد في الدنيا في إطار الشرط العادي وكأنها نواة، ويوم القيامة ينمّيها ويغذّيها حتى يردّها على عبده أشجارًا وبساتين وحدائق أبدية في الجنة.

هجمات من اليمين والشمال

ويمكننا بالنسبة للمشاعر الإيجابية المكنونة في فطرة الإنسان والتي تحتل مكانة مهمة في ترقّيه أن نشبهها بالجانب الأيمن للإنسان، وبالنسبة للمشاعر السلبية أن نشبهها بالجانب الأيسر منه.. وأعتقد أن الله تعالى يشير إلى هذه الحقيقة في قوله: ﴿**ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ١٧/٧).

أجل، نجد الشيطان يمنِّي نفسه وهو ينظر إلى الضعف الكائن في ماهية الإنسان وكأنه يقول: لآتينهم من بين أيديهم" فَأُسَفِّهَ أحلامهم المستقبلية، وأدمر جسورهم التي تصل بهم إلى الجنة، وأوجههم إلى جهنم.. ولآتينهم "من خلفهم"، فأصوّر ماضيَهم مقبرةً عظيمة، وأجعلهم يجحدون آباءهم وأجدادهم، وأوهمهم أن الحياة بدأت معهم.. ولآتينهم "عن أيمانهم"؛ فإن عملوا خيرًا مكرتُ بهم وشَوَّهت أعمالهم بالرياء والسمعة، وإن تحدثوا عن الله ورسوله ﷺ أو كتبوا عنهما أعجبتهم بأنفسهم ووجهتُ أنظارهم إلى ذواتهم، ودمرتُ أعمالهم الخيّرة النقية بمشاعر الأنانية، وفي النهاية لآتينهم "عن شمائلهم"؛ فأزيّن لهم السيئات، وأقدم لهم السم في العسل على أطباق من ذهب، فأُضِلهم عن الطريق.

وفي هذا الصدد يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "**حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**"(١٥٤).. وعلى هذا فقد حُفّت الجنة بأمور شاقة لا تطيقها النفس، غير أن الإنسان يمكنه أن يدخل هذه الجنة بالتغلب على هذه المكاره وتجاوزها، وعبور الأنهار، وتسلق المنحدرات، وتخطي بحار القيح والصديد، أما السبيل الموصل إلى جهنم فمُحاطٌ برغبات الإنسان الجسمانية والنفسانية والشهوانية، ومن ثمّ فإن أكثر ما يمكن أن يغري الشيطان به الإنسان هو أن يجعله ينساق وراء رغباته وشهواته الجسمانية والبدنية مثل الأكل، والشرب، والركون إلى الدعة والراحة.

وقد أشار فضيلة الأستاذ النورسي رحمه الله إلى هذه الثغرات الموجودة في ماهية الإنسان والبارزة كثيرًا في عصرنا على وجه الخصوص

(١٥٤) صحيح مسلم، الجنة، ١.

في رسالته "الهُجمات الست"[١٥٥]، وهي: حب الجاه، والخوف، والطمع، والقومية السلبية، والأنانية، وحب الدعة والخمول.. ويمكننا أن نضيف إليها نقاط ضعف أخرى ينفذ بها الشيطان إلى داخلنا مثل: الحرص، والحسد، ومدّ البصر إلى عرض وشرف هذا أو ذاك، والمباهاة والتفاخر.

حصنوا أنفسكم بالدعاء

واستغلال الشيطان لهذه النقاط يعني أنه قد يأتي الإنسان عن شماله، لكن رغم قول الشيطان مخاطبًا الله ﷻ: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ (سورة ص: ٣٨/٨٢) فإن رسول الله ﷺ قد دعانا إلى الاستعانة بالله من الشيطان الرجيم من خلال المواظبة على قراءة هذا الدعاء صباح مساء: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**"[١٥٦].. لأن الشيطان مخلوق محترف، له حيلٌ ومؤامرات، فكم من عمالقة أهلك هذا اللعين بحيله ومكائده! فمثلًا يحيك للإنسان المؤامرات ويلقي في نفسه الوساوس والشبهات حتى لا يقوم ليلًا لصلاة التهجد، فإن أخفق في ذلك وهجر الإنسان فراشه الدافئ، وقام للتهجد لا يقف مكتوفَ الأيدي، بل يعد له مؤامرة أخرى وهو ذاهب لوضوئه، وإذا ما وقف العبد للصلاة حاك له مؤامرة أخرى؛ فمثلًا يحاول أن يجعله يُسمع الآخرين صوتَه، أو يجعله يُصدر

(١٥٥) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب التاسع والعشرون، ص ٥٠٥-٥٢٤.

(١٥٦) **سنن أبي داود**، الأدب، ١١٠؛ **مسند الإمام أحمد**، ٨/٤٠٣.

صوتًا عن طريقِ ارتطامِ شيءٍ ما بالأرض؛ حتى يقول مَن في الطابق السفلي: ما شاء الله إن هذا الرجل يتعبّد لله حتى في منتصف الليل!

أجل، إن للشيطان ألاعيب ومكائد متنوعة من الصعب التصدي لها، فعلينا ألا نكتفي بإقامة سور واحد للتصدي لهذه المؤامرات، بل لا بد من إقامة كثيرٍ من الأسوار المتداخلة، وألا نتهاون في إقامتها أبدًا.. فلقد كان مفخرة الإنسانية ﷺ قبل أن يأوي إلى فراشه يقرأ سورة الملك[١٥٧]، وسورة السجدة[١٥٨]، والإخلاص والمعوذتين[١٥٩]، والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة[١٦٠]، ثم يقول: "**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ**"[١٦١].. فهنا يرشدنا نبينا ﷺ إلى الاستعانة بالله تعالى من خلال قراءة هذه الأدعية، وكأنه يحذّرنا قائلًا: إياكم أن تستسلموا إلى الغفلة، واستعيذوا بالله من الشيطان على الدوام، ولذلك علينا نحن المؤمنين أن نعرف أن هذا الضعف وذلك القصور من مقتضى بشريتنا، وأن نلجأ إليه سبحانه وتعالى على الدوام، وأن نوفّي إرادتنا حقها، وأن نحيل مثل هذه العوامل السلبية إلى درجاتٍ للرفعة والرقي، وأن نبذل وسعنا لنصل إلى مدارج حياة القلب والروح تحت رعاية المرشدين الحقيقيين، وأن نمضي في سيرنا في هذا الإطار.

---

(١٥٧) انظر: **سنن الترمذي**، الدعوات، ٢٢.

(١٥٨) المصدر السابق.

(١٥٩) انظر: **صحيح البخاري**، الطبّ، ٣٨.

(١٦٠) انظر: **صحيح البخاري**، فضائل القرآن، ١٠؛ **صحيح مسلم**، صلاة المسافرين، ٢٥٥.

(١٦١) **صحيح البخاري**، الدعوات، ٦؛ **صحيح مسلم**، الذكر، ٥٦.

دعاءُ المضطرين وأبواب الرحمة المفتوحة

سؤال: يقول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة النَّمْلِ: ٦٢/٢٧)، **فما الرسائل التي تقدمها لنا هذه الآية فيما يتعلق بحياة الفرد والمجتمع؟**

الجواب: بشيءٍ من التأمّل في سورة النملِ التي يدور السؤال في فلكِ آيةٍ من آياتِها نجدُ أن الله تعالى قال في البداية ﴿**آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (سورة النَّمْلِ: ٥٩/٢٧) وفي الآيتين التاليتين من هذه الآية وجه سبحانه وتعالى الأنظارَ إلى التدابير الإلهية والشؤون السبحانية في الكون، ثم أعقب ذلك بقوله كما جاء بالسؤال: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾، وجعل من إجابة الدعاء دليلًا على التوحيد.. قد يبدو دعاءُ المضطر وإجابتُه حالةً استثنائية في حياة الإنسان، بيد أن من يتأمل ويدقق النظر في الحوادث والأشياء يمكنه أن يتلمس آثار عناية الله ومعونته في جميع حياته، أما من لم يعبأ بشيء، ولا يدقق خاصة في الحوادث التي تجري من حوله، ولا يتفحص حياته، ولا يحسن قراءة ما حوله فربما لا يدرك مثل هذه التوجهات الخاصة من الحق سبحانه وتعالى له، لكن لمّا تعرف الإنسان على ماضيه، ودقق النظر في حياته، وعندما انقطعت به السبل وحّد ربه سبحانه وتعالى، وتلمّس آثاره، واعتمد عليه واستعان به ليس

إلا؛ استطاع أن يدرك في كثير من المرات ظهورَ سرِّ الأحدية في نور التوحيد؛ بمعنى أنه حظي بتوجُّهٍ إلهيٍّ خاص يتناسب مع طبيعته.

أجل، كثيرًا ما ضاقت بنا السُّبُلُ، واشتدّت الكروب وتكالبت علينا الهموم فلمّا أعيَتْنا الحيلةُ وتقطّعت بنا السبلُ اتَّجَهْنا إلى ربنا ﷻ؛ فأخذ الله بأيدينا وكشف همومَنا، وشرح صدورَنا.. فلمّا لم نستطع أن نتناول الحوادث التي نعيشُها بتأمُّلٍ وتدقيق نظر، ولم تتحرك لها حواسنا ومشاعرنا، ولم نُخضعها لتحليلٍ وفحصٍ كامل في إطار العلاقة بين السبب والنتيجة تناسينا كلَّ هذه الألطاف من الله تعالى.

الأسباب النافذة والعنايات الهائلة

إن الإنسان إذا ما توجه إلى الله ﷻ ورفع يديه بالدعاء في صدقٍ وإخلاص؛ فإنّه يشعر في وجدانه حقًّا بأن توجهه قد قوبِل بتوجّهٍ آخر من الله ﷻ، غير أن هذا التوجه يكون أوضح ما يكون ساعة الاضطرار وقلة الحيلة.. فمثلًا إذا ما تأمّلنا في قصة سيدنا يوسف عليه السلام فسنرى أنه قد أُلقي في الجبّ وتُرِك للموت، وعند النظر إلى الظروف الظاهرة نجد أنه لا مجال لنجاة سيدنا يوسف عليه السلام من البئر الذي ألقي فيه، غير أن الله ﷻ أنعم عليه بتوجّهٍ خاص، فمرت قافلة على البئر فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه فتعلق به يوسف عليه السلام، فأخرجوه من البئر، ثم اصطحبوه معهم وباعوه لأحد كبار رجال القصر في مصر، فرأى يوسف عليه السلام في كنفه اهتمامًا ورعاية خاصة، غير أن يوسف عليه السلام تعرّض في هذا القصر لامتحان آخر، فما كان منه إلا أن أعطى إرادته حقها وآثر بطلُ العفة عليه السلام السجنَ على القصر،

وتوجه إلى ربه في صدقٍ تام، فكان مظهرًا لعنايات إلهية عظيمة؛ إذ أُخرِج من السجن، والتقى أبويه، وأصبح سلطان القلوب في مصر.

وعلى نفس الشاكلة كان إقبال الله تعالى على سيدنا موسى عليه السلام الذي فرّ من جنود فرعون، وفي اللحظة الحاسمة التي صورها القرآن الكريم بقوله: ﴿**فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٦١/٢٦) انقطعت السبل بموسى عليه السلام وأصحابه، فلقد كان البحر الأحمر أمامهم وفرعون وجنوده خلفهم، أو كما يقول بطل الإسلام طارق بن زياد: "أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو من أمامكم"، وحينذاك توجه سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام إلى ربه قائلًا: ﴿**إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٦٢/٢٦)، فحدث كما قال القرآن الكريم: ﴿**فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ**﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٦٣/٢٦)، فعبر موسى عليه السلام ومن معه البحر، ووصلوا بلطف الله تعالى وعنايته الخاصة إلى برّ الأمان.

أجل، إذا نفدت الأسباب كلها وانتهت الكلمات جميعها ولم يعد هناك ركنٌ نلوذ به، فانسلخ القلب من كل شيء تمامًا وتوجه إلى ربه سبحانه؛ فسرعان ما يفتح الله تعالى بابًا جديدًا على نحوٍ غير متوقّع.. ولو أنكم فتحتم بابًا إلى نور التوحيد وشاهدتموه تجلّى الله عليكم بسرّ الأحدية -أو بالتجلي الجمالي بتعبير فضيلة الأستاذ النورسي رحمه الله- بشكلٍ يتناسب مع وضعكم الخاص وماهيتكم الخاصة والأزمة الخاصة التي تتعرّضون لها.

المضطرون هم ورثة الأرض

وأما قوله تعالى في محور الآية الكريمة: "وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ"، فيدفعُنا إلى تأمُّلِ حال سيدنا داود عليه السلام في حربه مع العماليق الذين كانوا يحكمون فلسطين، ونجاحه في قتل "جالوت" أو كما يسمّيه الأوربيون "جُلْيَتْ"، ويذكر العهد القديم أن داود عليه السلام كان فتًى صغيرًا يرعى الغنم، رمى "جالوتَ" بحجرٍ من مقلاعه فأصابه في جبهته فأرداه قتيلًا.. والقرآن الكريم يتعرض لهذه الواقعة دون تفصيل فيقول: ﴿**وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ**﴾ (سورة البَقَرَة: ٢٥١/٢)، وهكذا رأينا أن داود عليه السلام لما توجّه بكلِّ كيانه إلى ربه سبحانه وتعالى تجلّى الله تعالى عليه بسر الأحدية في نور التوحيد، ثم آتاه الملك والحكمة وعلمه ممّا يشاء.

وكان حال سيدنا رسول الله ﷺ مع ربه هكذا؛ إذ إن المشركين حاصروا بيته إبان الهجرة، ونفد كلُّ شيء من ناحية الأسباب، وعند ذلك فتح الله لنبيه ﷺ بعدًا آخر كما يقول القرآن الكريم: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**﴾ (سورة يس: ٩/٣٦)، وتسلل النبي ﷺ من خلال ذلك البُعد الخاصِّ وخرج، فلما دخل مشركو مكة إلى الداخل وجدوا سيدنا عليًّا كرّم الله وجهه راقدًا في مكان سيد الموحّدين ﷺ.

أجل، لما اشتدت الخطوب والمعاناة في مكة وأعيت الحيلةُ النبيَّ ﷺ توجه إلى ربه بتوحيدٍ خالص؛ فمهّد الله له بلطفه وعنايته السبلَ إلى المدينة، فلما وصل سيد الكونين ﷺ إلى المدينة تفتحت له الورود، فبدأ سلطانُ الورود ﷺ عهدًا ورديًّا جديدًا بين هذه الورود،

وفي غضون مدة وجيزة أصبح الإسلامُ عنصرًا من عناصر التوازن على الأرض.

وبهذه النظرة أيضًا يمكن تناول مسألة ظهور الدولة العثمانية.. كان السلاجقة على حافة التهاوي والانهيار من جراء الحملات الصليبية، فمهّد الله تعالى السبلَ لظهور كيانٍ جديد في منطقة "سوغوت"، وكأن هناك يرقةً تحوّلت دون مقدّمات إلى فراشة عظيمة.. ولم يكن الولاة البيزنطيون يتوقعون دوام هذا التطوّر والنموّ، غير أن الدولة العلية العثمانية ظهرت كحادثةٍ تولّدت من قلّةِ الحِيَلِ وانقطاعِ السُّبُلِ، حتى أضحت لعدة قرون عنصرًا من عناصر التوازن على الأرض.

الهمّ هو أكثر الأدعية قبولًا

إنّ حالة الاضطرار وقلة الحيلة هي مرحلةٌ مفعمةٌ بالهم والأسى على المستوى الفردي والاجتماعي، والهمُّ هو أكثر الأدعية قبولًا من قبل الله ﷻ.. لقد كانت تتوالى على الأمة أحيانًا فترات من الهم والأسى؛ فيشعر أفرادها بأنهم عديمو الحيلة وينقطع رجاؤهم وأملهم في كل شيء، ويتلوّون من الداخل.. فلو أن هؤلاء الناس في مثل هذه الحال لا يشتكون ولا يتذمّرون، بل يعرضون فقط حالهم على ربهم، ويرفعون أيديهم إليه بالدعاء ويتضرعون إليه؛ فسيكون حالهم هذا بمثابة أكثر الأدعية قبولًا بالنسبة لهم.

وفي الواقع أنه إن ساءت الأحوال الاجتماعية وتكدَّرت، وارتفعت جلجلة الظالمين في كل بقاع العالم، وتعالَى أنينُ المظلومين، وتكالبت الهموم على المجتمعات خلّص الله تعالى القلوبَ المؤمنة من هذه الذلة التي تردّوا فيها، ومهّد لهم السبل

لوراثة الأرض، وهذا لا يتحقق إلا بعد أن تنقطع السبل بتلك القلوب المؤمنة ويتوجهون إلى ربهم بدعاء المضطرين.. والحقُّ أن عدم التوجه إلى الحق ﷻ بتوحيد خالص ربما فيه خيانة للأمانة؛ لأن هذه الأمانة لا تُسلّم إلا لمن تعرضوا للابتلاءات وتجرعوا الهموم والأحزان، فمن الصعب للغاية الحفاظ على النعم التي وهبت إلينا وقت الراحة والدعة، ويعبر عن هذه الحقيقة المثلُ الشعبيُّ الدارج: "ما يأتي بالسهل يضيع بالسهل"، فالأموال الموروثة تلقى تهاونًا كبيرًا من قِبَل الورثة الذين يُبعثرونها هنا وهنالك لأنهم لا يعرفون قيمتها.

إذًا يجب على مسلمي اليوم الذين يرغبون في أن يكونوا أمناء على الأمانة وتَبنّي مسألة الخدمة في سبيل الله كما أشار إلى ذلك ربنا ﷻ في قوله: ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (سورة الأَنْبِيَاءِ: ١٠٥/٢١) أن يحرصوا على صلاح أحاسيسهم ومشاعرهم وأفكارهم وأفعالهم وتصرفاتهم، وأن يراودهم شعورٌ بالعجز والفقر وشدة الحاجة إلى خالقهم جلّ وعلا، وأن يتجهوا إليه ﷻ بدعائهم وتضرعاتهم في توحيدٍ خالص وعجزٍ مطلق.

روح الخدمة والتفاني ومعايير مستوى المعيشة

سؤال: يتشوف البعض حتى في بعض المؤسّسات القائمة على روح الخدمة والتفاني إلى زيادة رواتبهم ورفع مستوى معيشتهم بناء على طبيعة الأعمال التي يقومون بها وساعات العمل التي يضحون بها، فما رأيكم في هذا؟

الجواب: بادئ ذي بدءٍ أريد أن أنوه بأن الجميع ليسوا على مستوى واحدٍ في روح الخدمة والتفاني كما هو الحال في سائر الصفات الأخلاقية الأخرى، بل إن أكثر المرشدين تأثيرًا في أقسى القلوب لم يسعه أن يصل بجميع مخاطبيه إلى مستوى معين، فكما لا بدّ للمرسل أن يتحرى الدقة والكمال في إرساله فكذلك يجب أن يكون لدى المتلقِّي استعدادٌ وقابلية لاستقبال المعلومات المرسَلة إليه.. لنفرض أنكم هرولتم لإغاثة ملهوفٍ بصهريجٍ كبير من الماء رغم أنه لا يملك إلّا دلوًا فقط؛ فمن الطبيعي أن ينسكب ما فاض عن الصهريج على الأرض، وما أعذب ما عبر به أحدُ الشعراء عن هذا الحال قائلًا:

تأتي الفيوضات حسب القابليات والقدرات

بمعنى أن الأخذ والعطاء والإرسال والاستقبال ينبني على القابليات والقدرات.

وإذا ما نظرنا إلى عصر السعادة "صدر الإسلام" لرأينا تنوّعًا في المستوى حتى بين سادتنا الصحابة الكرام ﵃ رغم أنهم كانوا يتحلقون حول المصباح المنير صلوات ربي وسلامه عليه، الذي تبوأ القمة في عملية التأثير على الآخرين، والحق أنه ليس بوسع الناس العاديين من أمثالنا أن نضع في درجة معينة أو مستوى معين هؤلاء الذوات النورانيين الذين قيل فيهم: "**إِنَّ مَثَلَ أَصْحَابِي كَمَثَلِ النُّجُومِ، هَهُنَا وَهَهُنَا، مَنْ أَخَذَ بِنَجْمٍ مِنْهَا اهْتَدَى، وَبِأَيِّ قَوْلِ أَصْحَابِي أَخَذْتُمْ، فَقَدِ اهْتَدَيْتُمْ**"(١٦٢)، فلا جرم أن شخصًا مثل سيدنا أبي بكر أو سيدنا عمر ﵄ لا يمكن أن يتساوى في مرتبة واحدة مع صحابي آخر، وعلى ذلك يمكن القول إن هؤلاء الصحابة الكرام ﵃ قد استفادوا من الحبيب الأعظم، النقطة المركزية للتجليات الإلهية سيدنا ومولانا محمد ﷺ، كلٌّ على قدر قابلياته واستعداداته.

ومثل هذا التنوع في المستوى يسري على هذه الأرواح التي وهبت نفسها للخدمة في سبيل الله في يومنا هذا.. فمثلًا مع أن بعضهم لا يملك إلا ما يُقيم أَوَدَه، وحتى إن عضّه الجوعُ والعطشُ بِنابه فإنه لا يسأل الناس شيئًا، وفي المقابل هناك بعضٌ من الناس لا يستطيع أن يتحمل هذا المستوى من التضحية، وربما يخضع لنقاط ضعفه مثل الطعام والشراب والراحة، وتسيطر عليه الآمال والتطلّعات التي تخلّ بدستور الاستغناء.. وبينما يهيمن على البعض شعورٌ برابطة الموت يتحكّم في الآخرين طول الأمل وتوهّم الخلود.. ذُكر لي مرة أن رجلًا اشتعل الرأس منه شيبًا وأصبح على حافة القبر،

(١٦٢) البيهقي: المدخل إلى السنن الكبرى، ١/١٦٣.

غير أنه لم يعبأ بهذا كله، وذهب إلى أحد الأطباء قائلًا له: "سمعت من يقول إن هناك ما يسمى بإكسير الحياة، فهل هذا صحيح؟".. والحقّ أن تشوّف هذا الإنسان الذي بلغ هذا السن إلى الخلود وطلبه أن يعيش مدة أطول يعني في قناعتي طلبًا للبؤس والرذالة .. من المسلّم به أن المرء قد جُبل على الآمال والتطلعات التي لا تنتهي، وتستولي عليه رغبة طول العمر، غير أنه لا بد ألا ننسى أن هذا الشعور قد وُهب للإنسان من أجل الدار الآخرة.

والحال هكذا في مسألة الخدمة والتفاني؛ إذ إن هناك بعضًا من الناس لا يقدرون على مشاركتكم عوالمكم الروحية رغم مخالطتهم ومعاشرتهم لكم، ويتطلّعون دائمًا إلى المنافع الدنيوية، ولذا لا يقنعون برواتبهم ومناصبهم ومقاماتهم، ويرغبون في زيادة مرتّباتهم ورقي مناصبهم، واتساع إمكانياتهم وارتفاعها مع مرور الزمن، فإذا ما وصلوا إلى المنصب الذي كانوا يأملون شرعوا في البحث عن منصبٍ أعلى، ولعدم قناعتهم تراهم يشتكون دائمًا من حالهم، ومن ثمّ فعلينا أن نوقن بدايةً بحقيقة وجود مثل هذه النوعية من الناس، وإن كانوا يعملون في دائرة الخدمة والتفاني.

يجب أن توسَّد الأمانةُ إلى أهلها

أما بالنسبة للأمور التي يجب القيام بها إزاء هذه الحقيقة فكما يلي: يجب على المسؤولين عن توظيف الناس في وظائف معينة بمكانٍ ما أن يدرسوا جيدًا شخصية وطبيعة الأشخاص الذين سيقعون تحت مسؤوليتهم.. وفي هذا الصدد يجب الرجوع إلى العقل الجماعي بقدر الإمكان، وهذا أمرٌ يتطلب من العقل الجماعي أن يتحرك

على بصيرة، فيُراقب هؤلاء الذين يرتقون في مدارج الحياة العامة ويختبرهم في كلّ مرحلة من مراحل الحياة، حتى يقول: "أجل، هذا الشخص أهلٌ لهذا المستوى".. فإن حدث ذلك فقد تمّت الحيلولة دون وصول البعض إلى مقامات معينة مع عدم أهليّتهم، إلى جانب منعهم من الوصولِ إلى تطلعاتهم المفرطة، وتصرفاتهم المنافية لدستور الاستغناء.

والواقع أنكم قد تحتاجون أحيانًا إلى من يقوم بالعملِ في مكان ما، وقد لا تجدون ذلك الشخص الذي يتماشى مع معاييركم الأساسية.. يوجد حولكم شخص أو اثنان هما من يستطيعان القيام بهذه الوظيفة، ولكن تسيطر عليهما بعض نقاط الضعف كالطمع والحسد، ومع ذلك لا يوجد أحد آخر يملأ هذا المكان الشاغر، وعند ذلك يمكنكم أن تعهدوا إلى ذلك الشخص الذي يفتقر -وفقًا لمعاييركم الخاصة- إلى العفة والاستغناء والتضحية؛ من باب ارتكاب أخفّ الضررين واختيار أهون الشرّين، ولكن إن وجدتم مَن هو أهلٌ لهذا العمل فعليكم أن تعهدوا للآخر بوظيفة أخرى تتناسب معه، وتسلموا الأمانة إلى صاحبها الحقيقي؛ لأن الأمانة لا تُعطى لمن ليس بأهلها، فإن حدث خلاف ذلك فهي الخيانة للأمانة.

ولمّا سئل رسول الله ﷺ عن الساعة قال: "**إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**"، فلما سئل عن كيفية إضاعة الأمانة قال: "**إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**"(١٦٣).

(١٦٣) صحيح البخاري، العلم، ٢، الرقاق، ٣٥؛ مسند الإمام أحمد، ٣٦١/٢.

وعلى ذلك فإذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فقد قامت قيامته، فلو ظلّ الأمر هكذا، وعُهد بالأمانة لغير أهلها قامت حينذاك القيامة العامة، وربما إذا انقضى عمر الدنيا اتخذت خيانة الأمانة أبعادًا أخرى، وشملت كل العالم.

توفّر الإمكانيات والاقتصاد الحقيقي

ثمة أمر آخر يمكن القيام به فيما يتعلّق بمن لا يقنعون بما في أيديهم ويتطلّعون إلى أعلى؛ وهو إعلامهم بأن التضحية والقناعة بالموجود ليسا من الأسس التي لا بد من مراعاتها عند الاضطرار فقط، بل لا بد أن يكون دستورُ الاقتصاد والاستغناء جزءًا من طبيعة حياتهم.

أجل، يجب ألا تُغيّر وفرةُ الإمكانيات وكثرةُ الثروات من مبادئنا العامة؛ لأن نبينا ﷺ حذر مَن يتوضأ على نهر جارٍ من الإسراف في المياه(١٦٤)، وعلى ذلك فكما أن وضْعَ الإنسانِ ذراعه في الماء وهو يتوضأ لمدة دقيقتين أو ثلاث يعد من قبيل الإسراف حتى وإن كان يتوضأ على نهر جارٍ، فمن الإسراف أيضًا غسل الأعضاء أكثر من ثلاث مرات.. وإن دينًا كهذا يتحرى هذا القدر من الاقتصاد في حياة الأفراد فإنه يتطلب الحساسية عينها في المسائل الأخرى.. بمعنى إذا كان من الضروري أن يتصرف الإنسان باقتصادٍ ولو على حافة النهر فهذا يعني أنه يجب على الإنسان أن يقتصد حتى على حافة الثروة، وأن يعيش باستغناء، ولا يغير نمط حياته قط.. فمثلًا على الإنسان أن يراعي الضوابط التي وضعها الإسلام في مسألة الطعام

(١٦٤) انظر: سنن ابن ماجه، الطهارة، ٤٥؛ مسند الإمام أحمد، ٢/٢٢١.

والشراب في قوله تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ٣١/٧) فلا يسرف أبدًا، وكما تعلمون فقد أشار الأستاذ النورسي رحمه الله إلى أنَّ تنوُّع الأطعمة يشكّل شهيّة مصطنعة لدى الفرد، فرغم أن الإنسان يمكنه أن يشبع بطعام واحد، إلا أن تنوُّع الأطعمة أمامه واقتطاعه ملعقة من هذا الطعام أو ذاك يثير في الإنسان شهوة مصطنعة، وهذا الوضع يشكل حالة حرجة، ولذا يجب الاقتصاد في الثروة، وأن يكون الطعام والشراب على قدر الحاجة دون إفراط.

ورغم أن بعض سادتنا الصحابة الكرام رضي الله عنهم كانوا يمتلكون ثروات طائلةً فإنهم كانوا يعيشون حياة بسيطة جدًّا، فهذا سيدنا عثمان رضي الله عنه يهبُ جيش العسرة ثلاثمائة بعير، وكان يقدر في الوقت ذاته على تجهيز عشرة آلاف جندي من الجيش(١٦٥)، ومع ذلك لم يغيّر من معايير مستوى معيشته، فكثيرًا ما كان يتوسّد الرمال ويرقد عليها في المسجد النبوي، كما كان يُطْعِمُ النَّاسَ طعامَ الإِمارَةِ، ويدخُلُ بَيْتَهُ فَيَأْكُلُ الْخَلَّ وَالزَّيْتَ(١٦٦)..

وكذلك كانت حياة سيدنا علي رضي الله عنه تتميز بالبساطة نفسها، في شتى أموره لا سيما ملبسه، رغم أنه كان يحكم دولةً تزيدُ عن حجم تركيا اليوم بعشرة أضعاف، وكانت الغنائم تتوافد على هذه الدولة من أصقاع الأرض، ومع هذا لم يغير رضي الله عنه ولا غيره من الصحابة العظام من حياتهم، وأصرّوا على بساطتهم، وآثروا منوالَ الحياة الذي كان يعيشه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانوا نِعْم القدوة لنا في حياتنا.

(١٦٥) انظر: **سنن الترمذي**، المناقب، ١٨؛ **مسند الإمام أحمد**، ٧٥/٤.

(١٦٦) أبو نعيم: **حلية الأولياء**، ٦٠/١.

ولكن إذا ما اختلف نمطُ حياتنا عند تعدّد إمكانياتنا فهذا يعني -حَفِظَنا الله- أننا سقطْنا ضمن دائرة فاسدة تمتدّ لأمدٍ بعيد.

لا حدّ للحياة البوهيمية

وهذا أمرٌ يدعونا إلى الثبات وعلوّ الهمة؛ فحتى وإن انهالت علينا الأموال من السماء مدرارًا، وتجمعتْ أمامنا تلالًا وأنهارًا فعلينا أن نقول: "هبّي أيتها الأموال من حيث شئتِ، فلا حاجة لي فيكِ، فلن يمكنك أن تنالي مني أو تنفذي إلى قلبي".

كان بعض أهل الله يُنفقون أموالهم، ولا يُبقون مما يأتيهم من المالِ ولو درهمًا واحدًا لليوم التالي، وقدوةُ هؤلاء هو سيدنا رسول الله ﷺ؛ فعَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ، قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الْعَصْرَ بِالْمَدِينَةِ، ثُمَّ انْصَرَفَ يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ سَرِيعًا حَتَّى تَعَجَّبَ النَّاسُ لِسُرْعَتِهِ، فَتَبِعَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ، فَدَخَلَ عَلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ، ثُمَّ خَرَجَ، فَقَالَ: "**إِنِّي ذَكَرْتُ وَأَنَا فِي الْعَصْرِ شَيْئًا مِنْ تِبْرٍ كَانَ عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يَبِيتَ عِنْدَنَا فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ**"(١٦٧).. لقد كان طهره صلوات ربي وسلامه عليه ونورانيته يؤثران فيمن حوله إلى حدِّ أن الثراء لم يغيّر قط من أفعال وسلوكيات سادتنا الصحابة رضي الله عنهم.

ورسالة الاقتصاد لبديع الزمان سعيد النورسي(١٦٨) مصدرٌ مهمّ في هذا الموضوع، فمن المفيد جدًّا قراءتها بين الحين والآخر حتى نعتاد العيش في أُطُرِ القناعة والاقتصاد؛ لأنه لا حدّ للعيش في رفاهية ونشوة وبوهيمية، فلو أسلم الإنسانُ نفسَه لمثل هذه الحياة فقد قضى

(١٦٧) سنن النسائي، السهو، ١٠٤.

(١٦٨) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة التاسعة عشر، ص ١٩١-٢٠٣.

عمره -حفظنا الله- تحت أسارة الجسمانية، ولذا كان الاقتصاد والقناعة قيمتين عظيمتين للغاية بالنسبة للجميع فقيرًا كان أو غنيًّا.

والقناعة لها أهمية أعظم بالنسبة لمن وهبوا أنفسهم لخدمة الإيمان والقرآن، فعلى مستخدمي هؤلاء الرجال أن يُقدروا لهم راتبًا يستعينون به على إعاشة أنفسهم وذويهم، وفي المقابل ينبغي لمن سلكوا طريق الخدمة أن يتحلوا بالقناعة والاقتصاد طوال حياتهم، وألا يعقدوا مقارنة بين حياتهم وحياة غيرهم، وأن يعوِّدوا أنفسهم على العيش بمرتب زهيد سواء كانوا داخل الوطن أو خارجه، فحصول غيرهم على مرتبات عالية لا يشكل مثالًا لهؤلاء الذين يحلّقون في أفق الخدمة والتفاني؛ لأن هؤلاء لا يفكرون في امتلاك منزل أو غيره، بل يكفيهم بيتٌ للإيجار يؤويهم هم وذويهم، ويتعيشون بما أفاء الله تعالى عليهم.

هذا هو أساس التفاني، وما يُفسد هذا الأساسَ هو غبطةُ أصحاب المنصب، والتطلّع إلى مثل حالهم، فبعض الناس قد يستهويهم المأكل والمشرب والدعة والخمول، ويقضون حياتَهم في غفلة.. وقد يوسّع الله ﷻ على البعض من دائرة مشروعة، فهذا أمرٌ آخر، لكن يجب على المستفيدين من إمكانيات الخدمة أن يتحرّوا الدقة والحساسية البالغة في هذا الأمر، فلا ينبغي لأحد أن يأخذ شيئًا ليس من حقّه.. فلقد ظلّ سيدنا أبو بكر الصديق رضوان الله عليه مدة خلافته لا يأخذ من راتبه إلا قدر الحاجة فقط، وما زاد عن ذلك كان يضعه في جرة، وحين الوفاة أوصى بتسليم هذه الجرة إلى الخليفة من بعده، فلما رأى الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك

لم يتمالكْ عبراته، وقال معبرًا عن عظمة سيدنا أبي بكر: "**رَضِيَ اللهُ عَنْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ لَقَدْ أَتْعَبْتَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكَ**"(١٦٩)، فَلِزامٌ على الأرواح المتفانية في زماننا أن تكون على هذا المنوال.

فلا ينظرنّ إلى الإمكانيات التي حازها الآخرون أو الراتب الذي يتقاضونه، ولا تذهبنّ بهم الظنون أن يقولوا: "يبدو أن هذا هو حق هذا المقام وتلك المنزلة"، عليهم أن يعرفوا أن مثل هذه الظنون تأكل النعم الأخروية وتلتهمها وإن كان يلهث أصحابها حتى تتقطع أنفاسُهم في سبيل الله.

المحاسبة الدائمة

وثمة أمرٌ آخر لا بدّ من مراعاته فيما يتعلق بهذا الموضوع وهو: على الإنسان أن يحاسب نفسه قائلًا: "يا ترى! هل أنا أستحقّ بالفعل ما أتقاضاه من راتب؟".. بل علينا أن نحاسب أنفسنا عن مدى أحقّيتنا لهذا الشيء حتى وإن كنا نصلي في مكان مفتوح للعامة، ونأكل من طعام هذه المؤسسة، ونشرب من شرابها.. والحق أننا إن كنا أوقفنا أنفسنا للخدمة حقًّا فيجب أن نتضوّر ونتلوّى بهذه الأفكار في عالمنا الداخلي، ونتعجّب من حالنا.

فحتى غنيمة الحرب التي شُرعتْ لتعريف الناس بعظمة وجلال اسم الله تعالى ترتكز في مشروعيتها وإباحتها على أسسٍ معينة، فمثلًا قال النبي ﷺ في إحدى غزواته: "**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ فَلَهُ سَلَبُهُ**"(١٧٠)، ولكن لما أمر بإعطاء أحد الصحابة نصيبًا من الغنيمة

(١٦٩) الطبراني: المعجم الكبير، ١/٦٠.

(١٧٠) صحيح البخاري، الخمس، ١٣؛ صحيح مسلم، الجهاد، ٤١.

قال له ذلك الصحابي الجليل الذي لا نعرف اسمه: "مَا عَلَى هَذَا اتَّبَعْتُكَ، وَلَكِنِّي اتَّبَعْتُكَ عَلَى أَنْ أُرْمَى إِلَى هَهُنَا، وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ بِسَهْمٍ، فَأَمُوتَ فَأَدْخُلَ الْجَنَّةَ"(١٧١).. وهكذا يجب أن تدور الخدمة على هذه الفكرة، وأن يعيش رجالها في استغناءٍ عن الناس دائمًا، حتى يحظوا بالقبول لدى الناس أيضًا، وتكون أفعالهم وتصرفاتهم ذات صدى في قلوبهم، فـ"**إِذَا رُؤُوا، ذُكِرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**"(١٧٢)، فلا حاجة لهم إلى قول المزيد؛ لأن أفعالهم بمثابة اللسان الفصيح والخطيب البليغ، أما هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يبلغوا هذا المستوى فإن صياحهم وصراخهم لا يجدي كثيرًا مع الناس، وإن شغلوا بالهم مؤقتًا فلن يستطيعوا أن يقرّبوهم حتمًا من السير في طريق **الله** سبحانه وتعالى.

ربما يرى البعضُ صعوبةً بالغةً في الحياة على هذا المستوى، ولكننا طالِبُو الصعاب، وعلينا ألا ننسى قول ربنا سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿**وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى**﴾ (سورة الضُّحَى: ٩٣/٤)، فهذا الخطاب ينطبق علينا أيضًا، كما وبّخ القرآن الكريم الذين يرون خلاف ذلك بقوله: ﴿**كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۞ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ**﴾ (سورة القِيامَةِ: ٧٥/٢٠-٢١).

ويقول فضيلة الأستاذ النورسي: "نعم! إن هذا العصر قد جعل حتى المسلمين يستحبون الحياة الدنيا ويفضّلونها على الآخرة على علمٍ ورغبةٍ منهم، كما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿**يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ**﴾ (سورة إِبْرَاهِيمَ: ١٤/٣)"(١٧٣)؛ وقد أشار فضيلة الأستاذ

(١٧١) سنن النسائي، الجنائز، ٦١.

(١٧٢) سنن ابن ماجه، الزهد، ٤.

(١٧٣) بديع الزمان سعيد النورسي: **الملاحق**، ملحق قسطموني، ص ١٣٢.

النورسي بهذا إلى أن حبّ الدنيا التي هي أعظم بليّة في آخر الزمان تحول دون الآخرة، والآيةُ تُنبِئ عن عصرنا الحالي، وإذا أخذنا في الاعتبار أن الفعل "يَسْتَحِبُّونَ" قد جاء بصيغة المضارع فيمكننا أن ندرك أن هذا الوضع سيستمر فترة طويلة، بل يمكن أن يُقال إن مفهوم تفضيل الحياة الدنيوية على الحياة الأخروية سيستمر بعلمٍ وقصدٍ حتى في السنوات اللاحقة.. والواقع أن الإمام الأعظم أبا حنيفة النعمان قد ذكر في كتابه "الفقه الأكبر" أن مثل هذا التردّد قد يوقع الإنسان في الكفر والعياذ بالله، والأولى أن نقول: "كيف إسلامنا؟"، أو "أين الإسلام وأين نحن؟!".. وقد أشار شاعر الإسلام التركي "محمد عاكف أرصوي" إلى هذا الهمّ بقوله:

أينَ الإسلام؟ بل أين الإنسانية؟ لقد افتقدناهما بالتمام

فإذا كانت الغاية خداع العالم فلا مخدوع والسلام

وكم من مسلم حقيقيّ عرفتُ! إلا أنهم في القبر يرقدون تحتَ الركام

لستُ أدري أين أجِدُ الإسلام! كأنّه في السماوات العُلا فوقَ الغمام!

أجل، من المسلّم به أن هذا العصر هو عصرٌ مارد؛ إذ يميل الناس فيه إلى البذخ، والطعام والشراب، والدعة والخمول، وقُتل شعور الآخرة عندهم، ودُفن في قاع الأرض حتى لا تقوم له قائمة من بعد؛ وعلى ذلك يجب ألا ننسى أن تأثيرنا في الآخرين في مثل هذا الوقت يرتبط بظلّنا على الأرض، فإن استقمنا استقام ظلُّنا، وأثّر حالنا في قلوب الناس بنفس القدر.

الكمال والتواضع

سؤال: ذكرتم فيما سبق حيالَ أبطال المحبّة أنه يجب عليهم أن يكونوا أفرادًا عاديّين من الناس، وأن يسعوا في الوقت ذاته إلى أن يكونوا من أرباب المستوى والمعرفة، فكيف يمكن أن نجمع بين هذين الأمرين؟ لا سيما وأنهما فيما يبدو متناقضين مع بعضهما؟

الجواب: لو تناولْنا المسألة من حيث وظيفة الإرشاد والتبليغ التي هي مهمة الأنبياء فسنجد أن جمعَ الإنسان بين بلوغه أفق الكمال وبين مفهوم محو الذات منوطٌ بالاعتقاد بأن هذين الوصفين من الأسس التي لا غنى عنها في الإرشاد والتبليغ.

أجل، حتى يستطيع الإنسان أن يقوم بوظيفة الإرشاد والتبليغ، ويُحدث التأثير المرجوّ بإذن الله تعالى في نفوس مخاطبيه لا بدّ وأن يتزوّد بالمعرفة الكاملة وأن يتحلّى بالمحو والتواضع ويعتبر نفسه فردًا بين الناس؛ لأن الإرشاد والتبليغ الذي لا يعتمد على العلم والمعرفة يؤدي إلى إحداث أزمة ثقةٍ لدى المخاطبين، كما أن الأقوالَ الصادرة من الأفواه الملطَّخة بالكبر والغرور لن تنفذ إلى القلوب أبدًا، وإن نفذت فلن يُكتب لها البقاء والدوام، فعلى حين ذكر الأستاذ النورسي رحمه الله في مؤلفاته أن الجهل هو داء الأمة

الوبيل[١٧٤]، وجّه الأنظار من ناحية أخرى إلى أن لهذا العصر مرضًا داهمًا؛ وهو الأنانية وحب النفس.

روح الإرشاد بجناحي المعرفة والتواضع

وهنا نتناول بإيجاز هاتين الخاصيتين اللتَين تُعدَّان بمثابة الجناحين بالنسبة لرجُلِ الإرشاد والتبليغ؛ فحتى يتمكّن المؤمن من تمثيل الحقائق التي يؤمن بها حقًّا يجب أن يدرسَ عصره وبنيتَه الاجتماعية والحوادث الدنيوية والأوامر التكوينية، وأن يفهمها فهمًا صحيحًا، ويحلّلها تحليلًا دقيقًا، وأن يتعرّف على الأوامر التشريعية التي تتعلّق بعصرنا على وجه الخصوص، حتى يصبح ابنًا للزمان والوقت، وإلا امتُهِنَ كثيرٌ من الحقائق، وفقدت القيمُ قدرَها في نظر المخاطبين.

أجل، بما أن كلَّ شيءٍ موجَّه إلى العلم ومتعلِّقٌ بالمعرفة في النهاية، فالعلمُ بناء على ذلك هو عاملٌ مهم للغاية للتعبير عن قيمنا، ولا نقصد بالعلم هنا ذلك العلم (*Science*) المعروف بصورته في عصرنا، بل نقصد به العلم الذي يوصِّلنا إلى نتيجة مهمّة وهي المعرفة، ولكن بشرط أن يعتمد على تناول الأحداث بمقدّماتها وخلفياتها.

وفي الواقع أنه لا يمكن لمن يفتقر إلى مثل هذه المعرفة أن يحدّث الآخرين بشيء، بله نفسَه، كما أن مَن لا حظّ له من العلم والمعرفة لا يقدر على التصدي لاحتجاجات نفسه، أو التخلّص من الفوضى الفكرية، ومن لم يستطع حلَّ مشاكله النفسية والعقلية

(١٧٤) بديع الزمان سعيد النورسي: **سيرة ذاتية**، ص ٩٧.

والروحية سيتعذّر عليه تبليغ شيء للآخرين، وربما يلجأ إلى الديماغوجية والجدل دون وعي أو قصدٍ منه، ومن لم يستطع التغلب على الأوهام والشبهات الدائرة في داخله لن يستطيع أن ينجو من الزلل في التعبير.

ومن ثم فلا بد من أن نتعرّف على مشاكلنا بروحها وجوهرها وخلفياتها ومصادرها، وأن نشعر في أنفسنا بالشوق والاشتياق إلى الله، القائمِ على معرفةٍ مبنيةٍ على العلم، ومحبّةٍ ناشئةٍ عن المعرفة، فإذا جعلنا هذه الصفات جزءًا من طبيعتنا وأدركنا بقلوبنا وعقولنا صور الكلمات التي تتفوه بها أفواهنا خلصنا من النزاع في داخلنا والتناقض في أفكارنا.

ومن ثم يجب على المرشد والمبلِّغ أن يتزود بمعرفةٍ عميقة ذات أبعاد متنوعة تحوزُ رضا الله تعالى، ولكنَّ العلم والمعرفة لا يكفيان وحدهما في الإرشاد والتبليغ، بل يتطلّبان من الإنسان أن يشعر بكل الواردات والمواهب التي هي محضُ لطفِ الله تعالى وإحسانه، فإن كل هذه النعم كما أشار الأستاذ النورسي بمثابة الفرو الذي يُلبسه السلطانُ للإنسان. ولذا لا يصح التغاضي عن هذه النعم، ولكن يجب ألا ننسى أبدًا أن هذه النعم ليست من عند أنفسنا، بمعنى أن علينا ألا ننكر الجمال بل ننسبه إلى صاحبه الحقيقي، فإن اقتنعنا بوجهة النظر هذه تيسّرَ لنا سبيلُ الوصول إلى درجة التواضع والمحو والحياء، ودخلنا في عداد المعنيين بقول سيدنا علي رضي الله عنه: "كُنْ بين النَّاسِ فَرْدًا مِنَ النَّاسِ"، وهذا يعني أننا قد جمعنا بين أفق الكمال والتواضع.

وحتى يُكتب لهذا الشعور وتلك الفكرة البقاء والدوام فلا بد أن يردّ الإنسانُ كلَّ شيءٍ إلى صاحبه الحقيقي، وأن يُقنع نفسه بأنها لا شيء على الإطلاق، وأستميحكم عذرًا هنا أن أكرّر ما قلته من قبلُ: لو قيل لنا: "جرِّدوا أنفسكم مما هو لله، وقدموا تقريرًا بما هو صِرفٌ وخالصٌ لكم من دون الله، فالحقيقةُ أننا لن نستطيع أن نقدم شيئًا"، ومن ثم يقع على عاتقنا أن نتوجه إلى ربنا ﷻ في محوٍ وتواضع وحياء وانكسارٍ.

ويمكن القول إن هناك حِكَمًا على هذا النحو تندرج تحت تخصيص الصلاة بخمسة أوقات في اليوم؛ لأن هرولة الإنسان إلى ربه خمس مرات في اليوم ووقوفه في حضرته ﷻ في خضوعٍ تام فيه نوعٌ من الانقياد الكامل، فركوعُه يعبر عن التواضع، ووضع جبهته على الأرض وسجوده يعبر عن المحو كما يقول سيدنا رسول الله ﷺ في الحديث الشريف: "**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ**"(١٧٥).

والواقع أن لحظة السجود هي اللحظة التي ينسلخ فيها الإنسان من نفسه، وينصبغ بتجليات ربه سبحانه.. بمعنى أن الإنسان عند السجود ينسلخ من "أنا" نفسه، ويصل إلى "أنا" من تجليات ربه ﷻ؛ بمعنى أن أقرب حالات العبد من ربه هي الحالة التي يتمكن فيها من محو نفسه.

أكمل الناس هو أكثرهم تواضعًا

يقول الله ﷻ: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ (سورة الأَحْزَابِ: ٢١/٣٣)، وبالفعل كان سيدنا رسول الله ﷺ أعظم قدوة لنا

(١٧٥) صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٥؛ سنن أبي داود، الصلاة، ١٤٨.

في أقواله وأفعاله وجلوسه وقيامه وسائر سلوكياته، ولا غرابة في ذلك؛ أما خوطب كما روي في الأثر: "لولاك لولاك ما خلقتُ الأفلاك"، وكما يقول الأستاذ نجيب فاضل رحمه الله: "لولاه ما خُلقنا"؛ هو مَنْ نورُه سابقٌ على سائر المخلوقات(١٧٦)، هو أينعُ ثمرة في شجرة الوجود، وبتعبير آخر: إن النور المحمدي هو نواةُ شجرة هذا الكون، وحبر القلم الذي سطّر كتاب الكون، وهو المرشد في معرِض هذا الكون، وكما يقول المحققون: "هو ذاتٌ جامعة لعلوم الأولين والآخرين، يستطيع بفضلٍ من الله وعنايته حلّ كلّ مشكلة، تعلّمَ الخلقُ منه الحكمةَ من خلق الدنيا وما فيها.

ورغم هذا كله فقد كان في الوقت ذاته صرحًا في المحو والتواضع، يمتدحه أحد صحابته قائلًا: "سيدنا"، إلا أنه يعاتبه على قوله هذا، وإن كان بالفعل هو كذلك(١٧٧).

ولما نزل قول الله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ**﴾ (سورة القَلَم: ٤٨/٦٨) خاف ﷺ أن تذهب الظنون ببعض الصحابة في حقّ سيدنا يونس بن متى فقال ﷺ: "**لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ**"(١٧٨)، وذات يوم أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: "**هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ**"(١٧٩)، وعند بناء المسجد النبوي كان صلوات ربي وسلامه عليه يحمل الحجارة مع أصحابه(١٨٠).. ولما خرج ذات يوم في سفر

(١٧٦) **السيرة الحلبية**، ٢٤٠/١.

(١٧٧) **سنن أبي داود**، الأدب، ١٠.

(١٧٨) **صحيح البخاري**، الأنبياء، ٣٥؛ **صحيح مسلم**، الفضائل، ١٦٦-١٦٧.

(١٧٩) **سنن ابن ماجه**، الأطعمة، ٣٠. والقديد: هو اللحم المملح المجفف.

(١٨٠) انظر: **مسند الإمام أحمد**، ٣٨١/٢؛ ابن سعد: **الطبقات الكبرى**، ٦٦/٢.

مـع أصحابـه، واحتاجـوا إلـى طهي الطعـام، وتعهّد كل منهـم بالقيام بعمـل مـا؛ تكفّـل ﷺ هـو أيضًـا بجمـع الحطـب؛ وذلك لأنـه لم يكن يريد أن يتميَّزَ عن أصحابه حتى في الأعمال العاديّة التي يقومون بها.

وهكـذا جمـع أكملُ الكاملين الذي فُرشـت النجوم تحت قدميه كأحجار الرصيف؛ في نفسه كلَّ الأضداد، فكان الكاملَ المكمّلَ بكل جهاتـه، وصـرحَ المحـو والتواضـع أيضًا، فاستطاع بفضـل مصداقيةِ وكمالِ حالِه ومقالِه أن ينفذ إلى الأرواح، وهذا أمر يدعونا إلى اتباع ذلك المرشد الأكمل على الوجه الأمثل.

الأرواح المتفانية التي تجمع بين المنطق والحماسة

سؤال: ما هي مظاهر تفاني المؤمن؟ وما السبيل إلى إثارة روح العشق والحماس لدى الأجيال القادمة؟ وكيف يمكن المحافظة على هذا الحماس؟

الجواب: إن تطوُّرَ روح التفاني يعتمد بدايةً على صلابة إيمان الناس بالدين الذي يمثلونه، فلا سبيل إلى إثارة روح التفاني لدى الناس دون إيمان، أما عن الوتيرة التي يتشكل فيها هذا الإيمان فتختلف حسب القابليات والاستعدادات، فالبعض تكفيه فترةُ نقاهةٍ قصيرة؛ فقد يرى ما يرى ويفهم ما يفهم خلال أربعين ساعة من التأمل، وهناك آخر قد يحتاج إلى أربعين يومًا أو أربعين شهرًا أو أربعين سنةً حتى يتسنى له الوصول إلى الأفق نفسه..

فمثلًا يذكر جنيدٌ البغدادي الذي كان يحمل فطرةً سوية مهيَّأةً للرقي والنمو أنه كان يشعر ببعض الأشياء بعد بلوغه سنّ الستين.. وأنوه هنا بأنه ليس من الصواب أن نفهمَ من كلام الجنيد رحمه الله أنه لم يكن يشعر أو يرى أو يتذوّق شيئًا حتى بلغ سن الستين، فإنّ مثل هذا الاعتقاد يُعدّ سوء أدب مع هذه الروح الشامخة.. إذًا كيف لنا أن نفهم هذا القول؟ إن هذا الإنسان العظيم كان يشخص ببصره إلى أفق الإنسان الكامل، ويُطيل النظر إلى هناك.. وهذا يعني

أن الشعور ببعض نسمات هذا الأفق مرتبطٌ بزمنٍ معين، وربما أراد أن يلفت أنظارنا إلى اختلاف القدرات لدى الناس، وحاصل القول: إنّ المقصد والنية أيًّا كانا فعلينا أن نتجنب سوءَ الظن ونستعيذ بالله من اللغط في الكلام عند الحديث عن هؤلاء الرجال العظام، وألا نرتكب خطأً يثير غيرة الله تعالى.

أعظم إحسانٍ يمكن أن نهديه للأجيال القادمة

ولنرجع إلى موضوعنا الأساس ونقول: أصبح من الصعب إلى حدٍّ بعيد الآن إثارة شعور التفاني في القلوب، لا سيما في هذا العصر الذي باتت فيه البيوت خاليةً من الحياة الروحية، وامتلأت الشوارع بأمور تعود علينا بالضرر، وغدت المؤسسات التعليمية لا تقدّم هذا الشعور لأبنائها، ولم تعد المساجد تبعث مثل هذا العشق والحماس في القلوب؛ ومن ثم فإن غرسَ روح التفاني في الصدور في مثل هذا العصر يعتمد على جهودٍ وهممٍ خاصة. أجل، إن تخليص الناس من تأثير البدن، وإنقاذهم من أسارة الجسمانية، وتوجيههم إلى مدارج حياة القلب والروح، وجَعْلَ الفوز برضا الله تعالى غاية حياتهم، وتشجيعهم على التوجه إلى ربهم بقولهم: "اَللّٰهُمَّ عَفْوَكَ وَعَافِيَتَكَ وَرِضَاكَ"؛ كل هذا يتطلّب هممًا عالية وجهودًا كبيرة.

إن الإنسانَ مولَعٌ بمقتضى طبيعته بالدنيا وجماليّاتها الفاتنة، ويمكن القول إن الناس قد رُبُّوا على إنجاز أعمالهم الدنيوية على أكمل وجه؛ بسبب أنهم جعلوا الأهداف والغايات الدنيوية من أولويات حياتهم.. ولذا فأنا على قناعةٍ بأن أعظم إحسان يمكن أن نقدمه لأجيالنا الحالية هو إثارة رغبة الحياة في قلوبهم من أجل الآخرين.

والواقع أن مثل هذا العشق والحماس يُعدّ ركنًا مهمًّا في جوهر الإسلام، وكما تأخذ هذه المشاعر في الصلاة شكلَ الخضوع والخشوع فإنها تستثير روحَ التفاني فيكم فتدفعكم إلى دوام الجهد والسعي بلا انقطاع، أما القلوب المحرومة من مثل هذا العشق والحماس فلا تتوقّعوا منهم جهدًا أو سعيًا أو تضحيةً مهما تحدثتم إليهم.

تبلُّد المشاعر يعني موتَ القلب

ومن ثم يجب أن يكون لدى الإنسان حماسٌ جنوني حتى ليوشك أن يُهلك نفسه أو ينقصم ظهره من الهمّ. نعم، يجب أن ينخلع قلبه وتتصدع رأسه وتنتفخ أوداجه حزنًا على هذه القلوب المحرومة من الإيمان، فلو وجدنا إنسانًا لديه مثل هذا الحماس الجنوني فعلينا أن نقول له: "روحنا فداءٌ لحماسك، وأنت على الرأس والعين"، ولا نكتفي بهذا فقط بل نعمل على تقويم حماسه هذا بعقلِ الإسلامِ ومنطقه؛ وبعبارةٍ أخرى: وجِّهوا هذا الحماس الذي قد يصل إلى حدِّ النشوة إلى الخير؛ فمثلًا شجِّعوهم على استغلال هذا العشق والحماس في الثبات على الحقِّ والدوام عليه؛ وهذا يعني أن عليكم أن تجعلوا الناس يعيشون حالةً روحيّة بفضل العشق والحماس؛ لأنه ليس بالإمكان القيام بأي عمل ثابت طويل الأمد بعقلٍ ومنطقٍ محض.

أجل، يجب على الناس بداية أن يعتمد تغيّيها لغايةٍ سامية على عشقٍ وحماسٍ صادق؛ فإذا ما اقتضت الضرورة أن يتوقفوا صمدوا وثبتوا، وإن اقتضى الأمرُ الإسراعَ هرولوا حتى تتقطع أنفاسُهم مثل الفرس العربي.

ورسول الله ﷺ هو أعظم قدوة لنا في هذا الوصف كما في كل خلقٍ حسن، فعلى سبيل المثال يقول ربنا سبحانه وتعالى مخاطبًا نبيّه ﷺ ومؤكدًا على هذا الوصف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (سورة الكَهْفِ: ٦/١٨)، ويقول في آية أخرى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الشُّعَرَاءِ: ٣/٢٦)، فهذه الآيات وغيرها تدلّ على قدر الحماس والانفعال الذي كان لدى سيدنا رسول الله ﷺ، ومن ثم نرى ربنا سبحانه وتعالى يقوّم هذا الحماس بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (سورة القَصَصِ: ٥٦/٢٨)، وعلى ذلك فإن كان لدى إنسان مثل هذا الحماس الديني فيمكننا أن نقوّمه ونعدّله بالمحكم من آي القرآن، فنوصيه بأن يحسب حسابًا للأضرار والمنافع التي تصحب هذا الانفعال السريع، وأن يضع اعتبارًا للزمن والظروف الراهنة ومشاعر المخاطبين وردّ فعلهم، ولكن ما الذي يمكن أن نقوّمه ونعدّله إن لم يكن مثل هذا الانفعال منذ البداية؟!

لا بدَّ من روحٍ مفعمة بهذا القدر من الحماس لضمان العزم والاستمرارية، غير أنه علينا ألّا نضحّي بالعقل والمنطق في سبيل الحسّ والحماس؛ لأن هذه الحال تؤدّي إلى الإفراط وعدم الاتزان؛ ولذا لا بدّ أن تنبض القلوب وتخفق، ويتقدّم العقل والمنطق على الانفعال والحماس على الدوام، ويُوجَّهَ الانفعالُ إلى الإيجابيات.

يجب أن يدعّم المنطقُ والحماسُ بعضُهما بعضًا

فضلًا عن ذلك فإن كنا ننشد غايةً مثلى ونعمل على تحقيقها فعلينا ألا نتخلّى عن طريقنا وإن تقطعت بنا السبل؛ لأن القلوب

المؤمنة إن استوقفها شيء في طريقها جدّت في العثور على طريق بديل آخر، وواصلت طريقها، فإن تعرقلت ثانية لا تيأس وتظل على دأبها في البحث عن طريق جديد، فإن انسدّت كل الطرق لم تفقد أملها، وظلّت على سعيها قائلة: "إن لم يكن في مقدورنا نحن أن نفعل؛ فلا جرم أن الله تعالى سيأتي بآخرين يقومون بما لم نستطع نحن أن نقوم به، ويحققون هذه الغاية المثلى"، وليس هذا فقط بل تسعى وراء غاياتها السامية بهمّةٍ عالية، حتى وإن اضطرّت أن تطال النجوم بأيديها؛ لأنها تعلم جيدًا أن دنوّ الهمة يُهلك الإنسان.

ولكن مع ذلك تراعي المعايير العقلية والمنطقية، وتهتم بتنفيذ خططها؛ بمعنى أنه لا مجال للتناقض بين منطق المؤمن وحماسته، ويجب ألا يكون، بل على العكس يجب أن يدعما ويُكمّلا بعضهما البعض الآخر، فكم من أناسٍ أضرّوا بالإسلام بسبب أنهم كانوا يتحرّكون من منطلق انفعالهم وحماستهم ليس إلا! وإن كانوا يسعون في سبيل خدمة الحق والصدق، فبعضهم ظنّ أن المنطق المحضَ والثرثرة والديماغوجية والجدليّة ستُفيد في إرشاد الآخرين، غير أن بلاغاتهم لم يُكتب لها البقاء والدوام كثيرًا، وتَعِبَ أصحابُها وظلّوا في منتصف الطريق.

فكما أننا بأمسِّ الحاجة إلى الحماسة بمعناها الحقيقي؛ فنحن كذلك في حاجة إلى كثيرٍ من المبادئ التي قنّنَتْها محكماتُ آيِ القرآن الكريم؛ حيث إنه ينبغي لنا أن نَزِنَ كلَّ أفعالِنا وتصرُّفاتنا بميزان القرآن والسنة، فضلًا عن آراء وأقوال الخلفاء الراشدين، امتثالًا للحديث الشريف: "**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ**

الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ"[١٨١]؛ لأننا إن كنا نؤمنُ بصدق هدفنا وغايتنا التي نسعى من أجلها فلا بدّ أن يكون الطريق الذي نسعى من خلاله إلى هذا الهدف محفوفًا بالثقة والأمان، وهذا لا يتأتّى إلا بالسير على نهج القرآن والسنة، واتباع سادتنا الصحابة، لا سيّما الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عن الجميع.

ومن أهم السبل التي تسهم في تهييج مشاعر العشق والشوق؛ استثارةُ آلية التفكُّر لدى الناس، وتعميق المنهج الفكري.. وكما نعلم فإن كلمة "التفكُّر" تأتي من باب "التفعّل" الذي يعبر عن التكلّف، ولذا فالتفكُّر عمليةٌ يمكن اكتسابها من خلال تعويدِ الإنسانِ نفسَه على التفكير وإلزامها به حتى تتصدّع رأسه.. والتفكُّر لا يعني جلوس الإنسان وتفكيره مليًّا، أو تأسيس علاقة سطحية أو ضعيفة إزاء ما يرى أو يسمع، بل يعني تقييم البداية والنهاية، واستنباطَ بعض الأمور من جراء تفكيره وجَوَلان العقل كالمكّوك بين السبب والنتيجة، ومزج ذلك كله بروحه، ودمجه في الوقت ذاته بمشاعره، ثم استنباط أمور جديدة من كل هذا عن طريق مَصَافي المشاعر، وعلى ذلك فإن عملية كسب روح العشق والاشتياق تعتمد على تفكير الإنسان بدايةً، وإعمالِه عقله، وتمييزِه بين الحسن والقبيح في كل ما يفكر فيه.

المداومة على ذكر الحق تعالى وإحياء الليل له

ومن الأهمية بمكانٍ الدوام على مثل هذه العملية من التفكُّر؛ فليس من الصواب أبدًا أن نقنع بحال مَنْ نخالطهم حتى وإن كنا نعتقد بأنهم يسبحون في أفق: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (سورة

(١٨١) **سنن أبي داود**، السنّة، ٦؛ **سنن ابن ماجه**، الإيمان والفضائل، ٦.

الرَّعْدِ: ٢٨/١٣)، والأحرى ألا نقنع بحال بعضنا، بل علينا أن نشدّ من أزر بعضنا في هذا الشأن على الدوام، كما يقول المتفكر العظيم في هذا العصر سعيد النورسي: "علينا أن نتعاون ونتعانق ونترابط مع بعضنا في انتظامٍ تامٍّ وموازنة كاملة كالأحجار في القباب"(١٨٢). ومن القصور في الفهم أن نفهم هذا القول على أنه دعوة إلى الوفاق والاتفاق ونبذ الفرقة والاختلاف في البنية الاجتماعية فقط، بل هو دعوة إلى تأييد بعضنا البعض في مسألة اعتبار خدمة الدين غاية حياتنا، والمحافظة على حيويتنا دائمًا في سبيل تحقيق هذه الغاية.

وعلى ذلك لا داعي لِلّغط والكلام التافه في مجالسنا التي نجتمع فيها لغاية سامية، بل علينا أن نزين مجالسنا بالجلسات الإيمانية. أجل، علينا في نهاية كل مجلس أن نسأل أنفسنا عما أحرزناه من الأمور الواردة في دعاء: "اللّٰهُمَّ رَبَّنَا زِدْنَا عِلْمًا وَإِيمَانًا وَيَقِينًا وَتَوَكُّلًا وَتَسْلِيمًا وَتَفْوِيضًا وَمَعْرِفَةً وَمَحَبَّةً وَعِشْقًا وَاشْتِيَاقًا إِلَى لِقَائِكَ وَعِفَّةً وَعِصْمَةً وَفَطَانَةً وَحِكْمَةً..."، وإذا ما أتيحت لنا الفرصة في المجالس الدنيوية فعلينا أن نستغلها للحديث عن الموضوعات التي يمكن تناولها في الجلسات الإيمانية، ونحاول أن نهمس للقلوب ببعض جماليات الإيمان.

لا جرم أن مِن حقّ كل مواطن أن يتعرّف على الأحداث اليومية، ويطّلع على القضايا الراهنة، ولكن إذا كان هناك الكثير من الناس يهتمون بالأحداث الراهنة فأولى بمن نذروا أنفسهم لخدمة القرآن أن يُطوّروا من قدراتهم حتى يؤدّوا خدمتهم على أكمل وجه،

(١٨٢) انظر: بديع الزمان سعيد النورسي: **اللمعات**، اللمعة الثالثة والعشرون، المسألة الثانية، ص ٢٤٨.

وأن يتعمقوا في هذه النقطة الأساسية، وما تلا ذلك فهي أمورٌ عرضية بالنسبة لهم لا داعي لإجهاد أنفسهم في التفكير فيها.. من أجل ذلك يجب أن يذكروا الله تعالى في كل مكان يجلسون فيه وينهضون، وأن يقضوا ليلهم معه.

خلاصة القول: علينا أن نبذل كل ما في وسعنا حتى نجعل الناس عشاقًا وَلِهين لربهم، ونرقى بهم إلى أفق محبِّ حبيب الله ﷺ، حتى إذا ما ذُكر اسمُ سيدنا رسول الله ﷺ تحرّق شوقُهم إليه.

أجل، ثمة حاجة دائمة إلى عملية نقاهة من أجل المحافظة على روح التفاني والحماس في أداء الخدمة، ولا يختلف هذا الوضع في حياة الإنسان الفيزيقية، فمثلًا إذا لم يعمل عضوٌ من أعضاء الجسم فترةً طويلة أصابه الضعف والوهن، وبعد فترة يتوقّف عن العمل، والأمر نفسه سارٍ على حياتنا القلبية والروحية.. ومن هنا تتبدّى الحكمة في تخصيص الصلاة بخمسة أوقات في اليوم، وصوم رمضان شهرًا في السنة؛ فالقلوب المؤمنة تدلي بدلوها خمس مرات في اليوم فيما يسمى بالمنهل العذب المورود؛ أي الإسلام، وكلما أخرجوا شيئًا اغتسلوا به وتطهروا؛ بمعنى أنهم يسعون خمس مرات في اليوم إلى أن يشعروا ويحسوا ويتعرّفوا على الله تعالى، وهذا أمرٌ يدعونا إلى أن نستوعب الحكمة الأساس في عباداتنا، وأن نربط قيامَنا وقعودَنا وليلَنا ونهارنا به سبحانه وتعالى؛ حتى يستديم عشقُنا وحماسُنا الديني.

لا سبيل إلى عبور البحار بسفينةٍ خرقاء

وأرى أن الخصائص التالية التي أوصى بها الرسول الأكرم ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه لها أهمية بالغة في عملية النقاهة الدائمة:

"جدد السَّفِينَة فَإِن الْبَحْر عميق

وخفف الْحمل فَإِن السّفر بعيد

واحمل الزَّاد فَإِن الْعقبَة طَوِيلَة

وأخلص الْعَمَل فَإِن النَّاقِد بَصِير"(183)

جَدِّدِ السَّفِينَةَ فَإِنَّ الْبَحْرَ عَمِيقٌ:

أجل، المسألة لا تتحمل حتى الإصابة بعطب بسيط؛ لأن المسافة طويلة، والبحر الذي سنعبره عميقٌ للغاية؛ لأن خطر الغرق -حفظنا الله- يحيط بالإنسان كل لحظة، فماذا لو تهشمت السفينة مثل "تيتانيك" جراء معصيةٍ من العبد أو غفلةٍ منه؟! فقد يغرق كلُّ من فيها، فإذا كانت السفينة هي حياتنا الروحية وصلة قلوبنا بالله تعالى فعلينا أن نفحصها مع إشراقة شمس كل يوم وتَجدّدِها، ونجعلها صلبة متينة؛ لأنه لا سبيل إلى القيام برحلة طويلة بعقل ومنطقٍ واهن، وقلبٍ تعوزه الحماسة، وسفينة مهترئة.

أما الوصية القيمة التالية فهي: "واحمل الزَّاد فَإِن الْعقبَة طَوِيلَة"؛ والزاد الموصَى به هنا ليس الطعام أو الشراب أو السلاح، بل هو عبادة الإنسان وطاعته.. وبما أن الرحلة تبدأ في الدنيا وتمتدّ إلى الآخرة فهي رحلة طويلة جدًّا، وهذا يتطلب زادًا كثيرًا، فمثلًا كما أن الصلاة سترافقنا في الحياة البرزخية، فكذلك الصوم سيكون وسيلتَنا لاجتياز باب الريان ودخول الجنة، فإن لم نجعل هذه الطاعات زادًا لنا بِتْنا يوم القيامة في فقر وعوز.

(183) الديلمي: **الفردوس بمأثور الخطاب**، ٥/٣٣٩.

وبعد ذلك يوصي سيدنا رسول الله ﷺ بتخفيف الحمل لأن العقبة كؤود والسفر بعيد؛ بمعنى أنه يوصينا بالإعراض عن الانهماك فيما لا طاقة لنا به من الملذات الدنيوية، وأن نخفف حِمل ظهورنا حتى نتجاوز ذلك المنحدر الصعب.

وأخيرًا يذكرنا رسول الله ﷺ بأن الناقد سبحانه وتعالى بصيرٌ بعباده، فعلينا أن نتحلى بالإخلاص في أعمالنا.

أجل، كما أن لهذا القدْر من التهيُّؤ أهميةً بالغة في استمرارية الخدمات التي نقوم بها في سبيل إحقاق الحق وإقامة العدل والوصول إلى الذروة التي نرى أمتنا حقيقةً بها بالفعل أو من المحتمل أن تكون حقيقةً بها، فإن له أهميةً كبرى كذلك في حياتنا الأخروية.

يقول الحق سبحانه وتعالى في موضعين مختلفين من القرآن الكريم: ﴿**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ (سورة إِبْرَاهِيمَ: ١٤/١٩)، (سورة فَاطِرٍ: ٣٥/١٦)، والمقصود بالخَلْق الجديد هنا: خلق جديد يخرجون إلى مسرح التاريخ لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى، أو هم أصحاب الحماسة، والأرواح التي نذرت نفسها للحق تعالى، فشعرت بالدين بكلِّ جوانبه في أعماقِ روحها الغضّة، ولم تبلَ أو تَسْمل، أو تستسلم للإلف والتعوّد.

وفي الآية التالية لهذه الآية يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ**﴾ (سورة إِبْرَاهِيمَ: ١٤/٢٠)، (سورة فَاطِرٍ: ٣٥/١٧)، وهذا ما كان وما سيكون دومًا ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ (سورة يس: ٣٦/٨٢).

أجل، إن يشإِ الله يُذهب مَن أصابهم البلى وفقدوا حماسهم الديني ويأتِ بقوم آخرين بدلًا منهم في ظلِّ هدي الأنبياء وأنشطة المجتهدين وتجديدات المجدّدين.

إن من الغرور أن يقول الذين حظوا بانبعاثٍ تحت زخّات الألطاف الإلهية "إننا هؤلاء الخلق الجديد"، منساقين وراء أنانيتهم الجماعية؛ فهذا قد يتسبب في الحرمان من الرحمة والتأييدِ الإلهيّين، فدوامُ العناية الإلهية مرتبطٌ بالتخلي عن الغرور والادّعاء، والسعيِ في محوٍ وتواضع، وعلى ذلك فإن عُهد إلينا بأي مسؤولية فعلينا أن نرعاها ونؤتيها حقّها قائلين: "الوظيفة أسمى وأعلى من الكل"، وأن نكون على وعي بعبوديتنا مؤمنين بفكرة أن "النفس هي أدنى من الكل"[١٨٤].. بمثل هذا المفهوم يمكنُنا أن نقطع المسافة مرة أخرى، ونسير إلى المستقبل بروح غضّة متفانية وحماس جديد، حتى وإن مرت ثلاثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة سنة على الانتظار النشط.

(١٨٤) بديع الزمان سعيد النورسي: **الشعاعات**، الشعاع الرابع عشر، ص ٤٥٦.

هل حفظنا الأمانة؟

سـؤال: كان علماؤنا يدعون الله قائلين: "اللّهم اغفر لنا خطايانا، واقبلنا في عبادك، واجعلنا أُمَناءَ على ما أمّنته عندنـا إلى يوم لقائك"، فهل يُقصد بالأمانة هنا النفس فقط، وما تفسـير كلمة "الأمانة" فـي ضوء الوظيفة والمسؤولية التي نحملها على عاتقنا؟

الجواب: إن العطايا الأولى التي منحها الله للإنسان هي أمانةٌ لديه، فإذا ما أعطى الإنسانُ إرادته حقها وأحسن استغلالَ تلك العطايا الأولى فتحصّل على بعض المكتسبات، فإن هذه المكتسبات هي أمانات لديه أيضًا؛ لأن الفاعل الحقيقي لما اكتسبه الإنسان هو الله ﷻ، غير أنه انطلاقًا من القاعدة الكلية التي تندرج ضمن النظم الحقوقية: "إذا اجتمع المباشر والمتسبب يضاف الحكم إلى المباشر"[١٨٥]؛ فإننا قد نعزو إلى الإنسان بعضَ الأشياء التي اكتسبها باستغلاله لإرادته حتى وإن لم تكن ثمة علاقة وفقًا لقانون السبب والنتيجة بينه وبين هذه المكتسبات.

وعلى ذلك فكما أن عطايا الله نعمة، فكذلك المكتسبات التي يحققها الإنسان بناءً على إعطائه إرادته حقها تندرج أيضًا ضمن قائمة النعم، فإذا ما تبنى الإنسان هذه الفكرة أدرك يد القدرة المطلقة في أول وآخر وظاهر وباطن كل هذه النعم التي حظي بها نتيجة

(١٨٥) **مجلة الأحكام العدلية**، المادة ٩٠.

إعطائه إرادته حقها، وسيجيش صدره بمشاعر الحمد والثناء على الله الذي أنعم عليه بكل هذه النعم.

أجل، عندما يُفكّر الإنسان بكل هذه النعم سيشعر بشدٍّ معنوي حقيقي، وتُسيطر عليه مشاعر الشكر والامتنان لمولاه ﷻ، بل سيُصبح الحمدُ النفَسَ الذي يتنفس به، ويشعر بهزة عنيفة في كل جنباته، من رأسه حتى أخمص قدميه.

الإيمان هو أعظم أمانة

وانطلاقًا من هذا المنظور فإنّ إطار الأمانة يسع الكثير من المعاني؛ فمثلًا حياتنا أمانة، وأعظم من حياتنا الإيمان والإحسان ومعرفة الله ومحبة الله؛ تلك النعم العظيمة التي تحمل نوى الحياة الأبدية، فإن فقدَ الإنسانُ إيمانَه عاش حقبةً زمنية معيّنة مثل باقي المخلوقات، وحكمَ على نفسه بالعدم والفناء؛ لأن الفوز بالخلود منوطٌ بالإيمان، وعلى ذلك فمهما شيّدَ الإنسانُ الأسوارَ حوله، وبذل ما بذل من سعي، وأجرى ما أجرى من دراسات، وجاء بما جاء من أدلة، وكثّف ما كثّف من جهود في سبيل هذا الهدف فلن يمكنه أن يوفيه حقه، ولذلك فإنَّ وظيفتنا إزاء مثل هذه الأمانة القيمة هي مواصلة الطريق باعتبارنا من أفراد "هل من مزيد؟".. لنفرض أن أحدهم استودعكم علبة مليئة بالجواهر النفيسة، وقال لكم: "إن لم تحفظوها قطعت رقبتكم"، فبدهيٌّ أنكم ستبذلون غاية جهدكم للحفاظ على هذه الأمانة، بيد أن قيمة هذه العلبة بما فيها من مجوهرات بجانب الإيمان لا تعدل شيئًا.. وانطلاقًا من هذا فإن إقامة الإنسان أسوارًا متداخلة حول إيمانه حتى لا ينفذ الشيطان إليه

أو تستغل نفسه الأمارة بالسوء هذا القصور إنما هو تعبيرٌ عن مدى حرص الإنسان وحفظه لهذه الأمانة.

والدوام على العبادة والطاعة بعد الثبات على الإيمان أمرٌ له أهميّة بالغةٌ للحفاظ على هذا الإيمان، وفي هذا الصدد يجب على الإنسان أن يتوجّه إلى ربه في توسُّل وتضرُّع فيستعين بكلاءته وعنايته، ويلهج بهذين الدعاءين المأثورين عن رسول الله ﷺ: "**اَللّٰهُمَّ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**"(١٨٦)، "**اللّٰهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ**"(١٨٧).

من يحمل أمانة الإسلام؟

القرآن الكريم تاجُ رؤوسنا هو أمانة أيضًا لدينا، وهذه الأمانة تتطلّب حفظَها في صدور الحفاظ، وفهمَ معناها ومحتواها بشكلٍ صحيح، فمن لم يتعرّف إلى معنى القرآن ومحتواه ما عرف قدره وقيمته، ويجب ألا ننسى أن تعهُّد القرآن وفهمه لا يكون بالاستماع إليه أو قراءته دون أن يتجاوز حناجرَنا، فالأصل هو الحفاظ عليه داخل المجتمع والحيلولة دون ذبوله وشحوب لونه، وبذل الجهد لجعله الكتاب الأوحد في العالم، ونفخ روحه في الأرواح، فإن لم نتعهده ضمن هذا الإطار الذي ذكرناه، واقتصرَ تكريمُنا له على وضعِهِ في غطاء حريري، وتعليقِهِ فوق رؤوسنا في غرف النوم فقد فرطنا في هذه الأمانة.

والإسلام بمبادئه وأركانه التي يلزم معايشتها هو أمانة من الله تعالى ثم من رسوله ﷺ إلى الأمة المحمدية.. لقد حدد مفخرة

(١٨٦) سنن الترمذي، القدر، ٧؛ سنن ابن ماجه، الدعاء، ٢.

(١٨٧) صحيح مسلم، القدر، ١٧؛ مسند الإمام أحمد، ١٣٠/١١.

الإنسانية سيدنا ومولانا محمد ﷺ إطار الإسلام، وكشف بوضوح عن ماهيته، ودلّنا على سبلِ السعادة الدنيوية والأخروية، ثم استأمن الرسولُ الأكرم ﷺ صحابتَه الكرام رضي الله عنهم ثم الذين جاؤوا من بعدهم على هذا الدين، وفي العصور التالية قام كل من المجددين والمجتهدين والأولياء والأصفياء والأبرار بإماطة اللثام عن بعض النقاط التي استُغلق فهمها حتى يُيَسِّروا أمر معايشة هذا الدين في حياتهم، وأبانوا باجتهاداتهم واستنباطاتهم عن إمكانية تطبيق هذا الدين في كل زمان ومكان، وبذلك أدوا وظيفتهم التي كُلِّفوا بها، واستأمنوا الأجيال اللاحقة عليها.. فعلينا نحن كذلك أن نتحمل اليوم هذه الأمانة التي حملها أسلافُنا على عواتقهم أمس، ونُسلّمها إلى الأجيال اللاحقة، وإنه لَجرمٌ عظيم أن نُسلِّمها لهم وقد أصابها الخللُ والتشوّه.

أجل، إن لم نرعَها ونحفظها كما ينبغي، ونسلمْها لخَلَفِنا على الوجه الصحيح فقد ضيعنا الأمانة، وألحقنا ظلمًا كبيرًا بالأجيال اللاحقة.

ولقد اكتسبت مسألةُ خدمة الإيمان والقرآن أهميةً أكبر في عصرنا؛ نظرًا لما تعرَّضت له من إهمال كبير، فقد كان الناسُ في الأزمنة الماضية يُضحّون بأنفسهم في سبيل هذه الغاية السامية حتى في أحلك الظروف؛ فأدّوا مهمتهم المنوطة بهم على أكمل وجه، وحملوا هذه الأمانة حتى اليوم وأوصلوها إلينا، ومن ثم فإنَّ الوظيفةَ الملقاة على عاتقنا الآن هي المحافظة على هذه الخدمة الإيمانية دون تعريضها لأيّ خلل أو قصور والمواظبةُ عليها دون تباطؤ، وتوصيلُها إلى مكانها الصحيح؛ بمعنى أننا نحن المُؤتَمنون على هذه الأمانة

ما حَيِيْنا مكلفون بتوصيلها إلى مكانها الصحيح دون أن نُضيّع أو نفرّط بِذَرّة منها؛ فإن أصاب هذه الخدمةَ انكسارٌ أو تصدُّع أو توقُّف أو تراجع لأننا لم نوفِّ هذه الوظيفة حقها فقد ضيعنا الأمانة، وسيحاسبنا الله تعالى عليها في الآخرة.

ولنوضح هذا الأمر بمثال: هب أن إنسانًا وهب نفسه للخدمة في سبيل الله، ورغم أن ساعات عمله لم تتجاوز ست عشرة ساعة في اليوم نراه يأتي شاكيًا من تباطؤ الأعمال ويطلب المساعدة في عملِهِ، فلا جرم أننا سنصف هذا الشخص بالكسل؛ لأنّ الروح المتفانية لا يحقّ لها أن تشعر بالقصور ولا أن تتذمّر أو تطلب المساعدة من الآخرين في العمل إلا بعد أن تعمل ست عشرة ساعة في اليوم والليلة ثم لا يكفيها هذا الوقت لأداءِ ما يُلقى على عاتقها من مهام.

أجل، إن كان القلق يساورنا من أن نُوصَم بالخيانة عند الله أو من تضييع الأمانة فعلينا أن نتناول الأمر في هذا الإطار، وبعد ذلك نستعين بقدرة الله ورحمته وندعوه قائلين: "اللهم عجّل بإرسال الأمناء، حتى نسلمهم الأمانة التي حملناها ولم نضيعها".

خصلة من النفاق تُضيّع الأمانة

يقول سيدنا رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: "**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**"(١٨٨).. ففي هذا الحديث الشريف ذكر سيدنا رسول الله ﷺ أن من خصال النفاق عدم حفظ الأمانة.. ولذا يمكن القول إننا

(١٨٨) صحيح البخاري، الإيمان، ٢٤؛ صحيح مسلم، الإيمان، ١٠٦.

إن لم نراع الدقّة البالغة في مسألة الحفاظ على كل هذه الأمانات، ولم نتخذ التدابير اللازمة فإنَّ حياتنا ستغدو ملطّخةً بخصلة من خصال النفاق، وهذا يعني أننا قد ضيّعنا صفة الأمانة التي هي من صفات الأنبياء، والحالُ أن الناس يعبرون عن قيمتهم بقدر اتصافهم بصفات الأنبياء العظام عليهم السلام، ويفقدون قيمتهم بقدر تضييعهم لتلك الصفات.

وأنوّه هنا بمسألة أخيرة وهي أن الذين يتحركون تبعًا لهواهم في مثل هذه المسألة التي تتعلّق بحقوق العامة إنما يجرّون على أنفسهم دون وعي وبالًا كبيرًا مثل خيانة الأمانة.. من أجل ذلك لا بد أن ترتعدَ فرائصُنا خوفًا من تضييع هذه الأمانة التي أحسن الله بها إلينا وحمَّلَنا إياها، وأن نرفع أكفَّ الضراعة إلى الله قائلين: "اللهم احفظنا من سقطةٍ مثل خيانة الأمانة، واجعلْنا حافظين للأمانة حتى اليوم الذي تستردّ فيه أمانتك"، ولا ننسى أن يتذكر بعضُنا البعضَ الآخر عند الدعاء بذلك.

الرغبة في إبراز الذات

سـؤال: تتملّك الإنسانَ سـعادةٌ عارمةٌ بسبب ما حققه وأنجزه، وتجنح نفسُـه إلى توجيه أنظار الغير إلى هذه النجاحات التي حقّقها وأحرزها، فما السلوكُ الإيمانيُّ الذي ينبغي اتخاذه إزاء هذه الرغبات والنزعات؟

الجواب: قد يُحرز الإنسانُ بعض الجماليات أحيانًا بفضلٍ من الله تعالى وعنايته، ولكنه لا يضمن ما إذا كانت هذه الجماليات قد جاء بها على الوجه المطلوب أم لا، فمن يدري فلربما كان بمقدوره القيام بعملٍ أجمل وأسلم مما قام به في إطار الإمكانيات المتاحة له، ومن ثمّ فعلى الإنسان أن يُخضع الأعمال التي قام بها للتحليل والنقد، ويتساءل أمام أيِّ نجاح وإن بدا عظيمًا قائلًا: "هل أنا استغللتُ الإمكانيات المتاحة لي على الوجه الأكمل؟ وهل كان بوسعي القيام بأداءٍ أعلى للوصول إلى نتيجة أفضل؟" فإن تحقّق هذا ففي اعتقادي أن ذلك الإنسان سيقف حتى إزاء أعظم النجاحات ويقول في نفسه: "يبدو أنني لم أفلح تمامًا في القيام بهذا العمل، ولم أؤدّه على الوجه الذي يرتضيه ربي وأرضى به عن نفسي"، سيقول هذا، ويظلّ يلوم نفسه ويحاسبها باستمرار.

هل أداء الصلاة أم إقامة الصلاة؟

ولنوضح هذا الأمر بمثال: إن الناس في زماننا يُعبرون عن إقامة الصلاة بقولهم: "أداء الصلاة"، والحال أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد عبرا عن أداء هذه العبادة أكثر من مرّة بلفظ: "إقامة الصلاة"؛ بمعنى: الانسلاخ فيها مما سوى الله تعالى، وأدائها بأركانها الظاهرية والباطنية، ومراعاة الحساسية البالغة إزاء الأمانة التي حمّلها الله لنا، وبناء هذا الصرح بإتقانٍ ودون قصور، وتحليته بألوانه ونقوشه وخطوطه الخاصة به.. وعلى ذلك فقد يُسأل من يقول: "إنني أقمت الصلاة"، "هل أقمتَها في الحقيقة بأركانها الظاهرية والباطنية"، إذ إن الأداء هو محاولةٌ لإسقاط الفرض فقط، والتخلّص من ثقله.

وإنني أرى أن تعبير "أداء الصلاة" ينمّ عن حسن التربية والأدب مع الله ﷻ، ومن المحتمل أن الإنسان اليوم قد استخدم هذا التعبير بعدما وقف مع نفسه متسائلًا: "كيف يليق بي أن أقول إنني أقمت الصلاة مع ما شابَهَا من قصورٍ في بنيتها الداخلية والخارجية؟ فلقد أدَّيتها ظاهريًّا قدر استطاعتي، غير أنني ألجأ إلى سعة رحمة ربي ﷻ وأرجوه أن يعفو عن إنسان مثلي أدى صلاته دون إتقان".

ويمكنني القول إنني أعشق هذا التعبير الذي أعتقد أنه ينبئ عن كثير من المحو والحياء والتواضع.

نستخلص مما سبق أن اعتماد الإنسان على أعماله وإنجازاته فيه ما فيه من الخطورة، فبدلًا من هذا يجب على الإنسان أن يسعى وراء الكمال قائلًا: "لم أستطعْ أن أؤدي عملي على الوجه الأكمل"، وأن يكون لديه إيمانٌ بأن الله تعالى قد يعفو عن عباده بما يؤدّونه

حتى من أعمال صورية، ويَقبلهم في حضرته الإلهية، ومن المحتمل أن مَن يشغل نفسه بهذه الأفكار يَجبُر الحقّ ﷻ القصور الحاصل في أعماله بناءً على نيته الخالصة ويعامله وفقًا لها.

وليس من الحكمة أن يُفكّر الإنسان فيما حقّقه من جماليّات ويحاول أن يبرز ذاته من خلالها حتى يجلب أنظار الناس للحديث عنها، كما أنه ليس من الصواب أن يدعي الإنسان بأنه أهلٌ لكلّ هذه الثناءات التي يوجهها الآخرون له، قد يقول بعضُ الناس عنه: "لقد فعل فلان كذا، وحقق كذا"، ولكن يجب على الإنسان أن يعزوَ هذا كله إلى حسنِ ظنِّ الناس به، وأن يعتبر حسن الظن هذا خطأً اجتهاديًّا، والواقع أننا لا يمكننا أن نعتبر الخطأ في حسن الظن ذنبًا؛ إذ إن إحسان الظنّ والخطأ فيه أهون من إساءة الظن والصواب فيه.. من هنا كان تفضيلُ حسنِ الظن أولى، بشرط ألا يخرج عن حد التوازن والاعتدال، ولا يتعدى الإطار المسموح به، ولا يتجاوز حدّ التقدير، وإلا كان المدح والثناء سببًا في قطع عنق الممدوح(١٨٩).

حبس جزاء الأعمال على دائرتنا الضيقة

من الأهمية بمكان أن يحرص الإنسان كلّ الحرص على تحبيب الناس في ربهم ورسولهم ﷺ، ولكن حتى ولو كان ذلك الإنسان وسيلةً لأن تخفق الروح المحمدية على القلوب في كل أرجاء الأرض فعليه ألا يقنع بذلك، ولا يحبس هذه الجماليات على دائرته

(١٨٩) صحيح البخاري، الشهادات، ١٦؛ صحيح مسلم، الزهد والرقاق، ٦٥. ["عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: "**وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ**" مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: "**مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ أَحْسِبُ فُلَانًا، وَاللهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ**"].

الضيقة بأن ينسبها إلى نفسه، بل يجب ألا يتسبَّبَ تقديرُ الآخرين لأعماله إلى تبديل فكره أو شعوره في هذا الموضوع؛ إذ إن الإنسان الذي يقتنص الفرصَ للحديث عن أعماله وينفعل بهذه المشاعر على الدوام، قد لا يجد وقتًا وإمكانية للحديث عن الأمور التي عليه أن يحدِّث الآخرين عنها.. والحال أن الله تعالى والحبيب ﷺ هما دعوتُنا وقضيتُنا، علينا أن نجلس ونقوم بهما، وأن نعتبر تحبيب الآخرين فيهما أعظم غاية، وكما أن من حقّه ﷻ تحبيب الناس فيه، فمسؤوليّتنا نحن هي أن نقوم بهذه الوظيفة.

وإن من أعظم المخاطر التي تمنع الإنسانَ من الخدمة في مثل هذه الوظيفة السامية هو محاولة الفرد إثبات نفسه وإبرازها بما يقوم به من أعمال.. قد يلتفّ الكثيرون حول شخصٍ بسبب قلمه أو فكره أو اقتراحاته أو قدراته التنظيمية أو تأثيره القوي على الناس، غير أن هؤلاء المحيطين به إن أغدقوا عليه المدح والثناء دون اعتبارٍ بأنهم يقطعون بذلك رقبة صاحبهم فهذا يعني أن الوضع قد بات أشدّ خطرًا، إن كنا نأمل في أن يُشار إلينا بالبنان فلربما نصل إلى هذا الأمل في الحياة الدنيا، غير أننا إن ربطنا الأمر بمثل هذه الأهداف البسيطة للغاية فيا لَلْخسارة التي سنُمنى بها في الدار الآخرة! والحال أن القلب المؤمن ينظر إلى المسألة بسعة رحمة الله، وينشد الرضا والرضوان، ولا يحبط أعماله بربطِها بحسابات صغيرة للغاية.

وليس من المهارة أن يحتفظ الإنسان بما قدمه من إحسان في ذاكرته، وما أجمل المثل القائل: "اعمل الخير وارمه بالبحر، فإن لفظه السمك احتفظَ به ربّ السمك".. قد يلهج الإنسان بالحمد والثناء

على الله تعالى شكرًا وامتنانًا لخالقه الذي أتاح له الفرصة للقيام بهذا المعروف، هذه مسألة أخرى، ولكن تعديد الإنسان للمعروف الذي قام به قائلًا: "لقد أنجزت هذا العمل، ومددت يد العون إلى هذا الشخص"، قد يؤدي إلى أن يذهب معروفُه هباءً وهو ما يزال في الدنيا.. وفي هذا الصدد على الإنسان أن يتصرف بحساسيةٍ بالغة، فإن جاءه أحدهم وحدّثه عن معروفه الذي قام به من قبل، فينبغي له أن يقول: "لقد نسيت"، وألا يشغل ذاكرته بالإحسان الذي قام به، بل عليه عند اللزوم أن يمحو من ذاكرته كل ذلك، وإن كلّفه هذا الأمر عناءً وجهدًا.

أعظمُ العيب ألا يرى الإنسانُ عيبَ نفسه

ينبغي للقلب المؤمن أن يشعر في وجدانه بثقل الذنب الذي ارتكبه قبل سبعين سنة، وحتى وإن كان قد استغفر الله عليه سبعين ألف مرة في حياته؛ فينبغي له أن يتلوّى وكأنه قد اقترفه أمس، وأن يتضعضع خجلًا وانكسارًا، ويواظبَ على استغفاره لله ﷻ.. وربما تنتاب الإنسانَ بعضُ الأفكار التعقلية والتصورية والتخيلية التي لا تُقيَّد في دفتر أعماله، ولكن مع ذلك يجب على الإنسان أن يتلوّى دائمًا بسبب هذه الأفكار السلبية ويقول في نفسه: "ربي، كيف يليق بي أن أفكر هكذا إزاءك؟ كيف أقوم بهذه الوقاحة والصفاقة في عالمي التخيلي، كم أنا إنسانٌ وقح عديم الاحترام!"، فإن فعل الإنسان هذا ما خسر شيئًا ألبتة، بالعكس إن من يقضي حياته سائرًا على هذا المنهج سينال جزاءَ كثرة توبته واستغفاره، يقول سيدنا رسول الله

ﷺ: "**طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا**"(١٩٠)، كما ورد في حديث آخر أن الرسول الأكمل ﷺ كان يستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة، قال صلوات الله عليه: "**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**"(١٩١)، وفي رواية مائة مرة، قال عليه أكمل التحايا والسلام: "**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**"(١٩٢)، وهذا كلُّه يحدث مع أنه لا يعزب عن علمنا أن سيدنا رسول الله ﷺ ما ارتكب ذنبًا في حياته قط، فلقد وُلد معصومًا وعاش معصومًا. أجل، ظل طوال حياته مؤيدًا بالوحي، ورغم هذا كله كان يستغفر الله بهذا القدر كل يوم.

خلاصة القول: إنه لمكسبٌ كبيرٌ أن ينهض الإنسانُ ليلًا بسبب ذنبٍ اقترفه، ويفترش سجادةَ الصلاة، وتسيل عبراته، ويستغفر الله ألف ألف مرة.. أما الذي يعتبر نفسه وكأنه ما أخطأ في شيء، ويعيش في إقليم فضائله الساحر، مغمورًا بنجاحاته، مَعْمِيًّا بإنجازاته، فمن الصعب للغاية أن يتوجّه إلى ربه بمثل هذا المحو والخجل، أما مَن يتعامل مع أي ذنب ولو كان صغيرًا وكأنه ارتكب جرمًا عظيمًا فمن شأنه أن يتوجه إلى الله تعالى بصدق وإخلاص، ويبثه همومه، ويتوسل إليه ويتضرع بالدعاء.. وعلى ذلك فإذا كانت رغبة الإنسان في امتداح الآخرين له أمرًا مذمومًا، فإن محاسبة الإنسان نفسه على ما اقترفت يداه لهو أمر محمود، اللهم اجعلنا من عبادك المحظوظين بمحاسبة أنفسهم بحق! آمين.

---

(١٩٠) سنن ابن ماجه، الأدب، ٥٧؛ النسائي: **السنن الكبرى**، ٦/١١٨.

(١٩١) **صحيح البخاري**، الدعوات، ٣؛ **سنن الترمذي**، تفسير السورة، ٤٧.

(١٩٢) **صحيح مسلم**، الذكر، ٤١؛ **سنن الترمذي**، تفسير السورة، ٤٧.

الاستفادة العظمى من مصادرنا الذاتية

سؤال: ذكرتم فيما سبق أنه ينبغي لطالب القرآن بحقّ أن ينهلَ مباشرةً من مصادره الأصلية، أما المصادر الخارجية فله أن يستفيد منها بعد تفحيصها وتدقيقها، فما الأمور التي يجب مراعاتها حتى تتحقّق الاستفادةُ القصوى من المصادر الأصلية؟

الجواب: بادئ ذي بدء لا بدّ من إثارة شعور الشغف وحبّ المعرفة لدى الناس قبل توجيههم إلى المصادر الأصلية: وبعبارة أخرى؛ يجب أولًا تهييج مشاعر الاشتياق إلى العلم والدراسة في وجدان المجتمع من أجل عشق الحقيقة والوصول إليها؛ حتى يُقبل الناس على تأمل الحوادث والأشياء دون توقف أو ضجر أو تعب، ويتلهفوا إلى التعرف على حقائق هذه الأشياء، فإن انفعلت نفوسهم بمثل هذا العشق والحماس ثارت في القلوب الرغبة في التعرّف على المصادر الأصلية التي تبني ذاتيتنا.

أجل، إن تَملَّكَ القلوبَ هذا الحماسُ الجنوني للتعلّم اتّجه إنساننا حينذاك برغبةٍ واشتياقٍ عارمين إلى مصادرنا الذاتية، وأخذ يرتوي منها.

لا سبيلَ إلى توجيه الماء الراكد إلى أي مكان

ومثالًا على ذلك أُقدم لحضراتكم هذا الطرح وإن كان متعلِّقًا بموضوع آخر: يجب أن يشعر الناسُ بدايةً بحماسٍ جنوني حتى يمكنهم إحياء غايتهم أو تحقيق انبعاث يسير وفقًا لهذه الغاية؛ حماس لا يجد الإنسانُ بسببه موطئًا لقَدَمه على وجه الأرض، ويظلّ يترنح يمنة ويسرة كالمجنون، فمن الصعب للغاية أن نخلّص الناس من الإلف والتعود ونرشدهم إلى مكانٍ ما بدون هذا الحماس، أما بالنسبة للشخص المفعم بهذا الحماس فمن اليسير جدًّا تقويمه وإن بدرت منه بعض التجاوزات، وذلك في إطار مبادئ الدين الذي يُكنّ له كلَّ احترام وتقدير.. فمثلًا بإمكاننا استغلال حماسه هذا في مكانه الصحيح، ونوجهه قائلين: "إنك تتمتّع بحماسٍ بالغ، ولكن قد ينشأ عن هذا الحماس هدمٌ أكثر من الإنشاء، وهذا لا يتوافق مع مبادئ دينك أو القيم التي ترتبط بها من صميم قلبك، والأفضل أن نستغل حماسَك هذا في الطريق الإيجابي، وإن لزم الأمر نجعله بذرة تنمو بعد مئات السنين، وعاملًا أساسيًّا للثبات على هذا الطريق، فلنرهق أذهاننا إذًا ونعيي عقولنا في توليدِ خططٍ تهدف لترشيدِ مثل هذا الحماس حتى وإن استغرق ذلك عصورًا".

وينطبق هذا الأمر أيضًا على مسألة التعلم وقراءة الكتب؛ بمعنى أن توجيه الناس دون إيقاظ لمشاعر الشوق إلى العلم والحقيقة والدراسة لديهم أمرٌ جدّ عسير، فمهما أرشدتم الذين حُرموا هذا الحماس إلى مصادر معينة، فمن المحتمل أنهم سيكتفون ببعض القواعد الفقهية البسيطة، ومن ثم يجب أن نُكسب هذا الحماس لإنساننا بدايةً، ثم نحدد الطريق والوجهة لهذا الحماس؛ لأنه ليس بالإمكان سَوق الماء الراكد إلى أي جهة.

لا بدّ من التعرّف على المحكمات أوّلًا

أما الأمر الثاني الذي يجب الالتفات إليه فهو تحديد أولويّاتنا من حيث عالمنا الفكري؛ بمعنى: ما هي الأولويات التي لا بد أن نتعلمها ونعيها، وما المقاييس التي يجب الاعتماد عليها، وما المعايير التي ينبغي أن نكون أوفياء لها، وما هي محكماتنا التي سنختبر بها معلوماتنا، وأي المصادر التي توجد بها؟ وجواب هذه الأسئلة هي الأدلة الشرعية الأصلية وفي مقدماتها المصادر الأساسية لثقافتنا والتي يمكننا أن نتعرف من خلالها على مشاعرنا وأفكارنا وهي: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ثم الأدلة الشرعية الفرعية مثل: العرف والعادة والمصلحة والاستحسان.. وهكذا فإن الاطّلاع على المصادر الأخرى دون التعرّف على هذه المصادر وتحديد محكماتها كثيرًا ما يصاحبه فوضى فكرية كبيرة، ويمكن أن نعزو إلى هذا الأمر أيضًا؛ الفوضى الفكريةُ التي بدأت منذ عهد التنظيمات(١٩٣) واستمرت في عهد المشروطية وما بعدها، وعدمُ تمسُّكنا بعلم الأصول، وتلقُّفُ كل ما يصل إلى أيدينا على الفور دون اعتبار لِغثٍّ أو سمين ولا انتباهٍ أو مراقبةٍ لمن يدسّ السمّ في العسل، وانسياقنا الأعمى؛ مما أوقعنا في فخّ التكلّف والخيال.

فمثلًا كثُر الحديث في أيامنا عن إدارة الموارد البشرية وتنمية الشخصية والاعتماد على الذات، ولكننا إن لم نرجع إلى الأقوال

(١٩٣) أعلن فرمان التنظيمات في الدولة العثمانية في الثالث من نوفمبر عام ١٨٣٩م، ويعد أول خطوة عملية نحو التغريب في التاريخ التركي؛ فبموجب هذا الفرمان شملت التنظيمات جميع المجالات حتى إنها أفسحت المجال لتغيير جذري في نظام الفكر التركي؛ حيث سعى المثقفون الأتراك الذين تلقوا تعليمهم في الغرب من خلال الفرمان المذكور إلى تبني المعايير الغربية في تنظيم كل شيء بالدولة العثمانية؛ بمعنى أن هذا الفرمان كان بمثابة محاولة لإنقاذ الدولة العثمانية عن طريق التمسك بالقيم الغربية.

الكريمة التي ذكرها الرسول الأكرم صلوات ربي وسلامه عليه في مثل هذه المسألة المهمة وهي تربية الإنسان، واكتفينا بقراءة نظريّات التنمية البشرية التي تفتقر إلى الميتافيزيقا فهذا يعني أننا قد فقدنا الكثير والكثير؛ لأننا إن لم نوجه الناس إلى أفق الإنسان الكامل في إطار الأسس التي وضعها المرشد الأكمل ﷺ في مسألةٍ مهمّةٍ كالتربية والتعليم فهذا يعني أننا -معاذ الله- نقول: إن النظام الذي جاء به ﷺ يشوبه -حاشا لله- النقص والقصور، وأن القرآن الكريم أهمل كثيرًا من الأشياء، ولم يفهم السلفُ الصالح على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان بعضَ الموضوعات ألبتة"، وهذا ضلال مبين.. وعلى ذلك فلِمَ ننساق انسياقًا أعمى وراء الآخرين؟ قد يكون لهم منطقٌ واضح في كتاباتهم وأحاديثهم ومصطلحاتهم ونظمهم الخاصة، ولكن يجب أن نتناول المسائل التي ذكرناها آنفًا من خلال قيمنا الذاتية، ومصادرنا الأساسية؛ وذلك حتى لا نتصارع مع ذاتيتنا، ولا يعترينا عوجٌ وانحرافٌ يؤدي بنا إلى التناقض في أسسنا الإيمانية عند الحديث عن علم التربية أو علم النفس.

أجل، إن سَلَكْنا الطريق دون أن نحدد القبلة فسنظلّ نهيم على وجوهنا هنا وهنالك دون أن نجد طريقَنا أو جِهَتنا.

ولكن إن درس الإنسان مصادره الأصلية وتعلَّمها واستوعب محكماتها، وأمسكَ بها في يده كمعيارٍ يحتكم إليه؛ فحينذاك يمكنه أن يقرأ الكتب التي يريدها، وهذا لا يعني أنني أقول لا تقرؤوا لـ"سارتر (*Sartre*) (١٩٠٥-١٩٨٠م)" و"ماركس (*Marx*) (١٨١٨-١٨٨٣م)" رغم أنني أنظر نظرة دونية إلى أفكارهما، وأجد فيهما خطرًا كبيرًا على شبابنا بشكل خاص؛ لأن هناك جماليات يمكن أن

نستفيدها منهما، ولكن عليكم أن تجعلوا مصادركم الأساسية معيارًا في أيديكم، حتى يمكنكم أن تستلهموا ما تستلهمونه بشكل سليم.

أجل، من الضروري أن يكون بأيديكم مغزلٌ تنسجون به ما تريدون، ولكن إن تخليتم عن قيمكم الأصيلة انسقتم وراء هذا التيّار اليوم، وخلف ذاك التيار غدًا، وهكذا... ولا تحصلون على شيء في النهاية، وهذا للأسف هو الحال المؤسف لمثقفينا منذ عصور.

الحامل الثلاثي

فإذا ما تعرّف الفردُ جيِّدًا على مصادره الأساسية أضفَتْ عليه المعلومات التي يستقيها من المصادر الأخرى طابعًا مميّزًا ولونًا خاصًّا، فمثلًا نهلَ أجدادنا حتى القرن الخامس الهجري، وصولًا إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين ما نهلوا، ومع ذلك لم تعترضهم مشكلة ذات بال؛ لأنهم أخضعوا كل ما استفادوه على مصفاة فكرهم وهذبوه ونقحوه، وحددوا جيّدًا ما يأخذونه وما يطرحونه، فلو فعلنا مثلهم اليوم سنصل إلى ثراء معرفي خاص.

من جانب آخر فمن أجل الاستفادة بحقّ من المصادر الأساسية القيمة قيمة الكنز فإننا بحاجة إلى سعةِ وجدانٍ تحلق في أفق القلب والروح، وتتعرف على ما يجب التعرّف عليه مما يختصّ بهذا الأفق، وتطّلع على وجهة نظرٍ تكشف عن معاني كتاب الكون، وتستفيد منها وتفسرها، ولكن كم عدد أصحاب هذا الأفق الذين يمكننا أن نشير إليهم اليوم؛ فمنذُ زمنٍ طويلٍ ونحنُ نعاني عند تربية الإنسان من انعدامِ المؤسسات التي تتناول وتخاطب نواحي الإنسان المادية والمعنوية والقلبية والروحية والعقلية والفكرية وغيرها.

أجل، كانت لدينا في فترة ما مدارس تقليدية؛ مناهل للعلم والعرفان، خرّجتْ الكثير من العلماء العظام، لكنها للأسف مع ما بها من جوانب إيجابية إلا أنها فقدت هويتها، ولم تخرج عن النطاق القديم المرسوم لها، ولأنها لم تواكب عصرها فلم تعد تلبي احتياجات المجتمع.. كما فقدت التكايا والزوايا هويتها أيضًا، ولم تعد قواعد ومبادئ أصول الدين وعلم الأصول هي المرجع والأساس، بل أصبح الدين يُفسَّر حسب الأحاسيس والمشاعر والأحداس، والملاحظات الذاتية، وبناء على ذلك انحصر الدينُ في قالب التصوف، ولما آل الحال إلى ما آل إليه قامت الحركات المعارضة في الطرف الآخر بالترويج للمادية والطبيعية، ومن ثمّ ظهر انقسام خطير بين الطرفين اللذين من المفترض أن يكملا ويدعما بعضهما البعض، لدرجة أن البعض قد أخذوا يقلدون الغرب، ووصلوا بالأمر إلى الحد الذي فصلوا فيه الدين عن العلم دون وعي منهم، فكنا نحن من حصد النتيجة؛ ومن أجل أننا انغلقنا على الدنيا، وفصلنا الحياة العلمية عن الحياة الروحية والقلبية في الإسلام، وأعرضنا عن تفسير وتأويل أعظم المفسرين وهو الزمان، وحبَسْنا أنفسنا في دائرة ضيقة؛ كانت النتيجة هي أن يتمزّق الدين ويغدو مجهولًا بيننا.

بناءً على ذلك يمكن القول إنه من المتعذر أن نرجع إلى ذاتيتنا أو أن نفكر بها أو نحلل القضايا وفقًا لمصادرنا الأصلية دون أن يتشكّل حاملٌ ثلاثي أو يحدث اتّحاد واندماجٌ بين المدرسة التقليدية والمدرسة الحديثة، وبين المدرسة التقليدية والتكايا والزوايا، وبين كل هؤلاء وبين نظام وانضباط الثكنة العسكرية.

وفي النهاية أريد أن أتطرّق إلى مسألة أخيرة وهي: إنني على قناعة بأننا إن غرسنا عشق العلم والحقيقة في نفوسنا وعكسناه على أفعالنا، فسنبلِّغ القلوبَ بشكل حقيقي الرسالةَ المتعهدِين بحملها؛ لأن أعظم الدروس وأبقاها أثرًا هي أفعال الإنسان وسلوكيّاته.

أجل، إن أيّ حقيقة نؤمن بها ونتّبعها إذا أردنا تبليغها إلى القلوب فإن ذلك يتطلّب منا إظهارها في مثال حي.. والوظيفةُ الأساسية للكتب والشروح هي إيضاح النقاط التي نجهل تطبيقها، ولكننا اكتفينا بهذه الكتب والشروح وكأنها توضح لنا كلّ المسائل بتفاصيلها، والحال أن القرآن الكريم وهو أقدس الكتب يتلوّى من الهمّ والغم حزنًا على أنه لا يستطيع أن يعبر عن نفسه أو أن يكون مرشدًا لنا؛ رغم أننا نحفظه في جِراب حريري منذ ثلاثة قرون، ونضعه في أعلى مكان في بيتنا، فلو أننا بدأنا نتفاعل مع محتواه ومعانيه وجعلناه روحًا لأرواحنا صار هذا الكتاب حينذاك أعظم الكتب. أجل، حينذاك يمكنكم أن تشعروا فيه بأصوات وأنفاس ما وراء الطبيعة، وتحسون فيه بأنفاس وأصوات الملائكة، ولو حاولتم أكثر لسمعتم هذا وكأنه ينساب من فمه الشريف ﷺ.. ولكن إن لم نطبق الأوامر التي جاء بها الكتاب، وتعسّر علينا فهمه فلن نستفيد منه الكثير وإن كان أسمى الكتب، ولذا يجب أن يرتبط اللسان والشفتان، والقلمُ والكلام، والكلمة والبيان بالقلب، ويخضعوا له.

جلال الدين الرومي:
رجل العشق والحماس المتّزن

سـؤال: أخطأ البعض في أيامنا في فهـم جلال الدين الرومي (١٢٠٧ – ١٢٧٣م)، ووجهوا لمسـلكه انتقادات لاذعة، فهل كان جلال الدين الرومي ومسلكه متطابقين مع الأركان الإسلامية؟

الجواب: نشأت كثيرٌ من الشخصياتِ العظيمةِ على مدار التاريخِ الإسلامي، وبلغتْ بعلمها وعرفانها وعشقها وحماسها وصوتها ونفَسها ما وراء القرون، وكان بعض هذه الشخصيات مثل الإمام الغزالي والإمام الرباني ومولانا خالد البغدادي يحمل من الفطرة النادرة ما يميّزه عن غيره، ولقد كان مولانا جلال الدين الرومي واحدًا من هذه الشخصيات الشامخة في هذا الأفق.. لقد نثرت هذه الشخصياتُ العظيمةُ النورَ على العصور المظلمة فأنارتها، وتأملتْ عصرها ودرسته وحلَّلَته، وحصرت همّتها على القضايا التي كان الناس في حاجةٍ ملحّة إليها.

أجل، لقد أعرض هؤلاء العظام عن جمع المعلومات السابقة وتدوينها في كتب، وشرعوا بدلًا من ذلك في تدبّر العلاقة بين (الإنسان - الكون - الله)، فأحسنوا تقييمها، وقدموا الخطب والمواعظ التي تتماشى مع ظروف عصرهم، وحرروا مؤلفات قيمة بلغ صداها ما وراء العصور.. ومن ثم فلا بد من تناول مولانا جلال

الديـن الرومـي من حيث هذه الخصائص أولًا؛ لأن الحلول التي أتى بها كانت بمثابة ترياقٍ للسموم والآثار السلبية التي راجت في عصره، وإكسيرٍ يداوي حتى أعتى الأمراض المستعصية.

الرومي والانبعاث في "سوغوت"

وإننـا إذا مـا ألقينـا نظـرة عامـة علـى عصـر مولانـا جـلال الديـن الرومـي فسـنجد أن الجيوش الصليبية قد اجتاحت العالم الإسـلامي بغاراتهـا، وخلفـت وراءها العديد من اللوثيـات، وغزا المغولُ العالمَ الإسـلامي، وهيَّؤُوا الفرصة للتمزق والانقسـام والفرقة، ولفّت نيرانُ الفتنة والتمرد كلَّ مكان، حتى تردّى رجال الدولة السلجوقية في حالةٍ من الضعف والوهن، وفقدوا نفوذهم على الشعب، وزحفت كل هذه الأمـور السـلبية حتـى غزت قلب الأناضول، فمـا كان من الرومي إلا أن احتضن الجميع بعمق سـماحته وعظيم تسـاهله، وجعل من نفسه إكسيرًا للتخلّص من مثل هذا الجو المليء بالفوضى والفتنة والفرقة، فهيّأ أرضًا جديدة قابلة للنماء من أجل أمتنا التي برّ ممثلوها الجميعَ بفضـل قيمهـم الإسـلامية وأفقهم الواسـع ذي السـماحة والتساهل، ونتيجـة لهـذا وجـد العثمانيـون الفرصـة سـانحةً للنهوض والاسـتواء في ناحية صغيرة من نواحي الأناضول.

والواقـع أن هـذه الفتـرة كانـت فـي حاجـة أعظـم إلـى مثـل هـذا الوفـاق والاتفـاق، لا سـيما بعد أن تمزقت الأناضول وانقسـمت إلى إمارات مختلفة، واختلفت الأفكار واضطربت العقول، وأصبح الكلّ يغنّي علـى ليـلاه، فـأدرك الرومي هـذه الحاجة، فجمـع النـاسَ حول مفهـومٍ محدّد؛ الأمر الذي أتاح الفرصـة للانفتاح الأول للعثمانيين..

وإنني على قناعة بأن مثل هذا المفهوم الذي يمكن أن نسميه "روح مولانا" كان له الأثر البالغ في النجاحات التي أحرزتها الدولة العلية العثمانية خلال زمن يسير؛ لأن العثمانيين لو لم يكونوا يتعاملون بالرأفة والشفقة في كل مكان توجهوا إليه؛ لما استطاعوا أن يستمرّوا أبدًا، ولتعثّروا مع أول خطوة على طريق الانفتاح على العالم، ولذا يجب أن نعزو بقاء هذه الدولة طيلة ستة قرون -وهو أمرٌ قلّما حظيت به أمة أخرى في تاريخ الإنسانية- إلى جهود وإسهامات الدراويش مثل مولانا جلال الدين الرومي إضافةً إلى ما اتسم به حكام هذه الدولة من الخصائص والمميزات الخاصّة.

وحاصلُ القول: لقد كان مولانا جلال الدين الرومي صاحبَ قلبٍ عظيم يُحلّق عشقًا وشوقًا وينفتح على أفق المعرفة.. هيّأ مناخًا رزح الكثيرون تحت تأثيره، فجاؤوا ودخلوا في حلقته، حتى إن الشاعر الصوفي يونس أمره (١٢٣٨-١٣٢١م) قد جاء من بلاد قاصية، ودخل في حلقة درسه.. لقد حاول الرومي أن يبثّ إلهامات روحه في قلوب الذين التفوا حوله فأنار العصور، وربّى نماذج مثالية.

جذبٌ وانجذابٌ محورُهما العلمُ والمعرفة

ومع ذلك دارت حول هذه الشخصية العظيمة بعضُ القناعات الخاطئة التي ركّز أصحابُها على مفهوم الشفقة والسماحة الذي كان يتعامل به مع الناس، وغضّوا الطرف عن عبادته العميقة وتمسُّكه بالكتاب والسنة، وننوّه بدايةً إلى أن الرومي إن لم يكن متمسّكًا بأركان دينه -كما يدعي البعض- لَلَفظه أهل "قونية" من بينهم، ولَمنَعَهُ الحكام المسلمون من نشرِ أنواره، فضلًا عن ذلك لم يقدح

ممن عاصره من العلماء الكرام في شخصيته، فعلى سبيل المثال السيد صدر الدين القونيوي (١٢١٠-١٢٧٤م) الذي عاش في نفس العصر الذي عاشه الرومي كان عالِمًا كبيرًا شرح الشجرة النعمانية لمحي الدين بن عربي (١١٦٥-١٢٤٠م)، وكتب حاشيةً موسّعةً لتفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (ت: ١٢٨٦م)، وإذا ما أمعنا النظر على حياته ومؤلفاته سنجد أنه لا توجد كلمة واحدة تنال من شخصية مولانا جلال الدين الرومي؛ لأن الرومي إلى جانب تمسُّكِهِ الشديد بأركان الإسلام قد أبان في مسألة احتضان الآخرين عن شفقةٍ ورحمةٍ لا نظير لهما، فلم يقم بأيّ عمل أو فعل يخالف ظاهر الشريعة.

ولكن للأسف الشديد يعتبر البعضُ مولانا جلالَ الدين الرومي رجلًا تنتابه حالةٌ من النشوة والطرب، فيقوم ويلبس تَنُّورَتَه، ويشرع في الدوران المولويّ، وكلما دار شعرَ بمزيدٍ من التلذذ والاستمتاع، ثم يقوم الآخرون من بعده ويأخذون هم كذلك في الدوران، والحال أن المسألة ليست مسألة دورانٍ مجرّدة، بل إن الرومي قد كشف عن نسيجٍ معرفي عظيمٍ بدورانه بين الإنسان والكون والله ﷻ، فأثار بذلك مشاعر العشق والشوق لدى الناس، وفي هذا السياق يقول الأستاذ النورسي رحمه الله معبرًا عن هذه الفكرة: "إن أسمى غاية للخلق، وأعظم نتيجة للفطرة الإنسانية.. هو "الإيمان بالله".. وإن أعلى مرتبة للإنسانية، وأفضل مقام للبشرية.. هو "معرفة الله" التي في ذلك الإيمان.. وإن أزهى سعادة للإنس والجن، وأحلى نعمة.. هو "محبة الله" النابعة من تلك المعرفة.. وإن أصفى سرور لروح الانسان، وأنقى بهجة

لقلبه.. هو "اللذة الروحية" المترشحة من تلك المحبة"[١٩٤]؛ بمعنى أنه ينبغي للإنسان أن يُطبق الإسلام دون نقص أو قصور، وأن يشعر بالإخلاص في كلِّ أعماقه، وأن يسلك طريق معرفة الله بمعرفةٍ نابعةٍ من الوجدان، وأن يجعل الأعمال التي يقوم بها بُعدًا من أبعاد طبيعته حتى يصل إلى الذوق الروحاني والشوق الإلهي؛ فليس بالإمكان الوصول إلى هذا العشق والشوق دون إيمانٍ سليم، وإسلامٍ صحيح، وإحسانٍ قويم، ومعرفة الله ومحبة الله.. فيجب أن نتناول من هذه الزاوية جذب الرومي وتوتره بالعشق والشوق وغياب وعيه.

سماحة كبيرة مقيدة بالأركان الأساسية

من جانب آخر فإن بعض الأقوال التي ذكرها الروميّ من قبيل الشطحيات ودورانه بسبب استغراقه في حالة الجذب، كلُّها أمورٌ متعلقة بالحال والذوق، وناشئة عما يشعر به من حيرة ودهشةٍ وهَيَمان وقلقٍ، فعلينا ألا نقترب من هذا الموضوع إلا ونحن نتحلّى بأعلى درجات الحيطة والحذر، وألا نتسرّع في الحكم على إنسان ما بسبب ما أتى به من أقوالٍ أو أفعالٍ في حال سكره وغياب وعيه.. ومن ثمّ فلا بد أن نضع حسابًا للخصائص التي تتمتّع بها الشخصيات العظيمة مثل مولانا جلال الدين الرومي، وأن نلتمس لهم العذر ونعزو أفعالهم وأقوالهم التي تثير اللبسَ والشبهة إلى محملٍ معقول.

فمثلًا من أكثر الانتقادات التي تُوجَّه إلى الرومي قوله: "تعال تعال، لا يَهُمّ من أنت ولا إلى أي طريق تنتمي، تعال لا يهمّ مَن تكون، تعال ولو كنتَ كافرًا أو مجوسيًّا أو من عبّاد الأصنام، تعال

(١٩٤) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب العشرون، المقدمة، ص ٢٧١.

فلا مكانَ لليأس هنا، تعال حتى لو فسخت توبتَك ألف مرة، تعالَ.. تعالَ..".

وإننا لا ندري تمامًا ما إذا كان هذا القول لمولانا جلال الدين الرومي أو لا، ولكن وإن لم يكن له فللرومي أقوالٌ تعكس مثل هذا المفهوم والمضمون، وأعتقد أن من انتقدوا قوله هذا قد انتقدوه لعدم درايتهم الكاملة بمقصده ونيته، وإنني على قناعة بأنه لا حرج في ذكر مثل هذا القول؛ لأننا إذا ما نظرنا إلى حياة الرومي ومؤلفاته فسنجد أنه يريد بهذا الكلام أن يقول: "لا يهم من تكون، تعال واكتشف جماليات عالمنا، واحظَ بِخُلاصتها".

من جانب آخر؛ فالروميُّ -كما عبر هو عن نفسه- إنسانٌ لم يفكر ألبتة في مخالفة أحكام الدين، فهو يطوف بإحدى قدميه في أصقاع الأرض، بينما تظلُّ قدمه الأخرى راسخةً في مركز دائرة الإسلام.. كان يراعي الدقة البالغة في اتباع الأصول والأركان، ويعتصم بها بشدة، ولذا فمن غير المحتمل أنه ترك فرضًا أو واجبًا أو سنة، وعلى ذلك فليس من الصواب أن ندرس الرومي من خلال علاقته بالآخرين ونغض الطرف عن عمق عالمه الداخلي وصلته بالله تعالى؛ لأن للرومي جانبين؛ أحدهما: أنه كان يعيش حياته في تبعية مطلقة لأحكام دين الإسلام المبين، والآخر: أنه كان يعيش بين الناس، ويبلغهم الدين بكيفيةٍ يتقبّلونها بإخلاصٍ وحبّ، وأظن أن نُقّاده كانوا ينظرون إلى الجانب الثاني فقط، ولا يُعيرون اهتمامًا لعمق عالمه الداخلي.

فلا يزال البعضُ اليوم يقوم بتوجيه الانتقادات إلى أشخاص عُمّرَت قلوبُهم بحبّ الله والإنسانية، وراعوا الدقة الكاملة في طاعاتهم واتباعهم لأركان دينهم، وإلى جانب ذلك انفتحوا على العالم بأسره.

أجل، ينظر البعض إليهم من خلال ما يقومون به من أنشطة حوارية مع الآخرين فقط، فيَحكمون عليهم بناء على ذلك، ويجرّحون فيهم، متجاهلين حياتهم التعبدية وما فيها من أذكار وأوراد وأدعية وتهجّدٍ بالليل، بيد أن الأنشطة الحوارية القائمة على الحبّ والاحترام والسماحة لها أهمية كبيرة في عصرنا الذي انتشرت فيه الأسلحة الفتاكة، وأخذ العالم يشحذ أنيابه لِيَلْتَهِم الآخرين؛ لأننا إن أردنا أن نحطّم التوتر السلبي ونقمع هذا الفوران الطاغي الذي تعيشه الإنسانية اليوم فعلينا أن نستخدم مفتاح الحب السحري، فهو المفتاح الذي يفتح كلّ الأبواب والقلوب ويرسم البسمة على الوجوه..

فضلًا عن ذلك يجب ألا ننسى أننا لا يمكننا أن نبلّغ مشاعرنا وأفكارنا إلى أرواح الناس عن طريق الحِدَّة والوجه العبوس، ولكن بالبسمة الحلوة التي تعلو وجوهنا، من أجل ذلك يجب أن يقابل الناسُ صدرًا رحبًا حتى لا يخشى أحد ألا يجد مكانًا فيه عند إرادة دخوله، وهذا يدعونا إلى التزام المنهج والسبيل الذي كان يتبعه أبطال الإرشاد الذين جعلوا القرآن والسنة مرشدهم ودليلهم من أمثال مولانا جلال الدين الرومي، والإمام الرباني، ومولانا خالد البغدادي، وبديع الزمان سعيد النورسي، فإن وجدنا اختلافات

فرعية فيما بينهم نظرًا لظروف عصرهم فلا يغيب عنا أنهم كانوا يقومون ويقعدون بالحبّ، ويجيشون بالمرحمة، ويبثون الشفقة فيمن حولهم، ويفتحون صدورهم للجميع، فكانوا بلا يد لمن ضربهم، وبلا لسان لمن سبهم، وبلا قلب لمن كسر خاطرهم.. ومن ثم فإن الوظيفة التي تقع على عاتقنا هنا هي أن نقتدي بهذه الشخصيات التاريخية، وأن نتضامن فيما بيننا، وأن نستخدم القوة الخفية للإنسانية في صالح الإنسانية.

الدروس المستفادة من غزوة حنين

سؤال: يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ (سورة التَّوْبةِ: ٩/٢٥)، فما الدروس المستفادة من هذه الآية؟

الجواب: بعد فتح مكة انضمَّت بعضُ القبائل التي تقوم بأعمال السلب والنهب إلى قبيلتي هوازن وثقيف اللتين أخذتا تعدان العدة للإغارة على المسلمين، فلما سمع سيدنا رسول الله ﷺ -وهو رجل دولة من الطراز الأول وقائد عبقري لا مثيل له- باستعداداتهم تحرّك على الفور حتى يُفاجِئهم قبل أن يفاجئوه؛ فيكسر شوكتهم ويوهن عزيمتهم، ويُحكم قبضته عليهم قبل أن يتهيؤوا ويستجمعوا قواهم، وبذلك تنتهي الغزوة بأقلّ الخسائر، ولا تنكسر قلوبهم أكثر وأكثر.. فضلًا عن ذلك فقد دخلت أعدادٌ هائلةٌ من هذه القبائل في الإسلام.

والحقُّ أن النبي ﷺ قد بدأ هذه السياسة الإستراتيجية في صلح الحديبية الذي انتهى بفتح مكة؛ فرغم شروط الصلح المُجحفة بحقِّ المسلمين إلا أنّ النبي ﷺ قبِلَها -وهو ذو العزة والكرامة الأعلى من السَّبْع الطباق- حتى يكسب قلوب هؤلاء الناس في جوٍّ من السِّلم والهدوء، ولكن بعد ذلك نقض القرشيون الصلح بأنفسهم، فجهَّز مفخرة الإنسانية ﷺ جيشًا عرمرمًا، وزحف به إلى مشارف مكة،

وكان يستطيع -إن أراد- أن يسحق أهل مكة بكل سهولة على اعتبار أن هذا هو منطق القوّة، غير أنه لم يفعل ولن يفعلَ صلوات الله وسلامه عليه؛ لأنه لو جعل سفك الدماء وإزهاق الأرواح سبيله في دخول مكة لسبَّبَ هذا جرحًا غائرًا في قلوب أهلها، ومن المحتمل أن يمثل هذا الأمر غصّة دائمةً في نفوسهم.

حُنين: الامتحان الصعب

ولنرجع إلى موضوعنا الأساس ونقول: تحرّك الرسول ﷺ إلى حنين بجيشٍ قوامه اثنا عشر ألفًا، من بينهم ألفان معظمهم من الشباب حديثي العهد بالإسلام، فراودت هؤلاء الشباب فكرة: "لن نُغلَبَ اليوم من قلة، وكما فتحنا مكة أمس بإذن الله، فسنسحق أيضًا هوازن وثقيف".

وفي هذا الصدد أنوّه على الفور بأنني أعيش دائمًا حالة روحية تُلْزِمُني تزكيةَ الصحابة الكرام رضي الله عنهم والإعراضَ عن النيل منهم ومنعَ أيِّ شخص من فعل ذلك، ورؤيتَهم على أنهم من المصطفين الأخيار عند الله تعالى؛ لدرجة أنني أحذِّر من استخدام أيِّ قولٍ وإن كان بسيطًا يَشِي بالنيل منهم، ولكن ربما لم يستطع بعض الصحابة في هذه الواقعة أن يكون على المستوى الذي يتناسب مع منزلتهم ومكانتهم والذي ارتضاه الله تعالى لهم، فأراد الله تعالى أن يوجههم إلى ما تتطلبه منزلة المقربين، ولكن هذه مسألة بينهم وبين الله تعالى، لا نستطيع أن نتجاوز فيها، وإلا نكون قد تخطينا حدودَنا وأسأنا أدبَنا.

بعد أخذِ هذه الملاحظة بعين الاعتبار لنحاول أن نفهم عن قربٍ الحالةَ الروحية التي كان عليها سادتنا الصحابة رضي الله عنهم عند توجّههم إلى غزوة حنين.

بدايةً كان الجيش الإسلامي المتجه إلى حنين هو أكبر جيش يواجِه به المسلمون عدوّهم، فرغم أن الظروف لم تكن في صالحهم في حروب عديدة انعدم فيها توازن القوى إلا أنهم كانوا يتغلبون بفضل الله وعنايته على عدوّهم وينتقلون من نصرٍ إلى آخر، والآن ينطلقون وهم مفعمون بالأمل لكسرِ شوكة عدوهم، -أرواحنا فداء لهؤلاء الصحابة العظام! وندعو الله تبارك وتعالى أن نكون قائمين دائمين على طريقهم!- وفي قول الله تعالى "لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّٰهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ" تذكير لهؤلاء الصحابة بأنهم كانوا مظهرًا لنصر الله تعالى في مواطن كثيرة مثل بدر وفتح مكة، وهنا ومن قبيل براعة الاستهلال نجد أن الحق سبحانه وتعالى يذكّرهم بظفرهم بالتوجه الإلهي إليهم أيضًا يوم حنين، وبالحالة الروحية التي كانت تقتضي توافقًا مع أفق المقربين، ولكن أنوه مرة أخرى إلى أنه يجب أن ننظر إلى أخطائهم تلك من قبيل: "حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ"، فإذا كان الإنسان يجازى على أعماله بعد أن يهمّ بها فهؤلاء الفضلاء قد يجازَون على أعمالهم بمجرد أن تَرِدَ على خاطرهم.

ثم يقول الحق تعالى: "وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ"، وقد استعمل القرآن الكريم المقولة نفسها في آية أخرى عند حديثه عن كعب بن مالك وصاحبَيه الذِين تخلّفوا عن غزوة تبوك، وهذه المقولة يستخدمها الإنسان عندما لا يجد في بلدةٍ ما لا يأمله ويرجوه،

وهـذا مـا وقـع بالفعـل للصحابـة الكـرام ﵃ فـي ذلـك اليـوم، فلقد تعرّضوا لهزّة مؤقّتة حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت.. وأخيرًا يشيرُ الحـقُّ ﷻ إلـى النقطـةِ التـي آل إليهـا الأمـرُ فيما بعدُ قائـلًا: "ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ".

ولكن رغم كل هذا أنزل الله سكينته على رسوله وصحابته كما جاء في الآيـة التاليـة، وبنـاءً علـى ذلـك شـعروا بالنـدم فـي قلوبهم، فتهيؤوا واستجمعوا قواهم من جديد حتى كان النصر حليفهم بفضلٍ من الله وعنايته.

اختلال التوازن بسبب نشوة النصر

أما بالنسبة لما يُستفاد من هذه الحادثة التاريخية كما جاء بالسؤال فهو:

كمـا أيَّـد الله ﷻ برعايتـه وعنايتـه الإلهية سـادتَنا الصحابـة الكرام ﵃، ونَصرَهـم علـى أعدائهـم فقـد يمـنّ علـى مسـلمي اليـوم بمزايـا وأفضال متنوّعة، المهم هو أن يحتفظ المسلمون بمستواهم حينذاك وأن ينسـبوا كل ما يجري إليه ﷻ، بل عليهم أمام كل نجاح تدخّلت فيه إرادتُهم أن يُمزقوا حجابَ الأسباب ويسحقوه بأرجلهم ويدركوا أن وراء هـذه الأسـباب مسبّبَ الأسـبابِ ﷻ، ويذعنـوا قائليـن: "كل شيء منه جل وعلا".

قـد تبـدو النجاحـات والانتصـارات أمـورًا جميلـة يهلـل لهـا أهل الدنيـا وأهـل الغفلـة وأهـل الضلالـة وتحظـى بـكل تقديـر وتبجيـل مـن جانبهـم، ولكـن يجب علـى المؤمن ألا يسـمح لهـذه النجاحات أن تُطيِّر صوابه وتكدِّر بصره وتُنسيه عبوديّته لربه ﷷ.

أجل، علينا مهما حقّقنا من نجاحات أن نرى أنفسنا عبيدًا لله يلفّ الطوقُ أعناقنا، فلو اعتبرنا أنفسنا عبيدًا له تخلّصنا من رقّ العبودية لغيره، فالخلاصُ من رِبْقة نظام الطبقات أو الطوائف الذي وضعه الآخرون وفقًا لأهوائهم يعني الخلاص في الوقت ذاته من أَسْرِ العبودية للعبد؛ لأن مَن يستنكف أن يصير عبدًا لله يصير عبدًا لأشياء أخرى؛ فمن الناس من تأسره الشهوة أو البهيمية أو المنفعة أو الشهرة أو القوة، ويلجؤون إلى كلِّ صنوف الظلم والطغيان اعتقادًا منهم بأن القوة قادرةٌ على حلّ كلِّ شيء، وهؤلاء جميعهم يمكن أن نعتبرهم أسرى، بل إنكم لو أقسمتم بالله بأن من يستنكف أن يكون عبدًا لله فهو أسير فلن تكونوا قد حنثتم في يمينكم؛ لأن أطواق الأسر تلفّ أعناق هؤلاء زيادةً ونقصًا.

أجل، إن الغافلين من الناس يعْزون كلَّ الجماليّات إلى الأفراد والهيئات ويرفعونهم إلى عنان السماء، وعلى ذلك قد يتدلَّل ضعافُ النفوس من حيث الشهرة والتصفيق، ويتجاوزون حدودَ الأدبِ واللياقة، وقد يتردّون إلى دركة أن يعتبروا ما ليس لهم حقٌّ فيه حقًّا مكتسَبًا لهم.. ومن التردي أيضًا أن ينسى الإنسان أن الفضائل التي حظي بها إنما هي من الله تعالى، ويدّعيها لنفسه.. فمثلًا قد يغترّ الإنسانُ بانفعال الناس بوعظه وحديثه، ويعزو ما هم فيه من انفعالٍ وما غرقوا فيه من بكاء إلى طلاوة حديثه، فيدنّس بذلك العمل الذي يقوم به، والحال أن القلوب بيد الرحمن ﷻ، وفي الوقت ذاته فنعمةُ الفصاحة والبيان إلى جانب كونها لطفًا فهي ابتلاءٌ من الله تعالى، ولا تنسوا أن الشهرة ابتلاءٌ كذلك أيضًا، فكلَّما هلَّل الناسُ لصاحبها وعظّموه نسيَ قدرَ نفسِه، وادّعى لها ما لله ولنبيّه وقرآنه... اللهم احفظنا جميعًا من مثل هذا البلاء.

حاصل القول: إن كنتم تريدون إقامة صرح روحكم مرة أخرى فعليكم أن تعلموا أن هذا لا يتأتى بالإمكانيات الدنيوية ولا بالقوة والجبروت، فكما يقول الشاعر الإسلامي محمد عاكف:

يجب على الإنسان أن يعتمد على الله في كل آن

ويتمسك بالسعي في كل زمانٍ ومكان

ويخضع للحكمة دائمًا ما دامت الأكوان

وبناءً على هذه الفكرة إن اعتمدتم على منطقية كتاب ربكم، ولم تدخلوا في جدال مع غيركم، وحاولتم أن تتحدّثوا عن الحق والحقيقة وتبلغونهما للناس فسيرشدكم الله إلى طريق الصواب، ويُنطِق ألسنتكم بالحقّ، وفي النهاية ييسّر لكم كل مستحيلٍ وعسير، ويهوّن عليكم مصاعب الطريق.

الانتحار والعمليات الانتحارية

سؤال: أصبحت ظاهرة الانتحار آفة اجتماعية في أيامنا، فما نظرة الإسلام لهذه الظاهرة، وما الأسباب والعوامل التي تسوق الإنسان إلى مثل هذه الطامة الدنيوية والأخروية؟

الجواب: رغم أن القرآن الكريم لم ينصّ صراحة على مسألة الانتحار فإن حكم الآيات المتعلقة بقتل النفس ينطبق أيضًا على قتل الإنسان نفسه؛ لأن كليهما كبيرة، والله تعالى يقول: ﴿**مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٣٢/٥)، وبذلك عدّ ربُّنا سبحانه وتعالى قتلَ النفسِ جنايةً تعادلُ قتلَ الناس جميعًا.

من جانبٍ آخر فإن حفظ النفس من الأصول الخمسة التي كُلِّف الإنسان بحفظها، وبعد أن أدرجها الإمام الشاطبي (١٣٢٠-١٣٨٨م) بنظامٍ معيّنٍ في كتابه "الموافقات" قال: "اتَّفَقَتِ الْأُمَّةُ -بَلْ سَائِرُ الْمِلَلِ- عَلَى أَنَّ الشَّرِيعَةَ وُضِعَتْ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَى الضَّرُورِيَّاتِ الْخَمْسِ وَهِيَ: الدِّينُ وَالنَّفْسُ وَالنَّسْلُ وَالْمَالُ وَالْعَقْلُ"[١٩٥]، فهنا يأتي حفظ النفس في غُرة هذه الضروريات الخمس، وانطلاقًا من هذا فإن الإنسان مكلفٌ بحفظ نفسه حفظَه لدِينه ودولته وعرضه وشرفه

(١٩٥) الشاطبي: **الموافقات**، ٣١/١.

واستقلاله وماله، فالنفس شيءٌ جديرٌ بالحفظ، وحفظها له أهميةٌ بالغةٌ لدرجة أنه إن حدث واعتدى عليها أحدٌ جاز للمعتدَى عليه أن يدافع عن نفسه في ظروفٍ معينة حتى وإن اضطرته الظروف أن يقتل المعتدي.

خيانة الأمانة

فضلًا عن ذلك فالنفس أمانةٌ أودعها الله للإنسان؛ بمعنى أن الإيمان والتديُّن وخدمة الدين كلّها أمانات من الله للإنسان، والنفس التي تُعدّ مطيةً أو أساسًا تنبني عليها كلّ هذه الأمانات أمانةٌ أيضًا؛ لأنه إذا عُدِمت الحياة فلا يمكن تفعيل هذه الأمور في الحياة.. ومن ثَمّ فإن إنهاءَ الإنسان حياته بإرادته يعني الإجهاز على المطية المنوطة بحمل تلك الأمانات التي ذكرناها سلفًا.

فالإنسان كالجندي الذي يؤدي خدمته، ويوكَل إليه بمهمةٍ معينة، ولذا يجب على الإنسان أن يصبر ويتحمل حتى اللحظة التي يسترد الله فيها أمانته، وكما أن الجندي لا يجوز له أن يغادر سَريّته دون تصريحٍ من قائد السَّرية، وإن فعل عُدّ هاربًا من العسكرية، فكذلك لا يجوز للإنسان أن يترك وظيفته الحياتية دون أن يحصل على تصريحٍ من صاحبها، فإن ترك وظيفتَه عُدّ فارًّا وهاربًا أيضًا، وحبطت كلُّ أعماله التي قام بها طوال حياته.

وما دون الانتحار مثل تمني الإنسان الموت لضرٍّ أصابه يعدّ جريمة أيضًا؛ لأن مثل هذا التمني بمثابة عصيان وتمرد على قضاء الله تعالى وقدره، فيجب على من صدر منه سهوًا ما يدل على التمرد على قدر الله تعالى أن يمضي إلى غرفته وينفردَ بنفسه ويستغفر الله

على ما اقترف من ذنب وكأنه ارتكب كبيرة من الكبائر، وإذا كان تمني الموت الذي هو ما دون الانتحار منهيًّا عنه فما بالُنا بالانتحار؛ لأن محاولة الإنسان أن يقتل نفسه دون أن يحصل على تسريحٍ من سيّده يُعتبر سوءَ أدبٍ ووقاحة مع الله تعالى؛ لأن صاحب الكلمة الأخيرة في هذا الأمر هو الله ﷻ، فهو الذي جاء بنا إلى الدنيا، وهو الذي سيسرحنا منها إلى الآخرة، فلا يحقّ لبشرٍ أن يتدخّل في هذا الموضوع.

والواقع أن الإنسان قد يموت وهو يدافع عن نفسه ودينه وماله، وهذا الموت وإن بدا فيه التدخل البشري المباشر إلا أنّه ارتحل إلى الآخرة في إطار أوامر ربه ﷻ؛ لأن النبي ﷺ يقول في حديثه الشريف: "**مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ**"(١٩٦)، وعلى ذلك فالموت في مثل هذه الحالات يعني أن التسريح والتذكرة قد مُلِئا وتمّ الختم عليهما من قبل الله تعالى.

وبعض الفقهاء يعتبر المنتحر كالمرتد، فلا يُصلّى عليه، ولكن قد يكون هذا الإنسان أصيبَ بحالة من الجنون المؤقّت فانتحر وهو في هذه الحالة، وإنسانٌ كهذا لا يعي ما يفعله لأنه فَقَدَ توازنه العقلي، ولذا فإن المنتحر أيًّا كان سبب وخلفيّة انتحاره فعلينا أن نحسن الظنّ به لأننا لا نعرف حقيقة أمره، وأن نقوم بتجهيزه وتكفينه والصلاة عليه والدعاء له كما أمرنا دينُنا الحنيف.

---

(١٩٦) سنن الترمذي، الديات، ٢٢؛ سنن النسائي، تحريم الدم، ٢٣.

وأحيانًا قد تسوق الإنسانَ إلى الانتحار همومٌ وآلامٌ لا يقدر على تحملها، مثل ما وقع في عصر صدر الإسلام، حيث يروى أن رجلًا يُسمى "قزمان" أثكلته الجروح يوم أُحد، فلم يتحمل، فأخذ سيفه وغرزه في صدره وتحامل عليه حتى قتل نفسه، فلما ذُكِر هذا لسيدنا رسول الله ﷺ قال: "**هُوَ فِي النَّارِ**"[١٩٧].. تأملوا؛ رجلٌ حارب مع رسول الله ﷺ، وكان على وشك أن يحظى بالشهادة من جراء جروحه الغائرة، ولكنه لم يتحمل الألم، وتعجّل موته، وقتلَ نفسه، فخسر هذا البائسُ في موضعٍ هو أدعى للكسب.

أجل، لقد أصدر قراره قبل قرار الله، وملأ شهادة تسريحه قبل وقتها، فكان جزاؤُه جهنم.

بيد أن على المؤمن أن يتجمل بالصبر في مثل هذه المواقف التي يتعرض لها، وأن يتحمل مهما كان حتى تأتي اللحظة التي يدعوه الله فيها إلى جواره ﷻ، وأن يموت وفق مراد الحق سبحانه؛ وبعبارة أخرى: عليه أن يمتثل لمراد الله حتى عند موته، والآيةُ الكريمة التي تقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ١٠٢/٣) فيها إشعارٌ بالتحذير من قتل النفس؛ لأن الانتحار ناشئٌ عن عدم القدرة على تسليم الأمر لله ﷻ، بيد أن الآية تقول: "وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ"؛ فضلًا عن أن إنهاء الإنسان على حياته فيه تضييعٌ لماضيه كله، واختتام حياته على أمرٍ جدّ خطير.

---

(١٩٧) صحيح البخاري، الجهاد والسير، ٧٥؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٧٣/٢.

العمليات الانتحارية: الجناية المضاعفة

ظهر في أيامنا الحالية ما يُسمّى بالعمليات الانتحارية، بدأت أولًا في الغرب، ثم انتشرت بعد ذلك -مع الأسف- في بعض الدول الإسلامية، والقائمون بهذه العمليات يمنحونها غطاءً شرعيًا، ويصفونها بـ"الانتحار المشروع"؛ بعبارة أخرى يحاولون أن يمنحوا العمليات التي يقومون بها في سبيل أيديولوجياتهم قيمةً ومعنى اسميًا، معتقدين أنهم بذلك يحمون دينهم وتديّنهم!، بيد أننا عندما ننظر إلى مثل هذه العمليات نجدها لا تختلف عن الانتحار الذي تحدثنا عنه آنفًا، بل يمكن القول إن مثل هذه العمليات تُعتبَر جريمةً مضاعفة؛ لأن هؤلاء الجناة الغافلين الذين لا يمتّون للإنسانيّة بصلةٍ ولا يعرفون عن دين الله شيئًا لم يكتفوا بأن يتدحرجوا في دركات جهنم بسبب قتلهم لأنفسهم، بل قتلوا الكثير من الأبرياء أيضًا ولذا سيحاسبهم الله تعالى فردًا فردًا على تلطُّخِ أيديهم بدمِ هؤلاء الأبرياء مسلمين كانوا أو غير مسلمين أطفالًا أو شبابًا أو شيوخًا؛ لأن الإسلام يوجب على أتباعه سواء في السلم أو الحرب الالتزام بقوانين وقواعد معينة، وكما لا يجوز للإنسان أن يُعلن الحرب من نفسه ويقتل الآخرين في حال الصلح، فكذلك لا حق له في أن يقتل الأطفال والنساء والشيوخ من الأعداء حتى ولو في حالة الحرب.

وعلى ذلك فأيًّا كانت الفكرة التي اعتمدت عليها هذه العمليات الانتحارية فليس بالإمكان التوفيق بينها وبين الإسلام، وقد سلّط سيدُنا رسول الله ﷺ الضوءَ على هذه المسألة حينما قال في حديثه الشريف: "**لَا يَزْنِي الْعَبْدُ حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَقْتُلُ**

وَهُوَ مُؤْمِنٌ"[١٩٨]، وهذا يعني أن القاتل لا يوصف بالإيمان حين ارتكابه فعل القتل؛ بمعنى آخر لا يمكن أن نطلق لفظ المسلم على الإنسان الذي يرتكب هذه الجرائم، وهو على تلك الحالة التي يحمل فيها مثل هذه الأفكار والخطط الهدّامة.

أجل، إذا ما وضعنا عدسةً على ذلك القاتل فلن تظهر لنا صورة تتوافق مع الإطار الإسلامي، ولذا نؤكّد مرة أخرى على أنه لا يمكن التوفيق ألبتة بين الإسلام وبين ما يقوم به هؤلاء الجناة من إزهاقٍ لأرواح الأبرياء من خلال استخدامهم للأحزمة الناسفة، أيًّا كانت الدولة أو الحزب الذي ينتمون إليه، فهؤلاء لن يُكتب لهم الفلاح في الآخرة، ولا جرم أن بابَ الله مفتوحٌ للجميع، فيجوز لهؤلاء الذين عميت أبصارهم وارتكبوا هذه الجرائم الكبيرة أن يتوجّهوا إلى ربهم بالتوبة والاستغفار، فالله تعالى وحده هو مَن يعلم كيف سيكون حال هؤلاء في الآخرة.

من جانب آخر فمن المسلّم به أن مثل هذه العمليات الانتحارية من شأنها أن تسوّد وجه الإسلام الساطع وتدنّس محياه اللامع؛ لأن هذه الجرائم التي تصطبغ بصبغة الإسلام وتعطي انطباعًا بأنها في سبيل الدين ينسبها مَن لا علم لهم بالإسلام وأصوله إلى الإسلام؛ ومن ثمّ سيكون من العسير جدًّا على المؤمنين أن يصحّحوا مثل هذا الفهم الخاطئ.

أجل، إن تصحيح هذه الصورة الخاطئة عن الإسلام في العقول سيتطلّب سنوات طويلة، ويمكن القول بأن هذه العمليات الانتحارية

(١٩٨) سنن النسائي، القسامة، ٤٨، ٤٩.

أيًّا كانت ماهية منفّذيها هي جرائم مضاعفة بل مكعبة.. ذات يوم جاءني بضعة أشخاص ممن لا يعرفون شيئًا عن وجه الإسلام الحقيقي ووجهوا لي هذا السؤال: "هل حبُّ الجنة يدفع المسلمين إلى أن يكونوا انتحاريين؟"، فأجبتهم قائلًا: "لو كان هؤلاء يتحركون في هذه العمليات من هذا المنطلق فقد أخطؤوا الفهم والتقدير، لأن من يتورّط في مثل هذا الأمر مأواه جهنم وبئس المصير".

حاصل القول إن تصوير هذه الجرائم البشعة التي يسمونها بالأعمال الانتحارية على أنها في سبيل الدين يحمل أبعادًا خطيرةً، من أجل ذلك أذكّر مرة أخرى بأن هذه العمليات أيًّا كان مقصدُها وصورتُها فهي أفعالٌ منكرةٌ لا يحبها الله تعالى ولا يرتضيها، ولا يمكن التأليف بينها وبين الإسلام.

حبّ الأمة بين النظرية والتطبيق

سؤال: ما المعاني التي يحملها مفهوم حبّ الأمة نظريًّا وعمليًّا؟

الجواب: منذ القدم وهناك من يُحمّل كلمة "حب الأمة" مفاهيم ومعاني مختلفة، غير أنها تعني في رأيي تلك العاطفة التي يشعر بها الإنسان تجاه مَن يشاركونه همومه وأحزانه وأفراحه وأتراحه، ويقاسمونه منظومةَ قيمِهِ عبر التاريخ، وينهلون معه من جذور روحية ومعنوية واحدة؛ وتُعتَبَرُ عوالمُهم الفكرية عبارة عن عصارات رشّحتها هذه القيم لأنهم في النهاية أبناء مصيرٍ واحد يمتد إلى وتيرة تبلغ آلاف السنين، ولقد استطاعت أمتنا خلال هذه الوتيرة أن تجد في الإسلام الحنيف ما تنشده، وصارت تسمع فيه صوت روحها وقلبها، واكتشفت فكرة الخلود، فأقامت توازنًا بين الدنيا والعقبى، وسنحت لها الفرصة للانفتاح على عوالم مختلفة.

بعبارةٍ أخرى لقد وضعت أمّتنا التي أقامت دولًا مختلفة عبر التاريخ؛ باعتناقها الإسلام الحدَّ لبحثها وتنقيبها، وبلغت مستواها الحقيقي؛ وفي هذا يقول ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (سورة الْمَائِدَةِ: ٣/٥)؛ بمعنى أن الدين قد وصل إلى الكمال الحقيقي برسالة القرآن ودعوة الرسول ﷺ، وكذلك وصلت أمتنا إلى قوامها الحقيقي بتشرّفها باعتناق الإسلام.

منظومة القيم التي عالجها الدين

فضلًا عن ذلك فقد نُقِّيت التقاليد والعادات والأعراف التي ورثناها منذ القدم ورُشِّحت وعُولجَت بمحكمات آي القرآن والمعايير الإلهية، وصارت جزءًا من طبيعة أمتنا، من أجل ذلك لا بد من النظر إلى ما ذكرناه على أنه قيمٌ يسمح بها الإسلام، وكما هو معلوم فإن الأدلة الشرعية تنقسم في الإسلام إلى أدلة شرعية أصلية وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وأدلة تبعية وهي الاستصحاب والاستحسان والمصلحة وسد الذرائع، وقد اعتبر البعضُ العرفَ من الأدلة التبعية التي تأتي في الدرجة الثانية؛ لأن العرف هو منظومة القيم التي لا تتعارض مع المصادر الرئيسة للتشريع، وهو ما عدّه الحق تعالى معروفًا وأمر بمراعاته فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (سورة الأَعْرَافِ: ١٩٩/٧)، أما العناصر الرئيسة التي تشكل ماهية أمتنا فهي جميع تلك العصارات التي رشحت من جذورنا الروحية والمعنوية.

العنصرية والنفاق

والأمة يُشكّلها أفرادها؛ وهم الذين يتشاركون في الثقافة والعقيدة والأفراح والأتراح والظلم والجور ويعيشون معًا منذ عصور، ولكن للأسف الشديد أخذت الأفكار والسلوكيات التي يشوبها النفاق تتحكّم في العالم الإسلامي في العصور الأخيرة، والأحرى في رقعةٍ بائسة من العالم اسمها الدول الإسلامية؛ حيث حاول البعض ممن تتناقض أفعالُهم مع أقوالهم تمزيقَ وتشتيت شمل أفراد الأمة بما أتوا به من أيديولوجيات غربية، فأساؤوا لهذه الأمة أيما

إساءة، وكانوا أشدَّ خطرًا على المسلمين من الكفر المطلق؛ لأنهم يمثلون الكفر المطلق، وينكرون وجود الله تعالى، ويردّون كل شيء إلى الطبيعة، فهؤلاء وإن كانوا قد لمعوا فترةً ببريقهم الكاذب فإنهم لا شك سيضمحلون في نظر الأمة.

ولكن من الصعب إلى حد ما أن تضمحل وتتلاشى فكرةُ النفاق التي تحافظ على وجودها منذ زمن بعيدٍ بارتدائها بعض الأقنعة، ولذا من الممكن القول إن الأَرَضَة الفالجة التي تسلطت على العالم الإسلامي منذ عصور هي أَرَضَةُ النفاق، إذ إنها تظل تنخر في جذر المجتمع حتى تمص دمه، وتقطع أوردته، وهذا فإن مفهوم حب الوطن هو أحد المفاهيم التي تستغلها شبكات النفاق هذه، حيث تعبّر عن هذه المفاهيم بعباراتٍ برّاقة مُغَالِيةً لدغدغة مشاعر الناس وإثارة انفعالاتهم، بغية تمزيق المجتمع وإفساد أفراده، فإن أفرادها وإن بدوا بأفعالهم وتصرفاتهم وكأنهم يكافحون في سبيل مستقبل المجتمع إلا أنهم ينشدون من وراء ذلك تحويل المجتمع إلى ساحة حرب.

ولنوضح هذا الأمر بمثال: جمَعَنا القدرُ في السبعينات والثمانينات في زنزانة واحدة مع أناسٍ من شتى الجبهات، وقد تعرفتُ في هذه الجبهات على شبابٍ أُشهد الله أنهم مخلصون من رأسهم حتى أخمص أقدامهم، غير أنهم خُدعوا فحملوا السلاح ونزلوا إلى الشوارع ظنًّا منهم أنهم يكافحون عن أفكارهم، ومن المؤسف أن حميّة القتل والثأر قد أُثيرت فيهم حتى صيَّرَتْهم في النهاية قتلةً دمويّين، بيد أنك إن نفذتَ قليلًا إلى العالم الداخلي لهؤلاء

الشباب وشققتَ عن قلوبهم لَتبيّن لك أن قلوبهم تنبض بحبّ هذه الأمة، ولكن شبكات النفاق التي أنشأتها التيارات والأيدولوجيات المختلفة قد أجّجت نار العداوة بين هؤلاء الشباب المخلصين.

وفي الواقع فإن شبكات النفاق يرجع أصلها إلى الثقافة الفارسية؛ إذ كانت عداوة الفرس لسيدنا أبي بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما سببًا في ظهور أوّل شبكة نفاق في الإسلام، وفي إلقاء أول بذرة نفاق في أرض الإسلام، وبعد ذلك اتخذتْ فكرةُ النفاق أبعادًا وألوانًا ولغاتٍ مختلفةً على يد الأشرار والفجار.

وكانت فكرة العنصرية نتاجًا لهذه الفكرة، ويحدثنا الشاعر التركي "رضا توفيق بُولُوكْ بَاشِي" عن فترة انهيار الدولة العثمانية وتسلل الأفكار العنصرية إليها فيقول في كتابه "استمدادًا من روحانيات السلطان عبد الحميد خان":

خالط الفسقُ القوميةَ فكان ما كان

وصار رداءُ الدين موطئًا للأقدام في كل مكان

فبدت روحُ الترك وكأنها

عاصيةٌ لربها ونبيها

ومن ثم فليس بالإمكان فصل فكرة (الله-الرسول-القرآن) عن فكرة حبّ الأمة لدينا، ليس هذا فحسب بل لا يمكننا أن نوفق بين حبّنا لأمتنا وبين التصرّفات والسلوكيات التي تستهين بهذه الأفكار العالية، فمثل هذه القيم السامية لا يليق أن نستخدمها في حواراتنا ومناقشاتنا العادية، وعلينا أن نعظّمها ونقدّرها، فنحن أصحاب هذه الأخلاق والقيم العظيمة.

أن يخالط حبّ الأمة اللحمَ والعظمَ

وبما أن مراعاة هذه القيم يترتب عليها بقاءُ الأمة ودوامها، ونهوضها من جديد، فإن تبوُّأها المكانة اللائقة بها في التوازن الدولي، وإمساكها بدقّة سفينة الإنسانية مرة أخرى مرهون بالأخذ بمنظومة هذه القيم وإعلاء الفضائل الإنسانية.

أجل، إننا على ثقة بأنه في ظلّ هذه القيم سيتبدى المعنى الحقيقي للحقّ والحقوق، وتسكُن الدماء والعبرات، وسيتحقق العدل إما بمعناه الحقيقي أو النسبي، وستنعم الإنسانية بالطمأنينة الحقة من جديد على يد أهلها، والآن أَلَا يفكر من يؤمن بهذه الفكرة في تبليغ منظومة هذه القيم إلى الدنيا بأسرها!؟

هنا تتبدى فكرة حبّ الأمة نظريًّا وعمليًّا، وقناعتنا في ذلك أن الإنسان بالعمل يمكنه أن يجعل الإيمان جزءًا من طبيعته، يقول الفيلسوف الألماني كانط: "إن معرفة الله ليست من اختصاص العقل النظري الخالص بل من اختصاص العقل العملي الأخلاقي"، ويمكن التوفيق بين هذه الفكرة وبين المنطق الحسي لـ"برغسون" أيضًا، ولأهمية هذه المسألة ركز الأستاذ النورسي رحمه الله على حدس الوجدان، وأكد على ضرورة أن يشعر الإنسان بفقره وعجزه، وأن يتجه إلى ربه في جميع أموره.

وعلى نفس الشاكلة فإن حبَّ الأمة النظري البعيد عن التطبيق مجرّد ثرثرة وتسلٍّ بالملاحم الحماسية ليس إلا، بيد أن المهم هو العمل دون توقف، والسعي دون تشوُّف لأيِّ غرض، فمثلًا على الإنسان أن يقول: لم لا أجعل لغتي لغة عالمية؟ لا حرج في أن تكون

الإنجليزية لغة عالمية، ولكن لم لا تكون لغتي -سواء كانت عربية أو تركية أو فارسية- لغةً عالمية يتحدث الناس ويتفاهمون بها فيما بينهم؟ ولكن كما قال المفكر الإيراني "علي شريعتي" عن اللغات العربية والتركية والفارسية الدارجة اليوم: لا سبيل إلى تحصيل العلم بلغة ضيقة محدودة فقيرة ضحلة مثل هذه اللغة، ومن ثم فلم لا نطور لغتنا ونثريها ونجعل منها لغة عالمية من خلال استغلال الكلمات المحلية، والاستفادة من القصص والروايات، وإحياء الكلمات التي بقيت حبيسة المعاجم؟! فلو كان حبُّنا لأمتنا عمليًّا فسنحرص على تطوير لغتنا الجميلة، وسنسعى إلى تعريف العالم كلِّه بمشاعرنا الذاتية، وقيمنا التاريخية.

والآن يبذل إخوانُنا في الخدمة أنشطَتهم التعليمية بما يواكب عصر العولمة، فنتمنى لتركيا أن يزدهر اقتصادها وتزداد إمكانياتها ويصل عدد المدارس التي افتتحها إنساننا إلى ألفي مدرسة.

وفي هذا الصدد لزامًا علينا أن نُنوّه بما فعله إنساننا الذي بذل كل ما يملك من شعور الوفاء، وحقق بما لديه من إمكانيات خدمات جليلةً في الداخل والخارج، فإن أغفلنا هذه الخدمات فقد أنكرنا الجميل والمعروف.

أجل، ومن الملاحظ أن الوجدان العام قد اعتنى عناية كبيرة بهذه الفعاليات الإيجابية وغمره الفرحُ والسعادة؛ ندعو الله تعالى ألا يعترضنا مانعٌ، ولا يقف أمامنا حاجز، ولا تصيبنا ريحٌ معاكسة، ونتمنّى أن تزداد وتتضاعف -إن عاجلًا أو آجلًا- المؤسسات التي شيدتها أمتنا في الداخل والخارج، ويصبح عالمنا عالَمًا مثاليًّا يغبطنا

الجميع عليه.. وهكذا يمكننا أن نطلق اسم "حبّ الأمة العملي" على ذلك الجهد العالي والأداء المتميز في سبيل تحقيق هذه الغاية المثالية.

والحاصل أنكم لو آمنتم بأن قِيَمكم الذاتية ذات مصدرٍ إلهي، وأنها على درجة كبيرة من الحيوية والأهمية على اعتبار أنها سماويّة المصدر فلن تتوانوا عن تبليغ هذه القيم إلى الإنسانية كلها.. قد لا يقبل مخاطبُكم كل هذه القيم التي تُحدثونَه عنها، ولكن على الأقل سيتعرّف على وجهكم الحقيقي وجمالكم الداخلي، وبذلك تُشكلون حولكم حلقات من المحبين والمؤيدين والمتعاطفين، ولا تنغلقون على أنفسكم في هذا العالم الذي أصبح كالقرية الصغيرة، ولا تسلمون أنفسكم للعزلة والوحدة.

سمات النية التامة

سؤال: ما معنى النية التامة؟ وما هي خصائص النية التي قيل فيها إنها خيرٌ من العمل؟

الجواب: أجمع الفقهاء والمحدّثون أن المراد من النية قصد القلب[١٩٩]، أما النية التامة فهي توجُّهُ الإنسانِ إلى الله تعالى المقصود بالذات المعبود بالاستحقاق في كل أعماله، وتحرّيه مراد الله فيها، ولا يعزب عن علمكم أن أشهر حديث خاص بالنية قد صدّر به الإمام البخاري رحمه الله كتابه "صحيح البخاري"، والذي يقول فيه سيدنا رسول الله ﷺ: "**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**"[٢٠٠]، فلو قصد الإنسانُ بصلاته أن يخدع الناس أو يتظاهر أمامهم بتديُّنه فلن يُثاب على أيٍّ من تلك الأعمال في الآخرة؛ لأن قلبه كان متعلّقًا برضا الناس، وليس برضا الله تعالى؛ وهذه هي إحدى صفات المنافقين الذين يفتقدون إلى الإيمان عند وضوئهم وصلاتهم ودعوتهم وخدماتهم للإنسانية ولِأمتهم، ولما كان الحديث الشريف يبين أن لكلِّ امرئ ما نوى فإن الأعمال التي يُرجى منها أغراض وأمنيات دنيوية لا قيمة لها عند الله سبحانه وتعالى.

(١٩٩) الغزالي: **الوسيط**، ٥١٩/٢.

(٢٠٠) **صحيح البخاري**، بدء الوحي، ١.

درجات النية وفقًا لأفق المعرفة

من المسلَّم به أن نية الجميع لا تكون على نفس المستوى لأن نية الشخص تتناسب طرديًّا مع أفق معرفته؛ بمعنى أن النية تختلف وفقًا لدرجة الإيمان والتعمق في معرفة الله وارتقاء القلب بشعور الإحسان، فيجب على من اتسعتْ لديه آفاق المعرفة الإلهية أن يستهدف من نيته الوصول إلى أعلى المستويات؛ لأن مَن يُخلص النية التي يمكن أن نسميها "بسملة العبادات" سيؤدي عباداته من صلاة وصوم وزكاة بمزيدٍ من الوعي والشعور.

ويرى المذهب الحنفي أن التلفظ بالنية مستحبٌّ عند بدء الصلاة[٢٠١]، لكن الإمام الرباني أحمد السرهندي وهو مِن الشخصيات الشامخة بين أرباب المعاني لا يجيز في النية النطق باللسان[٢٠٢]؛ لأن المراد من النية قصد القلب، وهذا يستلزم من الإنسان أن يمحو من قلبه كلَّ ما سوى الله تعالى، وأن يقصده تعالى فقط، ويتجه إليه فحسب، ويفكر فيه لا غير، أما التلفظ باللسان من شأنه أن يشغل ذهنَ الإنسان، وإن حدث ذلك صار من الصعب أن ينسلخ القلبُ عن مثل هذه المعضلة، ويتوجه إلى ربه بشكلٍ تام، وهذا ما تقرره الملاحظة العميقة التي أشار إليها الإمام الرباني في مسألة النية.

وإنني شخصيًّا أحبّذ هذا الرأي وإن كنت أتلفظ بالنية عند الصلاة، فقد يكتفي الإنسان في نيته بالتلفظ باللسان، فلا يحصل له التركيز القلبي تمامًا؛ لأنه لم يستطع بدايةً أن يتوجه بلطائفه الظاهرة والباطنة إليه ﷻ، وقد لا تُقَرّر أصوات قلبه وأنفاسه ما يخرج من فمه، والحال أن ما يصدر عن الفم لا قيمة له في النية ما لم تؤكده أنفاسُ القلب.

(٢٠١) ابن عابدين: **الحاشية**، ١/١٠٩.

(٢٠٢) الإمام الرباني: **المكتوبات**، ١/١٦٠.

بيد أن إكراه الجميع على مستوى معين يعني الرغبة في أن يكون جميع الناس على أفقٍ قلبي وروحي واحد، وهذا ليس بطلبٍ موضوعي؛ والأَوْلَى أن نعتقد بأن الإنسان إذا أقبل على الله تعالى بنيةٍ خالصة قبِلَ اللهُ تعالى منه صلاتَه وزكاتَه وصيامَه وحجَّه، ومثل هذا الاعتقاد فيه دلالةٌ على اليقين في سعة رحمة الله، وسماحة دين الإسلام، وحسن الظن بالحق ﷻ، ولا ننسى أن حسن الظن من شعب الإيمان.

ارتباط النية الخالصة بالعمل

وحتى نفهم مسألة "قصد القلب" التي جاءت في تعريف النية فإننا في حاجة إلى مزيد من الإيضاح؛ فمسألة قصد القلب لا تعني مجرد إمرار الشيء على العقل والقلب، بل ثبات الإنسان وعزمه على القيام بما ينويه، وبذل الجهد في تحويل نيته إلى عمل على الفور؛ بمعنى آخر: كما أن الإقبال على الله يمثل البعد النظري للنية فإن تفعيل هذه النية يشكّل البعد العملي منها، ومن ثمّ يجب الثبات والعزم على تحقيق النية وتفعيلها، وإذا كانت النية من الممكن دراستها نظريًّا ضمن مبادئ الدين فتحقيقها لا يتأتى إلا عن طريق التدين، ولا تُفهم الجدّية في التدين إلا بمدارسة ومذاكرة الجانب النظري والعملي للأمر الذي ينوي المرء القيام به؛ بناءً على ذلك على الإنسان ألا يقتصر على نية القيام بعملٍ ما، بل لا بدّ من الجهد والعزم على تحقيق هذا العمل الذي ينوي القيام به، وهذا الأمر لا يسري على العبادات من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ فحسب، بل يتعدّاه إلى سائر الأعمال التي تندرج ضمن دائرة الأعمال الصالحة.

ويوضح الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله أن النية لا قيمة لها إلا بالعمل بقوله: "إن نية التواضع بتصنّعٍ وبشعورٍ ثانوي تُفسد التواضع الفطري، وكذا نية التكبّر بشعورٍ ثانوي تُزيل عِزّة النفس والوقار الفطري"(٢٠٣)، فخفض أجنحة التواضع خاصية مهمة معترف بها من بين الأخلاق العالية الإسلامية، لكن فكرة التظاهر بالتواضع يجعل التواضع لا قيمة له؛ لأنه يُفهم من هذا الوضع أن ذلك الإنسان يقصد شيئًا غير التواضع، وأنه ينساق وراء شهواته وأمانيه مثل تقدير الناس له، وتصفيقهم إليه، وإشارتهم إليه بالبنان، كما أن نية التكبّر تزيل عزة النفس ووقارها الفطري، فمثلًا ليس من الكبر التكبّر على متكبر؛ لاختلاف المقصود هنا، وبما أن النية لا يكون لها قيمة إلا بتفعيلها فالقصد الأساسي لا يظهر إلا بتفعيل ما بعدها من الجانب العملي.

الثواب المترتب على النية

وفي سياق الحديث عن أهمية النية يقول سيدنا رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: "**نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِه**"(٢٠٤)، ويقول صلوات ربي وسلامه عليه في حديث آخر: "**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا، فَعَلِمَ اللهُ أَنَّهُ قَدْ أَشْعَرَهَا قَلْبَهُ وَحَرَصَ عَلَيْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً وَلَمْ يُضَاعَفْ شَيْءٌ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْهِ، وَمَنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَلَيْهِ وَاحِدَةً وَلَمْ يُضَاعَفْ عَلَيْهِ**"(٢٠٥).

(٢٠٣) بديع الزمان سعيد النورسي: **المثنوي العربي النوري**، شمة، ص ٣٢٧

(٢٠٤) الطبراني: **المعجم الكبير**، ٦/ ١٨٥-١٨٦.

(٢٠٥) المصدر السابق، ٢٠٦/٤.

ومثالًا على ذلك؛ رجال الخدمة الذين يسعون بصدقٍ وإخلاصٍ وعزيمة قوية للانفتاح على كل أنحاء العالم، ونشرِ اسم الله تعالى في كل مكان، ورفرفةِ الاسم الجليل المحمدي في كل أصقاع الأرض، وتبليغ الدنيا كلها جميعَ القيم التي ترشحت وانبثقتْ عن جذورنا الروحية والمعنوية؛ فإذا ما تبادر إلى ذهنهم أيٌّ من هذه الغايات تجد أعينهم تفيض من الدمع حزنًا وقلوبهم تكاد أن تتمزق، فإذا ما سنحت لهم أيُّ فرصةٍ اقتنصوها لتحقيق هذه الغاية السامية، ولكن قد لا تسمح لهم الظروف بتحقيق نواياهم، وعندئذ يقول سيدنا رسول الله ﷺ لكلّ مؤمن على هذه الشاكلة إن نيّةَ المؤمنِ خيرٌ من عمله، وبفضلها يحصل على الثواب وكأنه قام بهذا العمل.

النية التامة التي تُكمل العمل

النية لها أهميةٌ بالغة في سعادة الإنسان الأبدية، غير أن النيّة المنجّية هي التي تدفع إلى العمل؛ بعبارةٍ أخرى: النية التامة هي عنصرٌ مكمِّل للعمل، وعلى ذلك فهي كمفتاحٍ سرّي يفتح الأبواب على اللامحدودية في عالم الدنيا المحدود؛ فمثلًا إذا ما حاول الإنسانُ أداء العبادات التي كلّف اللهُ تعالى بها عبادَه المؤمنين من صلاة وصوم وغيرهما، وبذل وسعه بإذن الله وعنايته في الإتيان بها فلن يعادل ما أداه من عبادات عُشر النعم التي أنعم الله بها عليه في الجنة، وإن ضاعف هذه العبادات في الدنيا إلى عشرة أو عشرين بل وإلى مائة ضعف؛ لأن في الجنة **مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**(٢٠٦)، يقول الأستاذ النورسي رحمه الله: "إن قضاء

(٢٠٦) صحيح البخاري، بدء الخلق، ٨؛ صحيح مسلم، الإيمان، ٣١٢.

ألف سنة من حياة الدنيا وفي سعادة مرفهة، لا يساوي ساعة واحدة من حياة الجنة"[٢٠٧]؛ لأن نعيم الجنة الذي حدثنا القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عنه هو بمثابة وحدة قياسية لتقريبِ هذا النعيم للأذهان ومن ثم تصوُّرِه نوعًا ما، وإلا فهو يتجاوز كلّ حدود التصوُّر والخيال.

وهكذا فمن المتعذر على العبد أن يفوز بمثل هذه الجنة أو ينالَ حقًّا فيها بما يقوم به من عبادات، ولكن قد يحاول الإنسان طوال حياته أن يأتي بأوامر ربه ويتجنّب نواهيه، ويصلي ويصوم ويقوم ويصدُق ويستقيم ويزكِّي ويحجّ، ويبذل كل ما في وسعه لإعلاء راية دين الإسلام المبين، ومع ذلك إذا ما نظرنا إلى نعيم الجنة فسنجد أن كل هذه الأعمال هي أعمال صغيرة لا ترقى بالإنسان كي يفوز بالجنة، ولكن قد يقول الإنسان بنواياه وتصرفاته: "يا رب، إن السلطنة تليق بالسلطان، والفقر يليق بالفقير، وهذا كل ما بيدي أنا العبد الفقير"، وحينذاك يقول الله تعالى له بناءً على صدق نيته: "لقد عاش عبدي ستين سنة قضاها في طاعتي، ولو عاش ألف سنة أو مليون سنة لقضاها في ذات السبيل، وأنا اليوم أعامله وكأنه عبدني كلَّ هذه الفترة"؛ بمعنى أن الحق ﷻ يستعيض بالنية عن العمل، ويعتبر نية العبد خيرًا من عمله.

الحفاظ على النية الخالصة منذ البداية

ثمة سببٌ آخر لكون النية خيرًا من العمل وهو: قد يكون الإنسان مخلصًا صادقًا في نيّته منذ البداية، ولكن عند تحقق النية قد يشوب

(٢٠٧) بديع الزمان سعيد النورسي: **المكتوبات**، المكتوب العشرون، المقام الأول، ص ٢٧٨.

العملَ أحيانًا الرياءُ والعجبُ والكبرُ، غير أن الخطر في النية لا يكون على نفس القدر الذي يحيط بالعمل؛ لأن النية محلّها القلب، ولا قِبلَ لأحدٍ بالاطلاع عليها؛ فمثلًا قد يقول إنسانٌ: "اللهم إني راض بأن تقبض روحي ألف مرة على أن يحلِّق الاسم الجليل المحمدي في هذه البلاد"، يقول هذا، والحال أن أقرب المقربين إليه لا يعلمون تمامًا مدى صدق هذه المشاعر والانفعالات في هذا القلب.

أجل، قد يؤمن المرءُ بأن الدنيا تُظلِم من دونه ﷺ، وتُنار به، ويظلّ يتلوّى من الهم والألم وكأنّ خنجرًا انغرز في صدره، ثم يتأوّه قائلًا: "لم أستطع أن أوفي بعهدي معك يا رسول الله!"، ويأخذه القلق والاضطراب دائمًا؛ فمثل هذه المشاعر والنوايا التي يغلّفها الإخلاصُ لها قدرٌ عظيمٌ عند الله ﷻ لأنه من المتعذّر أن يشوبها الرياءُ والسمعة والعجب والفخر والكبر.. وعلى ذلك يمكن القول إن الله تعالى سيتعاملُ مع هذه المشاعر والنوايا الخالصة على أنها أعمالٌ قد أتى بها العبدُ شريطة أن يتجنّب العبد الملاحظات السلبية التي تحطِّم وتمزِّق وتدمّر هذا المشاعر الإيجابية المخلصة، ليس هذا فقط بل إن الله تعالى سيملأ بهذه المشاعر المخلصة الثغرات التي لم يستطع العمل أن يسدّها، ويُنعم على العبد في النهاية بالسعادة الأبدية.

قد يمحو الإنسانُ أخطاءه وذنوبه بتوبته وإنابته، ولكن حتى وإن محاها فقد تظلّ بعضُ الثغرات في دفتر أعماله، أما رأس المال السرّي الذي يسدّ هذه الثغرات فهو النوايا الخالصة للإنسان، وتوجهه وعزمه واجتهاده التي ينوي تحويلها إلى عمل.

أجل، ندعو الله تعالى أن يتقبّل هذه النوايا ويسجّلها أعمالًا، ويسدّ بها ما كان من ثغرات في دفتر أعمالنا، حتى لا نشعر في الآخرة بالخزي والعار.

النيّة هي أبلغُ دعوة تستجلب العناية الإلهية

ولما كانت النية دعوةً وطلبًا يستجلب توجّهَ الله تعالى ومشيئته لتحقيق الأمر الذي يُنوَى القيام به فعلى الإنسان أن يلتزمها ولا يُفارقها أبدًا.

أجل، إن النية دعوةٌ يُقصد بها ألا ينزوي الإنسان في ناحيةٍ ما يائسًا مسكينًا بسبب كثرة أشغاله، بل عليه بدلًا من ذلك أن يستحضر النية ويشرع في عمله، ويأتي بما استطاع منه، حتى يتجلى الله تعالى بقدرته ومشيئته اللتين لا حد لهما، ويحقق أعماله التي يرغب في تحقّقها.

إذًا فليس من الصواب إهمال هذا الأمر البسيط إلى هذا الحد رغم أن المرء يمكنه القيام به على مستوى الشرط العادي.

أجل، يجب على الإنسان أن يكون عظيمًا في نيته، وأن يبتغي بها أعلى المستويات، فإذا لم يتحقق له كل ما يريد دفعة واحدة فلا ينكسر أو يمتعض، بل يحترم جريان الأمور على السنن الإلهية، ويأخذ بالأسباب، وبعد ذلك ينتظر الوقت المعين لتحقق ما يريد.

النوايا التي تتجاوز الإمكانيات

أما مَن منعتهم بعضُ الأعذار الشرعية عن القيام بما عزموا عليه سيَلقون معاملةً تناسبُ عمقَ نيّتهم؛ فمثلًا عندما تحدث القرآن الكريم عن موقف بعض سادتنا الصحابة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك لأنهم

لا يجدون ما ينفقون، ويتحمّلون به للجهاد في سبيل الله أثنى عليهم بما يستحقون من التبجيل والتقدير فقال: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (سورة التَّوْبَةِ: ٩/٩٢)، فمن ناحيةٍ أثنت الآية على المنفِقين لإنفاقهم، ومن ناحيةٍ أخرى تناولت مَن لا يجدون ما ينفقون بالثناء لِصفاء نواياهم وعمقِ مشاعرهم وسعة صدورهم؛ ولذا قال سيدنا رسول الله ﷺ في حقّ مَن تخلّفوا بسبب عذرٍ أصابهم أو لعدم وجود مطيّةٍ تحملهم أو لأنهم لو ذهبوا لَخلّفوا وراءهم أقرباء يحتاجون لرعايتهم: "**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا، إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ، حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**"(٢٠٨)، في هذا الحديث بشرّهم النبي ﷺ بأنهم رغم تخلُّفهم فقد شاركوا إخوانهم المحاربين في الثواب والعطاء والتوجه الإلهي، ويمكن القول بعبارة أخرى: لو أن هؤلاء كان لديهم من الإمكانيات ما لكم، وشاركوكم الظروف نفسها لخرجوا معكم، وحصلوا على ما حصلتم عليه بعملكم.

ولقد حدث مثل هذا الموقف في عصر السعادة (صدر الإسلام): فهذا سيدنا عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ تَخَلَّفَ عن غزوة بدر من أجل امْرَأَتِهِ رُقَيَّةَ بِنْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَتْ وَجِعَةً، حَتَّى إنّها تُوُفِّيَتْ يَوْمَ قَدِمَ أَهْلُ بَدْرٍ الْمَدِينَةَ، فَضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِسَهْمٍ(٢٠٩).

فكما رأينا فإن من ينوي أن يفعل شيئًا ثم يُفاجَأ بعذرٍ أو مشكلة تمنعه من تنفيذِ ذلك الفعل فهو معذورٌ في نظر الكتاب والسنة، ويُعامل وكأنه أوفى بما كان ينوي القيام به.

(٢٠٨) صحيح البخاري، المغازي، ٨١؛ صحيح مسلم، الإمارة، ١٥٩.

(٢٠٩) البيهقي: السنن الكبرى، ٩/١٧٤.

وفـي يومنـا هـذا ثمـة أنـاسٌ يغشـاهم الحمـاس من رأسـهم حتى أخمـص قدميهـم، ولا يفارقهـم في قعودهـم أو قيامهـم، متأهّبين في كل لحظة للقيام بالوظيفة المنوطة بهم، فهؤلاء يُثابون بإذن الله تعالى وكأنهـم يجاهـدون كل يـوم، بـل وتتمثّـل نيتهـم وعزمهـم وجهدهـم وثباتهـم نعمًـا فـي الآخـرة يغبطهـم الكثيـرون عليهـا؛ ومن ثـمّ فلا بدّ من إعلاء الهمة، وألا ننسـى أبدًا أن مَنْ كان همه أمته؛ فهو بحد ذاته أمة صغيرة قائمة[٢١٠]، وفوق ذلك مَنْ كانت همه الإنسـانيةَ كلَّها فهو إنسانيةٌ عظيمةٌ بحدِّ ذاته.

(٢١٠) بديع الزمان سعيد النورسي: **سيرة ذاتية**، الخطبة الشامية، ص ٤٨٠.

الغيرة والحسد

سؤال: كيف ينبغي لنا أن نتعامل مع الغيرة والحسد؟

الجواب: من المعلوم بداهة أن الحسد هو مرضٌ روحي يصعب للغاية التغلّب عليه، وأبرز مثالٍ يشكّل هذه الحقيقة هو حسد الشيطانِ لآدم عليه السلام ومن ثمّ تدحرجه في قعر جهنم، وإذا ما نظرنا إلى كلام الشيطان كما جاء في آياتٍ عدّة من كتاب الله عز وجل فسنجد أن الشيطان مخلوقٌ يعرف اللهَ حقًّا، ومع ذلك لم يرض لنفسه -عامدًا- السجودَ لآدم بسبب حسده وغيرته، وقد استعمل القرآنُ الكريم دومًا الفعل "أبى" تعبيرًا عن استكبار الشيطانِ السجودَ لآدم عليه السلام، مما يشير إلى شدة عصيان الشيطان واستكباره في هذا الأمر.

كما أنّ هذا يدلّ دلالةً قطعيةً وحتميةً على تمرّد الشيطان وعناده في مسألة السجود لآدم عليه السلام، إذ كان قلبُه موغرًا بالحقد والغلّ؛ وهذا جعله لا يفكر بإيجابية ولا يرى ما في هذا الأمر من وجوه جميلة، إذ لو كان من السهل مقاومة هذه المشاعر السلبية وقمعها لربما لم يتعرضْ الشيطان لمثل هذه العاقبة الوخيمة، أو كان بإمكانه أن يستخرج معنى معينًا من صلة آدم بربه وتعظيم الملائكة الكرام له، فيأخذ العبرة ويجمع شتات نفسه، ولكنّ هذا المخلوقَ التعيس ضحيةَ الغيرة والحسد جوزي بالتدحرج رأسًا على عقب في قعر جهنم ولا يزال..

جاء في الأثر أن إبليس لَقِي مُوسَى فَقَالَ: يَا مُوسَى أَنْت الَّذِي اصطفاك الله بِرِسَالَاتِهِ وكلّمك تكليمًا إِذْ تبتَ وَأَنا أُرِيد أَن أَتُوب فاشفع لي إِلَى رَبِّي أَن يَتُوب عليّ، قَالَ مُوسَى: نعم، فَدَعَا مُوسَى ربه، فَقيل: يَا مُوسَى قد قُضيت حَاجَتُك، فلقي مُوسَى إِبْلِيس قَالَ: قد أُمِرتَ أَن تسْجد لقبر آدم ويُتاب عَلَيْك، فاستكبر وَغَضب وَقَالَ: لم أَسجد حَيًّا أَأَسجد بِهِ مَيتًا[٢١١]، وهذا يعني أن حسد الشيطان كان مكعّبًا مضاعفًا لدرجةٍ دفعته إلى أن يلقي بنفسه في مستنقع الكفر وهو على وعي تام.

قتلُ الأخِ بسبب الغيرة والحسد

من جانبٍ آخر يحكي القرآن الكريم في سورة المائدة قصة ولديْ آدم اللذَين قتل أحدهما الآخر؛ وذلك حتى يشير إلى العاقبة الوخيمة الناشئة عن الغيرة والحسد[٢١٢]، ورغم أن القرآن الكريم والسنة الصحيحة لم يصرِّحا بأسماء ولدي آدم عليه السلام فلقد جاء في كتب الأمم السابقة أن اسمهما قابيل وهابيل.

أجل، نشأ ولدا آدم عليه السلام في بيتٍ يتنزل عليه الوحي زخًّا زخًّا، وكان أبوهما عليه السلام يُلقب بآدم صفي الله، كما كان من جهةٍ ما بذرة لسيدنا محمد ﷺ، ومع ذلك دبّتْ الغيرة في صدر أحد الولدين للآخر، فطار صوابه وقتل أخاه، وفي النهاية تلطخت يداه بدم أخيه.

وعبْرَ عملية استقراءٍ سريعة للتاريخ يمكننا أن نستخلص من عصارته العديدَ من الأحداث الشبيهة بهذه المسألة، وحاصل هذه الوقائع يشير إلى النهاية المفجعة التي أردى الحسدُ بسببها الكثيرين

(٢١١) السيوطي: الدر المنثور، ١/١٢٥.

(٢١٢) انظر: سورة المائدة: ٥/٢٧-٣١.

في نار جهنم، بل إن مفخرة الإنسانية سيدنا محمدًا ﷺ الذي لم يؤذِ مخلوقًا كائنًا من كان حتى ولو مجرّد وردة، ولم يقترف ذنبًا يُحاسب عليه؛ تعرض من قِبَلِ البعض إلى تصرّفاتٍ ناجمة عن الغلّ والحسد، فمثلًا نلحظ آثار هذا الحسد بوضوح في قول أبي جهل: "واللهِ لقد كان محمدٌ فينا وهو شابٌّ يُدعَى "الأمين"، فما جرَّبنا عليه كَذِبًا قطُّ... تنازَعْنا نحن وبنو هاشم الشرفَ، فأطعَموا وأطعَمْنا، وسَقَوا وسَقَيْنا، وأجارُوا وأَجَرْنا، حتى إذا تجاثَيْنا على الرُّكَب وكنَّا كفَرَسَيْ رهانٍ قالوا: "مِنَّا نبيٌّ"، فمتى نُدرِك مثلَ هذه!؟"[٢١٣].

لقد عاشَ هذا التعيس الذي يُدعى أبا جهل عمره كلّه مضمرًا العداوة للنبي ﷺ حتى تردّى قتيلًا يوم بدر، لقد انبطح واقعًا تحت وطأة الحسد والغيرة فسيق إلى جهنم، فلو أنه رفع رأسه واعترفَ قبل وفاته بدقائق بأن ما فعله برسولِ الله ودينِه كان ناشئًا عن حسده وغيرته، وجاء رسولَ الله ﷺ مستغفرًا فلربما حظي بالعفو الإلهي.. غير أن الحسد والغيرة ساقاهُ وتمكّنا منه أيّما تمكُّن، حتى إنه بينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة كان قلبه يطفح غرورًا وكبرًا وحسدًا!

والآن تأملوا، إذا كان الحسد الذي يشبه جبل الثلج لم يذب ويتفتت في جو رسول الله ﷺ الساحر فلا عليكم إذا لم يَذُبْ جليدُ حسدِ الآخرين لكم، وعليكم أن تعتبروا هذا الأمر طبيعيًّا وعاديًّا من ناحية ما.

حتى وإن وضعتم لهم سلَّمًا يرتقون به إلى الجنة..

وقد يرغب بعضُ الناس أحيانًا في إحباط أيّ عمل حتى وإن كان خيّرًا ومهمًّا ونافعًا للناس، وما ذلك إلا لأن القائمين على العمل

(٢١٣) ابن كثير: **البداية والنهاية**، ٨٣/٣.

لم يشركوهم في شيءٍ منه؛ فمثلًا في الآونة الأخيرة أُقيمت فعاليات اللغة التركية في تركيا بمشاركة طلابٍ من كل دول العالم، وكان المنظِّمون لهذا المهرجان من رجال الأناضول بما في ذلك المعلمون الذين نذروا أنفسهم لخدمة التعليم، ورجال الأعمال الفدائيون؛ بمعنى أن أولمبياد اللغة التركية كانت نتاجَ جهدٍ وسعي العديد من أصحاب التضحية والفداء في تركيا، ومن خلالها استطعنا توجيه أنظار الجميع إلى منظومة القيم التي رشحت من جذورنا الروحية والمعنوية، دون إكراهٍ أو دعايات تبشيرية؛ لأنه لا يمكن أن تكون اللغة بمنأى عن عالمها الفكري والثقافي الذي تقوم عليه، ورغم ما عاشته دولتنا من أزمات اقتصادية كبيرة فقد استطاع رجلُ الأناضول صاحبُ المروءة أن يجابه كلَّ الصعوبات ويحقق -ولا يزال- هذه المهمة العظيمة بفضلٍ من الله وعنايته، وبذلك حالفه التوفيق في أمرٍ تعذّر تحقيقه على هذا المستوى في أحلك فترات تاريخنا.. ورغم كل هذا قام بعض من يشاركنا محيطنا وأرضنا وثقافتنا وأعرب عن ضجره واستيائه مما يحدث زاعمًا بأننا نضخِّم الأمور، وجاء آخر وقال: ما هذه الخدمات إلا دعايات إعلامية.

وكما رأينا فإن بعض الناس لا يستسيغ كل هذه الفعاليات التي صاحبتها المشقات وفاضت من أجلها العبرات، ويتفننون في إلصاق الافتراءات بها، بل قد يتملكهم الحسد والغيرة أحيانًا، فيتمنون إحباط كل الخدمات الجميلة، وفي بعض الأحيان يحاولون تفعيل ما يضمرونه من حسدٍ وغيرة، ويستثيرونكم بالاتهامات والمزاعم الباطلة التي لا أساس لها من الصحة، فضلًا عن ذلك يبذلون كل وسعهم لاستئصال شأفة الخدمات التي تقومون بها في البلاد

المختلفة، وعلى ذلك فإن إطلاق مصطلح الحسد على هذا الكمّ الهائل من الغيظ والحقد غيرُ كافٍ لاستحضار المعنى، لأن الحسد حينها سيقول: لا يمكن أنْ أندرج ضمن هذه القائمة.

أجل، إن هذه الصفات الهدامة لم تُوجد إلا ليُنعَتَ بها الكفار، والحال أنه لا يمكننا أن ننعت هؤلاء الناس بالكفر، كما لا نستطيع أن نقول إنهم منافقون، ولكن هؤلاء الناس قد تمكن منهم الحسدُ والغيرة لدرجة أنكم لو وضعتم لهم سُلّمًا يرتقون به إلى الجنة لفعلوا كل شيء في سبيل هدم ذلك السلم النوراني.

استساغة الحسد

إذًا علينا أن نضع في اعتبارنا أن الحسد والغيرة موجودان على الدوام، وكما أنّ مَن يخالفوننا عقيدتنا يقومون بما يقتضيه كفرُهم فإن الذين يشاركوننا الدربَ نفسَه ويشاطروننا المشاعر والأفكار عينها ويتداولون معنا المؤلفات نفسها قد يَكشفون ويُعلنون أيضًا عن حسدهم وغيرتهم في بعض الأحيان.. وعلى ذلك فإن الوظيفة التي تقع على عاتقنا هي أن نستوعب كلَّ هذا بمقتضى الطبيعة البشرية ونحتضن الجميع، فالله تعالى يقول: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾ (سورة آلِ عِمْرَانَ: ٣/١٣٤)، وبمقتضى هذه الآية عليكم أن تكظموا غيظكم وتعفوا عن غيركم، ولا تُقابلوا الإساءة بالإساءة؛ لأن الخسارة تقلّ عند اصطدام سيارتين إحداهما واقفة والأخرى سائرة، ولكن إذا كانت السيارتان على نفس السرعة واصطدمتا كانت الخسارة أكثر فداحةً، وعلى نفس الشاكلة عليكم أن تقللوا الضرر بألا تقابلوا الإساءة بالإساءة؛ حتى تذيبوا جليد الحسد والغيرة الذي يحيط بمعارضيكم.

من جانب آخر ومن أجل التغلب على هذه المشاكل لا بدّ من إرشاد الناس حولكم باستمرارٍ إلى سبل التعمق في الإيمان، وتوجيه أنظارهم إلى الإخلاص والأخوّة، وإعادة تأهيلهم باصطحابهم إلى الجلسات الإيمانية، وبذل الجهد في سبيل قمع عجبهم وأنانيتهم، حتى يكونوا مظهرًا للارتقاء من جديد إلى مرتبة البقاء بالله في حياتهم الروحية والقلبية، وحينئذ لا بدّ وأن تكون المادة الأولى التي تتصدر جلساتكم الإيمانية هي مراجعة ما إذا كنا في علاقتنا مع ربنا سبحانه وتعالى على المستوى الذي يرتضيه الله أم لا، وهل نحن نسير في عالمنا الفكري على الهدي القرآني أم لا!؟

لا بد أن تكون الجلسات الإيمانية فرصةً لإنعاشنا وشحذنا من جديد، وعلى ذلك تظل بعض الأمور مثل افتتاح مدرسة في مكان ما، أو فتح جامعة في موضع ما أمرًا بسيطًا في مقابل هذه المحاسبة العظيمة، ولو نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية لتبيَّن موضع القصور فينا، إننا لا نستطيع تكميم فم هذا الوحش الكاسر المسمّى بالحسد لأننا لم نداوم على حضور الجلسات الإيمانية، ولم نحوّل دفة الحديث في مجالسنا إلى الحديث عن الله ورسوله ﷺ، ولم نركِّز كلامنا دائمًا على الحديث عن الإيمان الحقيقي، الأمر الذي جعل هذا الوحش يسوق المسلمين إلى التلفُّظ بأقوال بذيئة، والقيام بتصرّفات مشينة.

المصادر

أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (ت: ٢٧٥هـ)؛ **سنن أبي داود** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٣)؛ دار السلام، الرياض.

أبو يعلى، أبو يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي (ت: ٣٠٧هـ)؛ **المسند**؛ تحقيق: حسين سليم أسد؛ دار المأمون للتراث، دمشق، ١-١٣، ط ٢، (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

أبو الليث، نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: ٣٧٣هـ)؛ **تنبيه الغافلين بأحاديث سيد الأنبياء والمرسلين**؛ تحقيق: يوسف علي بديوي؛ دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط ٣، (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: ٤٣٠هـ)؛ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**؛ دار السعادة، مصر، ١-١٠، ط ١، (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م). [ثم صورتها عدة دور منها: ١- دار الكتاب العربي، بيروت، ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٣- دار الكتب العلمية، بيروت (طبعة (١٤٠٩هـ) بدون تحقيق)].

أبو الشيخ الأصبهاني، أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري (ت: ٣٦٩هـ)؛ **العظمة**؛ تحقيق: رضاء الله بن محمد إدريس المباركفوري؛ دار العاصمة، الرياض، ١-٥، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ابن أبي شيبة، أبو بكر بن أبي شيبة عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: ٢٣٥هـ)؛ **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**؛ تحقيق: كمال يوسف الحوت؛ مكتبة الرشد، الرياض، ١-٧، ط ١، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)؛ **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-١٩، ط ١، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (ت: ٢١٣هـ)؛ **السيرة النبوية**؛ تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي؛ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي، ١-٢، ط ٢، (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).

ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ التميمي أبو حاتم الدارمي البُستي (ت: ٣٥٤هـ)؛ **صحيح ابن حبان**؛ تحقيق: شعيب الأرنؤوط؛ مؤسسة الرسالة، ١-١٨، بيروت، ط ١، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)؛ **البداية والنهاية**؛ دار الفكر، ١-١٥، (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٣هـ)؛ **سنن ابن ماجه** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٦)؛ دار السلام، الرياض.

ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء البصري البغدادي (ت: ٢٣٠هـ)؛ **الطبقات الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٨، ط ١، (١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (ت: ١٢٥٢هـ)؛ **رد المحتار على الدر المختار**؛ دار الفكر، بيروت، ١-٦، ط ٢، (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (ت: ٤٦٣هـ)؛ **جامع بيان العلم وفضله**؛ تحقيق: أبي الأشبال الزهيري؛ دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ١-٢، ط ١، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت: ١٠٨٩هـ)؛ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**؛ تحقيق: محمود الأرناؤوط؛ دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١-١١، ط ١، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري (ت: ٣١١هـ)؛ **صحيح ابن خزيمة**؛ تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي؛ المكتب الإسلامي، بيروت، ١- ٤.

أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ)؛ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**؛ مؤسسة قرطبة، القاهرة ، ١-٦.

البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي (ت: ٢٩٢هـ)؛ **مسند البزار**؛ تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله (من ١ إلى ٩) وعادل بن سعد (من ١٠ إلى ١٧) وصبري عبد الخالق الشافعي (١٨)؛ مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ١-١٨، ط ١، (٢٠٠٩م).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)؛ **شعب الإيمان**؛ تحقيق: الدوكتور عبد العلي عبد الحميد حامد؛ مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١-١٤، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **السنن الكبرى**؛ تحقيق: محمد عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ٣، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **المدخل إلى السنن الكبرى**؛ تحقيق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي؛ دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت.

ـــــــ، **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث**؛ تحقيق: أحمد عصام الكاتب؛ دار الآفاق الجديدة، بيروت.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م)؛ **صحيح البخاري** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-١)؛ دار السلام، الرياض.

الديلمي، شيرويه بن شهردار بن شيرو يه بن فناخسو، أبو شجاع الديلمي الهمذاني (ت: ٥٠٩هـ)؛ **الفردوس بمأثور الخطاب** (مسند الفردوس)؛ تحقيق: السعيد بن بسيوني زغلول؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٥، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ)؛ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**؛ دار الكتاب العربي، بيروت، ١-٤، ط ٣، (١٤٠٧هـ).

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري (ت: ٤٠٥هـ)؛ **المستدرك على الصحيحين**؛ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٤، ط ١، (١٤١١هـ/١٩٩٠م).

الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت: ٣٦٠هـ)؛ **المعجم الأوسط**؛ تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني؛ دار الحرمين، القاهرة.

______، **المعجم الكبير**؛ تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي؛ مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١-٢٥، ط ١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣٦٩هـ)؛ **تاريخ الطبري** (تاريخ الرسل والملوك)؛ دار التراث، بيروت، ١-١١، ط ٢، (١٣٨٧هـ/١٩٥٨م).

______، **جامع البيان في تأويل القرآن**؛ تحقيق: أحمد محمد شاكر؛ مؤسسة الرسالة، ١-٢٤، ط ١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري (ت: ٢٠٤هـ)؛ **مسند أبي داود الطيالسي**؛ تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي؛ دار هجر، مصر، ١-٤، ط ١، (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

محمد فتح الله كُولن، "**ريشة العزف المكسورة** (*Kırık Mızrap*)" (لم يترجم بعد).

المناوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١هـ)؛ **فيض القدير شرح الجامع الصغير**؛ المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١-٦، بيروت، ط ١، (١٣٥٦هـ).

مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)؛ **صحيح مسلم** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

مقاتل بن سليمان، أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت: ١٥٠هـ)؛ **تفسير مقاتل بن سليمان**؛ تحقيق: عبد الله محمود شحاته؛ دار إحياء التراث، بيروت، ط ١، (١٤٢٣هـ/٢٠٠١م).

النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ)؛ **الأذكار**؛ تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط رحمه الله؛ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

نور الدين الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (ت: ١٠٤٤هـ)؛ **السيرة الحلبية** (إنسان العيون) في سيرة الأمين المأمون؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١-٣، ط ٢، (١٤٢٧هـ).

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (ت : ٣٠٣هـ)؛ **سنن النسائي** (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٢)؛ دار السلام، الرياض.

ـــــــ، **السنن الكبرى**؛ تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، ١-١٠، ط ١، (١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١هـ)؛ **الجامع الصغير**؛ تحقيق: يوسف النبهاني؛ دار الفكر، بيروت، لبنان، ١- ٣، ط ١، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

ـــــــ، **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**؛ دار الفكر، بيروت، ١-٨.

سعيد النُّورْسِي، بديع الزمان (ت: ١٩٦٠م)؛ من كليات رسائل النور: **الكلمات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **المكتوبات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **اللمعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **الشعاعات**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **المثنوي العربي النوري**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **صيقل الإسلام**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **الملاحق**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **إشارات الإعجاز في مَظَانِّ الإيجاز**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

ـــــــ، من كليات رسائل النور: **سيرة ذاتية**؛ دار النيل للطباعة والنشر، إسطنبول، ط ٢، (١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (ت: ٤٨٣هـ)؛ **المبسوط**؛ دار المعرفة، بيروت، ١-٣٠، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

عبد الله بن المبارك، أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي التركي ثم المرْوزي (ت: ١٨١هـ)؛ **الزهد والرقائق لابن المبارك**؛ تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي؛ دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

فخر الدين الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي (ت: ٦٠٦هـ)؛ **مفاتيح الغيب**؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١-٣٢، ط ٣، (١٤٢٠هـ).

الإمام الرباني، أحمد السرهندي الفاروقي (ت: ١٠٣٤هـ)؛ **المكتوبات**؛ وقف الإخلاص، إسطنبول، ١-٤، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي (ت: ٧٩٠هـ)؛ **الموافقات**؛ تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان؛ دار ابن عفان، ١-٧، ط ١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني الشافعي (ت: ٧٩٣هـ)؛ **شرح المقاصد في علم الكلام**؛ دار المعارف النعمانية، باكستان، ١-٢، ط ١، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت: ٢٧٩هـ)؛ **سنن الترمذي**؛ (موسوعة الحديث الشريف الكتب الستة-٤)؛ دار السلام، الرياض.

الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (ت: ٤٢٧هـ)؛ **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**؛ تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور؛ دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١-١٠، ط ١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).

خليل بن شاهين، الظاهري، غرس الدين (ت: ٨٧٣هـ)؛ **الإشارات في علم العبارات**؛ دار الفكر، بيروت.

الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)؛ **الوسيط في المذهب**؛ تحقيق: أحمد محمود إبراهيم، محمد محمد تامر؛ دار السلام، القاهرة ، ١-٧، ط ١، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

هذا الكتاب يتناول التوجيهات المعنويّة والروحية لسالكي طريق الحق؛ خصوصًا في مراحل المحن والابتلاءات وكيفيّة التعامل معها. كما يُجسِّدُ الكتاب المنهجَ الفريد الذي تنتهجه "حركة الخدمة" وعلى رأسها الأستاذ كولن في مواجهة العراقيل وتذليل العقبات، وكيف أنه ينظر إلى كل تلك العقبات على أنها ضريبة لا مفر منها، حقيقةٌ على كلِّ سالكي سبيل الحق.

دار النيل
www.daralnile.com

+2 01023201001
ahmed.daralnile@gmail.com